



الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ - شعبة الدراسات العليا

الحياة السياسية في تونس ١٨٨١ - ١٩٤٥
رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب
الحديث و المعاصر

إعداد الطالب : عباس مصطفى سليمانو

إشراف الدكتور : عقيل نمير

العام الدراسي ٢٠١١ - ٢٠١٢

فهرس البحث

الموضوع	الصفحة
أولاً- المقدمة.	٤
ثانياً- التمهيد.	٨
ثالثاً- الفصل الأول (الحماية الفرنسية على تونس والنظام السياسي . . . ٢٣-٥٩	
١- فرض الحماية الفرنسية على تونس..	٢٤
٢- سياسة الحماية الفرنسية..	٢٨
١- من الناحية الاقتصادية.....	٢٩
٢- من الناحية الثقافية.	٣٢
٣- من الناحية العسكرية	٣٣
٤- من الناحية الاجتماعية.....	٣٤
٣- نظام الحكم ومؤسساته.	٣٩
١- السلطة التشريعية.	٣٩
أ- مجلس الشورى.	٤٠
ب -المجلس الكبير..	٤٢
٢- السلطة التنفيذية.	٤٥
أ-الباي.	٤٥
ب-الوزراء.	٤٩
ج-المقيم العام الفرنسي في تونس..	٥٢
د - الكاتب العام للحكومة التونسية..	٥٣
٣- السلطة القضائية.	٤٨
رابعاً- الفصل الثاني (الحياة السياسية في تونس ١٨٨١- ١٩١٨) .. ٦٠- ١٠٧	
١- المقاومة في تونس.	٦٣
١- الكفاح المسلح العسكري.	٦٤
٢- النضال السياسي السلمي..	٦٧

٢- المؤثرات الداخلية و الخارجية في الحركة الوطنية التونسية.	٦٨...
٣- الجمعيات والمدارس والأحزاب.	٧٩
١- جامع الزيتونة.	٧٩
٢- المدرسة الصادقية.	٨٧
٣- الجمعية الخلدونية.	٩٣
٤- جماعة الحاضرة.	٩٦
٥- جمعية قدماء الصادقية.	١٠٠
٦- حزب تونس الفتاة.	١٠٤
خامساً - الفصل الثالث (الحياة السياسية في تونس ١٩١٨ - ١٩٤٥)	
الأحزاب السياسية و الحركة النقابية.	١٠٧-١٤٣.....
١- الحزب الحر الدستوري القديم.	١٠٨.
٢- الحزب الحر الدستوري الجديد.	١١٦
٣- الحركة النقابية.	١٢٨.
سادساً - الفصل الرابع (الصحف السياسية في تونس). ١٤٣ - ١٧١	
١- الصحف التونسية.	١٥١
٢- الصحف الفرنسية.	١٦٢
٣- الصحف الايطالية.	١٦٤ ...
٤- الصحف الشيوعية.	١٦٥
٥- الصحف اليهودية.	١٦٦
سابعاً- الخاتمة.	١٧١.
ثامناً - الملاحق.	١٧٦
تاسعاً- المصادر والمراجع.	١٨٦.

أولاً: المقدمة:

يعنى هذا البحث بدراسة الحياة السياسية في تونس بين عامي ١٨٨١ - ١٩٤٥، وهي فترة هامة جداً في تاريخ تونس الحديث و المعاصر؛ إذ خرجت تونس عن نطاق السيطرة العثمانية التي امتد منذ ١٥٧٤ واستمرت إلى ١٨٨١، فقد كانت هذه التبعية اسمية في كثير من الأحيان، وكما أصاب المركز الضعف انتقل إلى الولايات و خاصة البعيدة. رغم سياسة الإصلاحات و محاولة الوصول إلى ما كانت عليه أوربا. هذا الضعف أفسح المجال لظهور الأطماع الأوربية التي بدأت تقسم ممتلكات الرجل المريض (الدولة العثمانية)، فكان الاحتلال الفرنسي لتونس ١٨٨١ ولأسباب إقليمية و دولية فرضت لأول مرة نظام الحماية في البلاد العربية. تكمن أهمية الدراسة في أن الحركة الوطنية قد أخذت دفعا، وزاد نشاطها فيظل نظام الحماية انذاك فجعلت يتعرف على الفرق بين الحضارة الأوربية وبين الواقع العربي في ظل الدولة العثمانية. فكان نشوء المدارس العصرية، و الجمعيات ، و الأحزاب السياسية التي انعكست على الواقع التونسي و في جميع مجالات الحياة. ولأن عرفت مصر نهضة مع مطلع القرن التاسع عشر كانت تونس تسير هذا الخط وبنفس الفترة. .

ولأن موضوع دراسة تونس في ظل السيطرة الفرنسية ضخم ويحتاج إلى دراسات كثيرة تغطي هذه المدة، تم اختيار الجانب السياسي الذي يتناول الحياة السياسية في تونس بين عامي (١٨٨١ - ١٩٤٥) أي: من الاحتلال الفرنسي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ولتأخذ الأحداث السياسية مجرى آخر بعد ذلك.

أهمية البحث:

- تأتي من أهمية تونس كونها إحدى الولايات التي خرجت عن نطاق السيطرة العثمانية وكيف تعامل الاستعمار الفرنسي معها كونه فرض لأول مرة نظام استعماري جديد « الحماية ».

- لإلقاء نظرة على واقع الحياة السياسية وكيف تعامل رأس الهرم (الباي) مع الاستعمار؟ ثم كيف تعامل الشعب التونسي مع هذا الواقع الجديد؟

وأما السبب في اختيار البحث: أهمية الحركة الوطنية التونسية، و اثر رجالها الذين أثروا ليس في تونس فقط بل في الواقع العربي و الإسلامي، ودور الجمعيات و الأحزاب و المدارس في تاريخ تونس.

وبالطبع كل باحث يواجه مجموعة من الصعوبات، ومن أهمها في هذا البحث.

- عدم تعاون السفارة التونسية بدمشق بحجة عدم توفر المصادر والمراجع حول الموضوع.

- وجود عدة مراجع مختلفة الأفكار والآراء حول موضوع ما.

- قلة المصادر عن بعض الجوانب في البحث ولاسيما الفصل الأول في الحديث عن الباي والوزراء ، والمجلس الكبير ، ومجلس الشورى فاضطرت للسفر إلى الأردن الشقيق بسبب توافر المادة العلمية.

أما إشكالية البحث:

فتمثلت الإشكالية في الاستعمار الفرنسي وسياسته بجانبها الإيجابي والسلبي؛ إذ اختلفت الآراء بالنسبة للوجود الفرنسي وهذا ليس بالنسبة لتونس بل للمغرب العربي. كما يطرح البحث عدة تساؤلات:

- ما موقف السلطات الفرنسية من الباي ورجاله؟

- كيف نظر الشعب التونسي وطبقته المثقفة إلى هذا الواقع؟

- كيف رد الشعب التونسي على المستعمر الفرنسي؟

وقد جاء البحث مقسماً إلى مقدمة وفصل تمهيدي وأربع فصول وخاتمة و ذيلته بقائمة لأهم المصادر والمراجع.

تناولت المقدمة أهمية موضوع الدراسة والصعوبات التي اعترضت البحث وأهم المصادر والمراجع في البحث.

وفي الفصل التمهيدي:

تناول لمحة عن واقع تونس قبيل الاحتلال الفرنسي من الناحية السياسية وأهم البايات الذين حكموا تونس خلال هذه المدة، وسياسة بعضهم التي أدت إلى التدخل الأجنبي من خلال صراع شديد بين الدول الكبرى (فرنسا - إيطاليا - إنكلترا) ونجاح فرنسا بتونس بعد تأييد ألمانيا.

أما الفصل الأول:

فقد تحدث عن دخول فرنسا إلى تونس وأسباب الدخول ثم سياسة فرنسا الاستعمارية، وركز على الجانب السياسي إذ قسمته إلى سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية وذلك لسهولة الدراسة.

أما الفصل الثاني:

فقد تم فيه القاء الضوء على أهم الجمعيات ،و المدارس العصرية ،والأحزاب في تونس التي جاءت نتيجة اختلاط الطبقة التونسية بالمجتمع الأوربي ،وبعد جهود بذلها التونسيون للرد على الاستعمار الفرنسي، ولعل هذه الأمور هي التي ميزت الشعب التونسي عن شعوب المغرب العربي. هذه المؤسسات لم تطالب بالاستقلال و إنما طالبت ببناء ارضية متينة تضاهي المجتمع الأوربي .

وجاء الفصل الثالث:

ليتناول أهم الأحزاب السياسية في تونس بين عامي ١٩١٨ - ١٩٤٥؛ كون ان الحرب العالمية الأولى افرزت متغيرات اقليمية ودولية ، وظهور افكار و مبادئ جديدة في العالم مثل حقوق الإنسان ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، كما تطرق البحث الى الحركة النقابية التي تعد جزءاً لا يتجزء من الحراك السياسي التونسي في هذه الفترة .

أما الفصل الرابع والأخير:

فقد تناول وضع الصحف السياسية التي ظهرت في هذه المرحلة وتوجهاتها والآراء التي طرحتها هذه الصحف التي بالتأكيد تعبر عن أهداف من كان قائماً عليها.

أما منهج الدراسة: فقد أتبع البحث المنهج التحليلي القائم على الدراسة الموضوعية للمصادر والمراجع بشكل دقيق مع الابتعاد عن التحيز والعاطفة.

أما فيما يتعلق بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها في الدراسة. فلقد اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع المهمة منها:

- علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي.
 - أحمد القصاب: تاريخ تونس المعاصر.
 - علي المحجوبي: انتصاب الحماية الفرنسية في تونس.
 - عبد العزيز الثعالبي: تونس الشهيدة.
 - خير الدين التونسي: اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك.
 - الهادي التيمومي: تاريخ تونس الاجتماعي.
 - عبد الله الطاهر: الحركة الوطنية التونسية.
 - صلاح العقاد: المغرب العربي (دراسة في تاريخه الحديث والمعاصر).
- وأخيراً: لا يسعني إلا أن أشكر كل من قدم لي المساعدة من مصادر ومراجع وتوجيهات وأخص بالذكر قسم التاريخ جامعة دمشق ومكتبة الأسد والمركز الفرنسي لدراسات الشرق الأدنى وجامعة اليرموك في أربد والجامعة الأردنية في عمان. كما أتوجه بجزيل الشكر للجنة التي قبلت مناقشة رسالتي المتواضعة وأعطوني الكثير من وقتهم. فبذلوا كل الجهود ،و الملاحظات العلمية القيمة في سبيل إخراج عمل يكون له فائدة. ولمشرفي الدكتور عقيل نمير كل الشكر والاحترام على كل مساعدة قدمها لي. فلم يكن مشرفاً فقط بل كان موجهاً ومعلماً وأخاً وكثيراً ما كان مدققاً علمياً ولغوياً. وأتمنى أن يكون بحثي هذا قد أضاف شيئاً إلى مكتبائنا ويكون مرجعاً يستفيد منه كل زملائي في قسم التاريخ والقراء في المستقبل

ثانياً - التمهيد :

استطاع القائد العثماني سنان باشا عام ١٥٧٤ الدخول إلى تونس، و طرد الأسبان، ثم إنهاء حكم الأسرة الحفصية التي كانت تحكم منذ عام ١٢٠٧، وبذلك أصبحت تونس الولاية العثمانية الثالثة في المغرب العربي بعد الجزائر و ليبيا. عمل سنان باشا على تنظيم الولاية إدارياً فعين على رأس الإدارة حاكم لقبه (بكلر بكي) أو بك البكوات ^(١) ووضع حامية من الانكشارية يقدر عددها بـ ٤٠٠٠ انكشاري قسمها إلى ٤٠ فرقة ^(٢) يرأس هذه الفرقة شخص يطلق عليه لقب الداوي ^(٣).

قام رؤساء الفرق الذين يطلق عليهم الدايات بقتل كبار قادة الانكشارية، وعينوا واحداً منهم ليتولى السلطة مع أمير الأمراء، ومع مرور الوقت أصبحت الكلمة الأولى في الولاية للداوي الذي تصرف كرئيس مستقل للدولة، و نظمت الأمور من جديد فأنشأ الدايات منصب جديد هو الباي ^(٤) ومهمته جمع الضرائب بعد أن قوي مركز البايات طمعوا بالسلطة و استطاع أحدهم و هو مراد بك ١٦١٢ - ١٦٣١ انتزاع السلطة من الدايات، وجعل هذا المنصب وراثياً في أسرته، ثم حصل على لقب باشا من العاصمة اسطنبول، وبعد حمودة باي ١٦٣١ - ١٦٥٩ من أهم البايات الذين حكموا تونس في هذه الفترة حيث نشطت الزراعة والتجارة و خاصة تجارة المنتجات التونسية فقط ^(٥).

(١) بكلر بكي : وتعني أمير الأمراء و تعتبر الرتبة العسكرية الثانية في الدولة العثمانية بعد السلطان ، وهو المسؤول الأول عن الأعمال العسكرية . أنشأ هذا المنصب الغازي أورخان عندما منح هذا اللقب إلى ابنه سليمان باشا ، و قد اقتبس هذا اللقب من السلاجقة ، وتمتع بكلر بكي بامتيازات كاملة ، انظر : عامر، محمود علي : تاريخ المغرب (ليبيا) مطبعة الاتحاد ١٩٨٧ ، ص ٣٤ .

(٢) عامر، محمود علي : دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر ، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٤ ، ص ٣٣٣ .

(٣) الداوي : معناها الخال و تعادل ألب أي الشجاعة و القوة . استخدمت هذه الرتبة في الشمال الإفريقي وتمتع صاحبها بنفوذ ومكانة عالية . انظر عامر : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(٤) الباي : معرب من لفظ بك بالتركية و معناها السيد العظيم و هو من ألقاب رؤساء الجيش و أبناء الباشوات و أول من تولى هذا المنصب في تونس رمضان باي . انظر بن الخوجة ، محمد : صفحات من تاريخ تونس، دار الغرب بيروت ، ص ٥٧ .

(٥) الصباغ، ليلى : تاريخ العرب الحديث و المعاصر ، دار الكتاب ، دمشق ، ١٩٨٩ ، ص ١٦٢ .

تعرضت البلاد بعد وفاة حمودة إلى منازعات على الحكم انتهت بقيام ثورة بقيادة آغا السباهية إبراهيم الشريف عام ١٧٠٢، فقتل جميع أفراد الأسرة المرادية، وأخذ لقب باي و داي، ثم تم تعيينه برتبة باشا من السلطان العثماني، وبذلك جمع السلطات الثلاثة في شخصه.

كان إبراهيم الشريف متعصباً للعنصر التركي و معروفاً بعدائه وبطشه للعنصر العربي، فمارس الظلم والقهر وطبق الاستبداد، وأعد قواته العسكرية لمهاجمة الجزائر، فقام الأهالي الجزائريون بالتعاون مع التونسيين ضده و قتله و تعيين قائد جيشه حسين بن علي التركي مكانه. ^(١)

استطاع حسين بن علي التركي تأسيس أسرة توارثت الحكم من عام ١٧٠٥-١٩٥٧ أي قيام الجمهورية التونسية. لقد حكمت أسرة بن علي البلاد حكماً مستقلاً عن الدولة العثمانية، وإن بقيت من الناحية الصورية تابعة لها. تعاقب على حكم البلاد (١٩ باياً) البعض منهم كانت فترة حكمه مضطربة شهدت أحداث وثورات كثيرة، مثل علي باشا ١٧٤٠-١٧٥٦ الذي تميز عصره بالاضطرابات و ممارسته الظلم والقهر الذي قاده إلى ترك السلطة، و التوجه إلى قسنطينة في الجزائر ليلقى حتفه. أما القسم الآخر من البايات فقد تميز عهدهم بالإصلاح و العمران أمثال أحمد باشا ١٨٣٩-١٨٥٥ الذي قام بحركة إصلاحية تشبه حركة محمد علي باشا في مصر، لكن تسرع أحمد باشا في بناء دولة حديثة على غرار الدولة الأوروبية أدى إلى وقوع البلاد بضائقة اقتصادية، فاضطر في نهاية الأمر إلى فرض الضرائب على الشعب و الاستدانة من الدول الأوروبية و خاصة فرنسا. ^(٢)

لكن أهم ما تميز به عصر البايات في تونس حركة الإصلاحات التي كانت تشهدها الدولة العثمانية ^(٣) والولايات العربية منها كبلاد الشام ومصر. بالإضافة إلى

(١) عامر، محمود علي : تاريخ المغرب العربي (الجزائر - تونس) ط ٥، جامعة دمشق ٢٠٠٦، ص ١٧٩.

(٢) عامر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، مرجع سابق ، ص ٣٣٦.

(٣) ظهرت الإصلاحات في الدولة العثمانية نتيجة الاحتكاك مع أوروبا عن طريق الدبلوماسيين في أوروبا والجاليات التجارية و السياح الأوروبيين و السفراء و البعثات التبشيرية ثم التجار و خاصة المسيحيين في بلاد الشام

الاحتكاك والتأثر بالأوروبيين كان للقرب الجغرافي من أوروبا، وهجرة الأندلسيين الكبيرة وما تحمله من مؤثرات اسبانية دوراً في الحركة الإصلاحية التونسية.^(١)

بدأت أول الإصلاحات في عهد المشير أحمد باشا؛ نظراً لحاجته للجيش انطلاقاً من وقوعه بين قوتين القوة العثمانية في طرابلس، والقوة الفرنسية في الجزائر، فبرز عمله في المجال العسكري عن طريق:

١- تحديث عناصر الجيش من أبناء تونس و توفير بعض التجهيزات لهذا الجيش.

٢- إنشاء مدرسة باردو لتخريج الضباط المتعلمين سميت بالمدرسة الحربية أو (مكتب الحرب)، وهو أول معهد علمي في المجال العسكري، ويعتبر هذا العمل من أهم إنجازات أحمد باي.

لقد كانت هذه المدرسة أول اتصال علمي حقيقي لتونس مع أوروبا في العصر الحديث، ولم تكن محصورة في تخريج الضباط برتبة معينة فهي إلى جانب طابعها العسكري كان لها جوانب ثقافية متعددة، و برز أشخاص في مجال الحياة السياسية أمثال الفريق حسين^(٢) والفريق رستم^(١) صديقا الوزير المصلح خير الدين و عملا معه

. قام السلاطين العثمانيين بالإصلاح تحت ضغط الهزائم العسكري التي مني بها الجيش الانكشاري لذلك تركزت الإصلاحات بالدرجة الأولى على الجيش، فكان أول السلاطين المصلحين سليم الثالث / ١٧٨٩-١٨٠٧ / الذي قام بتحديث الجيش ثم جاءت المرحلة الثانية من الإصلاحات والتي عرفت بالتنظيمات الخيرية في عهد السلطان محمود الثاني / ١٨٠٨-١٨٣٩ / التي جاءت رداً على توسع محمد علي في بلاد الشام و عرفت بخطط كلخانة (غرفة الورد)، ثم ظهر قرار عرف بخط همايون ١٨٥٦ إثر انتصار الحلفاء على روسيا في حرب القرم، وقبيل توقيع معاهدة باريس تحت ضغط الدول الغربية، ثم كانت آخر الإصلاحات في عهد السلطان عبد الحميد الثاني / ١٨٧٦-١٩٠٨ / حيث تم إعلان الدستور .

انظر : رافق، عبد الكريم : العرب و العثمانيون ، ط ٢، مطابع ألف باء، دمشق ١٩٩٣ ، ص ٣٧٧ .

(١) إحسان أوغلي، أكمل الدين : الدولة العثمانية، نقله إلى العربية صالح سعداوي، مج ٢، مركز الأبحاث اسطنبول ١٩٩٩، ص ٣٦٦.

(٢) الفريق حسين: أصله من المماليك الجراكسة دخل تونس أيام مصطفى باشا. تربى في قصر باردو ثم دخل المدرسة الحربية على يد المشير أحمد باشا. تعلم العلوم العسكرية والأوربية ترفع في المناصب حتى حصل على لقب

في الاتجاه الإصلاحى، إذ تولى حسين رئاسة بلدية الحاضرة وإدارة المعارف وتولى رستم وزارة الخارجية ثم وزارة الحرب. إضافةً إلى هذا فإن المدرسة اهتمت بتقريب العلم من التلاميذ، فعربت الكتب الخاصة بالعلوم العسكرية عندما ظهرت الحاجة لإيجاد كتب بالعربية في مستوى التلاميذ، لهذا شهدت المدرسة حركة تعريب عن التركية والفرنسية في مجال الكتب القانونية والتعليمية نشاطاً ملحوظاً على يد ضباط الجيش.^(٢) لقد قام بالتعريب تونسيون و ضباط الجيش وساعدهم على ذلك مدير مكتب الحرب المستعرب /كاليقاريس/^(٣) والشيخ محمود قابادو^(٤)،

واشتهر من المترجمين على الخصوص الرائد محمد بالحاج عمر الذي كان له النصيب الأكبر في تعريب الكتب العسكرية والقوانين عن الفرنسية، والفريق رشيد عرب كتباً عن التركية، والضابط أحمد بن عبد الرحمان عرب عن الفرنسية. إن برنامج مدرسة باردو يدل على أنها لم تكن مدرسة عسكرية بحتة بل كانت مدرسة عسكرية تربوية. وهي أول مدرسة تعليمية احتوى برنامجها على مواد العلوم العصرية، وكانت

أميرالاي. وهو أول من تولى رئاسة المجلس البلدي توفي عام ١٨٨٧. انظر عبد السلام، احمد : مواقف إصلاحية قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٨٦، ص ١٧ .

(١) الفرق رستم : مملوك جركسي قدم تونس في عهد أحمد باي ودرس بمكتب الحرب باردو وولي وزارة الحرب بالدولة التونسية من جمادى الأولى ١٢٨٧ - ١٨٧٠ إلى شعبان ١٢٩٥ - ١٨٧٨ ثم توفي في الأستاذة ١٨٨٦. انظر عبد السلام : مرجع سابق، ص ٢٠

(٢) بن بلغيث، الشيباني: المجلة التاريخية المغاربية: العدد ٦٥-٦٦، تونس ١٩٩٢، ص ٢٦-٢٧.

(٣) كاليقاريس: ولد وتوفي في برابانيا في إيطاليا. خدم في الجيش التركي ثم أصبح مديراً لمدرسة باردو برتبة كولونال. ثم تفرغ لدارسة اللغة العربية وفي عام ١٨٦٠ أصبح مدرساً للغة العربية في جامعة تيران. انظر بو الخضر، مسعودة : الشيخ الثعالبي و الحركة الوطنية، المكتبة العصرية، بيروت، ص ١٩ .

(٤) محمود قابادو : (١٨١٤-١٨٧١) العلامة و الشاعر و الأديب، ولد في تونس، تعلم البلاغة و التصوف، و أكثر من قراءة الكتب، سمي معلماً في مدرسة باردو، ومدرساً في جامع الزيتونة، تولى الإفتاء، ثم تنقل بين عدة عواصم عربية و أوروبية، توفي في تونس و دفن في مقبرة الزلاج.

انظر : بوذينة، محمد : مشاهير التونسيين، شركة الفنون، تونس ١٩٨٨، ص ٤٥٤.

أول حركة ترجمة عرفها تاريخ تونس الحديث، ^(١) ولم يكتفِ الباي بذلك بل قام عام ١٨٤٠ بتأسيس مكتبة الأحمديّة، وجلب لها الكتب القيّمة من كل أنحاء تونس و أمر العلماء بترتيبها و فهرستها، ووضعت في خزائن بلغت عشرين خزانة، ويحق لكل قارئ استعارة الكتاب عاماً كاملاً، وبهذا يكون قد سهل العلم لجميع الطلبة و خاصة الفقراء. ^(٢) و في مجال آخر عمل أحمد باي على تحرير الإنسان من العبوديّة، وذلك بإلغاء الرق في أنحاء البلاد على مراحل، إذ أصدر أمراً في عام ١٨٤٢ بأن المولود في المملكة التونسيّة حر لا يباع و لا يشتري. ^(٣)

لكن في عام ١٨٥٣ حدث انهيار مالي في تونس؛ بسبب النفقات الكبيرة الناتجة عن تجميع عدد كبير من العسكر، ومن أجل توفير النفقات اتبع سياسة اقتصادية تقوم على احتكار عدد من المواد والصناعات مع رفع أسعارها، كما اضطر إلى استحداث ضرائب جديدة و إطلاق يد العمال و الملتزمين على الشعب، فكان أكثر الناس استغلالاً لذلك وزيره مصطفى الخزندار و شريكه محمود بن عياد الذي فرّ بالأموال إلى الدولة العثمانية و روسيا. إضافة إلى ظهور تيار إصلاحية في هذه الفترة يتزعمه خير الدين التونسي ^(٤)، فكان صدور قانون عهد الأمان عام الذي تم توقيعه بحضور قناصل فرنسا و إنكلترا وبعض الدول الأوروبية ورجال الدين المسيحي وأحبار اليهود. ^(٥)

(١) عبد المولى، محمود: مدرسة باردو الحربية، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٧٧، ص ٢٥.

(٢) ابن أبي الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج ٤، ج ٢، وزارة الثقافة، تونس، ص ٤٩.

(٣) المحجوبي، علي: النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر، دار سراس للنشر، تونس ١٩٩٩، ص ٩٠.

(٤) الوزير خير الدين التونسي: ١٢٢٥-١٣٠٨ هـ- ١٨١٠-١٨٩٠ من أصل شركسي قدم صغيراً إلى تونس و تربى في كنف أحمد باي وتقلد مناصب عليا حتى وصل إلى منصب الوزارة عام ١٨٧٣ و بفضل جهوده أعلن دستور المملكة التونسية ثم أبعد عن الوزارة ١٨٧٧ حيث ذهب إلى الآستانة و تقرب من السلطان عبد الحميد و تولى الصدارة العظمى عام ١٨٧٨ ثم استقال من منصبه ١٨٧٩ و نصب عضواً في مجلس الأعيان و استمر فيه حتى توفي في الآستانة. له مؤلف شهير بعنوان أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. انظر: الشنوفي، علي: الحوليات التونسية، العدد السادس، تونس ١٩٦٩، ص ٨٩.

(٥) عامر، محمود علي: تاريخ المغرب العربي المعاصر، مطبعة قمحة أخوان، دمشق ٢٠٠١، ص ٨٩.

يُعدُّ عهدُ الأمان إعلاناً لحقوق الإنسان في تونس، وهي بمثابة التوفيق بين مبادئ الشريعة الإسلامية والمبادئ الأوروبية. يتألف من أحد عشر بنداً وقد نص على المساواة أمام القانون، وتأكيد الأمان لجميع سكان تونس والمحافظة على أرواحهم والمساواة في فرض الضرائب وعلى حرية التدين وألغيت الامتيازات الممنوحة للمسلمين^(١). لقد كان هذا العهد بمثابة إصلاح في الولاية التونسية جرى على غرار الإصلاحات العثمانية ولكن لم يكن هذا الإصلاح نابع من إرادة الباي وإنما بضغط من الدول الأوروبية ولصالح رعاياها. لم تتوقف الإصلاحات بعد وفاة محمد باي، بل تابع أخوه محمد الصادق سياسة الإصلاح التي بدأت في تونس. ورث الحكم عن أخيه عام ١٨٥٩ و هو الباي الثاني عشر من سلسلة الأسرة الحسينية الحاكمة في تونس وقد حصل على لقب مشير دون صعوبة من السلطان العثماني ودام حكمه ٢٣ عام كان ضعيف الشخصية. افتتح عهده بالتوقيع على عهد الأمان والقسم على العمل به. أعلن الباي في عام ١٨٦١ أول دستور للبلاد^(٢) ينص على ضمان الحريات الشخصية لجميع المواطنين دون تمييز في الجنس والدين، وعلى إنشاء المجلس الأكبر ليشترك الباي في سلطته التشريعية. كما أنه قرر إنشاء محاكم نظامية تعمل بموجب التشريعات على النمط الأوروبي.

لم تكن الدول الأوروبية راضية عن ذلك الإصلاح، فوجود مجلس إلى جانب الباي قد يعيق ما تطلبه من امتيازات وتنازلات، كما أن إنشاء المحاكم النظامية، وتطبيق القوانين على النمط الأوروبي يعني إخضاع الجاليات الأوروبية في تونس لتلك المحاكم لا لمحاكمهم الخاصة لذلك وقفت ضده فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وبالتالي لاقى الإصلاح أيضاً معارضة من الأهالي والعلماء حيث زيادة الضرائب، والاستياء من السياسة الداخلية والخارجية للباي التي أفقرت البلاد ودفعتها إلى الاستدانة من الخارج

(١) بنبلغيث، الشيباني: الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي، زغوان، صفاقس ١٩٩٥، ص ٦٦.

(٢) - الصباغ: مرجع سابق، ص ٢٨٠

- يعود سبب إصدار عهد الأمان إلى أن يهودياً سب مسلماً فقام المسلم وقتل الرجل اليهودي، فبلغ الخبر إلى اليهود في فرنسا بالاحتجاج دولة فرنسا التي أرسلت أساطيلها إلى تونس. انظر ابن أبي الضياف: مرجع سابق، ص ٢٣٥

البابي^(١)، وكان أهم ما يميز عهد الصادق بای هو وقوعه تحت تأثير الحاشية والموظفين في قصره، أمثال الوزير مصطفى خزنة دار^(٢) الذي جعل البلاد غارقة بالفوضى السياسية والمالية، فتدخلت الدول الكبرى الأوروبية للمحافظة على ديونها واقترحت فرنسا تشكيل لجنة مالية ووافقتها إنكلترا وإيطاليا فصدر مرسوم من البابي عام ١٨٦٨ بتشكيلها من فرنسيين وانكليزيين وإيطاليين.

ألح البابي على خير الدين بقبول الوزارة لكنه رفض في البداية وبضغط من البابي قبل بذلك وأعطاه لقب الوزير. واجه خير الدين عدة مشاكل:

- ١- اللجنة المالية المختلطة التي تريد وضع يدها على كل شيء في الدولة.
- ٢- إنقاذ الشعب من الجوع والفقر.
- ٣- بقاء مصطفى خزنة دار في وزارة المالية.
- ٤- مطامع الدول الأوروبية
- ٥- رغبة البابي بالاحتفاظ بسلطته

أما اللجنة المالية بعد مفاوضات طويلة استطاع أن يحصر تدخلها في موارد محددة. ثم قام بالتضييق على مصطفى خزنة دار و عزله^(٣).

وبالنسبة للإصلاحات فقد لجأ إلى تنظيم الإدارة، والتشديد من الأساليب التي تؤدي إلى محاربة الفساد، وأعاد تنظيم الأوقاف والقواعد الإجرائية في المحاكم

(١) الصباغ: مرجع سابق، ص ٢٨٢.

(٢) هو يوناني الأصل ولد في أحد الجزر اليونانية عام ١٨١٧ بيع صغيراً في أسواق اسطنبول، ثم بيع إلى بايات تونس مرة ثانية، تولى منصب المالية والداخلية أيام أحمد بای وتزوج أخته، بقي بمنصبه أيام محمد بای حيث تولى الوزارة الكبرى والخارجية، وفي أيام الصادق محمد بای فتحت البلاد لسياسة القروض الأجنبية بعد فراغ الخزينة و إفلاسها فانهى الأمر إلى تكوين لجنة المراقبة المالية لضمان الديون الأوروبية وسدادها ونتيجة لتصرفاته استقال خير الدين من وزارة البحر، ومصطفى أغا من وزارة الحرب، لكن الأمر انتهى أخيراً بعزله من منصبه بعد ٣٦. انظر: بن بلغيث: مرجع سابق، ص ٦٨.

(٣) أمين، أحمد: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ط ١، المكتبة العصرية صيدا بيروت ٢٠٠٧، ص ١٢٦.

الشرعية وتحسين المدن و إصلاح التعليم في جامع الزيتونة، وتعزيز مطبعة الحكومة وتوسيعها، وإنشاء مكتبة وطنية، وتأسيس مدرسة الصادقية الحديثة لتعليم اللغات التركية والفرنسية والإيطالية والعلوم الحديثة فضلاً عن اللغة العربية وعلوم الدين الإسلامي.

انتهج خير الدين سياسة الإبقاء على التوازن بين الدول الثلاث التي كانت لها مصالح في تونس إنكلترا- فرنسا- إيطاليا وذلك بمحاولة عدم التنازل إلى أي منها أكثر مما ينبغي من جهة، وعدم إغضاب أي منها كلياً من جهة أخرى. إلا أن انتهاج سياسة التوازن هذه كانت خاطئة فقوة دولته لا تصل إلى قوة الدول الأوروبية فخر خير الدين في آخر الأمر تأييد الجميع فأصبح عاجزاً عن الوقوف في وجه الباي الذي كان قد نعم عليه لسعيه في سبيل الحد من سلطته وبذلك انتهت حياة خير الدين السياسية في تونس عام ١٨٧٧ حيث تلقى دعوة من السلطان عبد الحميد ليكمل حياته هناك.^(١)

بعد خروج خير الدين بدأت مصالح ومطامع الدول الاستعمارية تظهر وخاصة فرنسا وإنكلترا وإيطاليا التي برزت على مسرح الأحداث وتريد حصتها من ممتلكات الرجل المريض. وكانت هذه الأطماع موجودة قبل رحيل خير الدين لكن وجوده وأمثاله من المصلحين حاولوا قدر المستطاع منع الدول الكبرى من التدخل بشؤون الإيالة، لذلك دائماً كانت فرنسا تحاول أن ترمي بثقلها على الباي لإزاحة هذا الوزير عن منصبه ونجحت بذلك، فإنكلترا التي احتلت مصر ١٨٨٢ تريد حصتها في تونس وكذلك فرنسا الجارة لتونس منذ عام ١٨٣٠ نظرت إلى تونس كجزء من الجزائر تستطيع من خلالها توسيع نشاطها البحري في المتوسط، أما إيطاليا فقد ظهرت على مسرح الأحداث بعد عام ١٨٧٠ وأرادت أن تشارك في أحداث العالم فنظرت إلى تونس بحكم القرب الجغرافي والامتداد التاريخي.

الأطماع الأوروبية والتنافس على تونس:

إنكلترا: كانت تدرك أهمية موقع تونس الاستراتيجي لذلك حاولت منع وصول النفوذ الفرنسي إلى تونس وحصلت على امتيازات تجارية كمد خط حديد من تونس إلى

(١) حوراني، ألبرت : الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، دار النهار بيروت (د.ت)، ص ١١١ .

الحدود الجزائرية وظلت أطماع إنكلترا حتى قبل انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨^(١) حيث بدأت بتأييد مطامع الفرنسيين، فقد أعلن وزير خارجية إنكلترا أن تونس امتداد لمنطقة النفوذ الفرنسي وافر مبدأ ترك حرية التصرف لفرنسا فيها مقابل موافقة فرنسا على احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص.

تردد الوزير البريطاني في إبداء موافقته كتابياً، ثم عاد فأعلن بصورة سريعة أن افعلوا في تونس ما ترونه ملائماً. فمن المستحيل بقاء النظام الحالي في تونس. . وعلى فرنسا أن تقوم بإصلاح هذه البلاد و في عام ١٨٧٨ حذرت بريطانيا فرنسا بأن عليها أن تعتمد على نفسها في حال اعتراض إيطاليا لكنها أظهرت في الوقت نفسه سرورها العظيم بنجاح التجربة التي قامت بها فرنسا في الجزائر من خلال الرسالة الحضارية التي تقوم بها وأقرت إعطاء فرنسا نفوذاً عظيماً في تونس لأن إنكلترا ليست لها مصالح خاصة في البلاد^(٢). لاشك أن إنكلترا كانت تريد موافقة فرنسا على احتلالها لقبرص وهذا ما بدا من رسالة وزير الخارجية البريطانية، ولكن بالإضافة إلى ذلك فإن بريطانيا أرادت إبعاد فرنسا عن مصر والمنطقة العربية الشرقية حتى لا تهدد مصالحها على الهند وخاصةً أنها فعلت ذلك أيام نابليون بونابرت، إضافة لضمان وقوف فرنسا إلى جانبها للوقوف ضد الخطر الألماني **Besmark** بسمارك^(٣).

(١) مؤتمر برلين : عبارة عن اتفاق دولي عقد ١٨٧٨ من أجل تقسيم جزئي للإمبراطورية العثمانية وخاصة بعد تهديد النمسا بالحرب إثر معاهدة سان ستيفانو التي أعطت للروس نفوذاً كبيراً في البلقان، كان المؤتمر برئاسة الألماني بسمارك وحضرته الدول الأوروبية الكبرى. انظر عيد، عاطف : الحضارة العربية تونس - الجزائر، بيروت ١٩٩٩، ص ٦٣.

(٢) أحمد ياغي، إسماعيل و شاكركر محمود: تاريخ العالم الإسلامي الحديث (قارة أفريقيا) ج ٢، دار المريخ للنشر، السعودية ١٩٩٣، ص ٩٨.

(٣) بسمارك : أول مستشار للإمبراطورية الألمانية . ولد عام ١٨١٥ في بروسيا، درس القانون ثم مثل مملكة بروسيا في البرلمان الاتحادي ١٨٥١ . عمل على بسط سيطرة بروسيا على الإمارات الألمانية ، شنّ عدة حروب ضد الدنمارك والنمسا وفرنسا بعد أن ضمّ الألزس و اللورين عام ١٨٧٠ ، وبعد سنة أعلن الوحدة الألمانية ، عزل عن منصبه عام ١٨٩٠ و توفي عام ١٨٩٨ . انظر : الكيالي ، عبد الوهاب : الموسوعة السياسية ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ١٩٩٠، ص ٢٠٤.

فرنسا: كانت علاقتها مع الدولة العثمانية قديمة جداً وتعود العام ١٥٣٥ أيام السلطان سليمان القانوني والملك فرانسوا الأول الذي يعود الفضل له في عقد أول امتيازات تجارية مع الدولة العثمانية. هذه الامتيازات كانت بهدف تنظيم التجارة والوجود الدائم للأوروبيين في أرض الإسلام من خلال شبكة من العلاقات التجارية في البحر المتوسط، وتونس إحدى الولايات التي لم تكن بعيدة عن هذه الاتفاقيات حيث وجد في تونس فندق ضخيم وقديم يسمى باسم فرانسوا الأول وهذا دليل على الوجود الفرنسي في البلاد. ^(١)

كانت هزيمة فرنسا أمام ألمانيا عام ١٨٧١ ضربة قوية، فأرادت أن تستيقظ بسرعة، ورأت في إقامة إمبراطورية لها وراء البحار، خير ما يعوضها عن الخسارة. فازداد إيمان فرنسا بضرورة حصولها على تونس، ولاسيما أن الصناعات الفرنسية تبحث عن أسواق لها في العالم، وكذلك عن المواد الخام، وأسطولها في حاجة إلى مناطق ارتكاز وخاصةً بعد فتح قناة السويس. وفي حاجة أيضاً إلى موازنة القوى في البحر المتوسط بعد اتفاق قبرص فكان في تونس إغراء كبير لفرنسا، إذ ارتفعت الأصوات بالبحث عن مستعمرات، حتى أنهم أطلقوا على هذا الجزء من إفريقيا اسم (فرنسا الجديدة) لكن فرنسا تعمدت الإبطاء في القيام بهذه المغامرة حتى يتبين لها نيات ألمانيا التي ظهرت على مسرح الأحداث، كما أنها فضلت ألا تقوم بعمل يحدث بينها وبين إيطاليا جفوة كبيرة، فرأت أن تبادر بجس نبض إيطاليا وفي ٢٨ تموز عام ١٨٧٧ قدم القنصل الفرنسي مشروع معاهدة إلى الباي فرفضها كما رفض أي مفاوضة مع فرنسا. لكن فوز شركة ايطالية بامتياز مد خط حديد عجل بالمشروعات الفرنسية مما جعل وزير خارجية فرنسا يصر على أن تونس امتداد للجزائر فكان هذا سبب قيام حملة سخط في إيطاليا على فرنسا أثارها أعضاء المجلس النيابي من أجل المحافظة

(١) Genevieve, falges: **un lien de rencontre orient – occident**, Toulouse ٢٠٠٨. P٢٠ .

على المصالح الإيطالية في تونس ولو على حساب الصداقة الفرنسية وهكذا بدأ الصراع على تونس بين إيطاليا وفرنسا^(١).

إيطاليا: كانت تعتبر تونس جزءاً منها لمبررات تاريخية وجغرافية؛ كونها خضعت لسيطرتها فترة من الزمن في العصر الروماني إضافةً إلى القرب الجغرافي حيث بدأت الهجرات الإيطالية إلى تونس بأعداد كبيرة توافقت مع حاجة البايات إلى كوادرناسية لسياسة التحديث التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر، فقد ذكر الفرنسيون عام ١٨٨١ أن أعداد الإيطاليين بلغ ٦٥ ألف إيطالي بينما ذكر الإيطاليون أن عددهم بلغ مئة ألف إيطالي وكان أغلب هؤلاء قادمين من صقلية وليغوري وبونزا وخليج نابولي فعملوا في الزراعة والبناء وأعمال أخرى. ^(٢) فشكّلت هذه الأعداد الكبيرة عقبة أمام تحقيق الأطماع الفرنسية.

فكرت فرنسا بإعطاء طرابلس إلى إيطاليا لكنها فشلت فاضطرت الحكومة الفرنسية أن تظهر لروما أنها لن تحتل تونس بسرعة وإذا فكرت في احتلالها فإنها سوف تتفاهم مع إيطاليا، مع تأكيدها على أهمية تونس بالنسبة للجزائر وتصميم فرنسا على استخدام القوة أمام اعتداء أي دولة على سلامة تونس حتى أن الوزير (**De France**) دي فريسنيه وجه رسالة إلى السفير الإيطالي يحذره من التدخل في تونس: ^(٣) «في كل ما يختص بتونس نرى أن مصلحتنا السياسية والإستراتيجية تقتضي ألا يعرقل العلاقات بين تونس والجزائر أي نفوذ أجنبي وأنا نرى أن تونس ما هي إلا امتداد لمستعمراتنا الأفريقية وإن حريتنا في العمل في الجزائر تجعلنا نهتم بكل ما يحدث في تونس وإن سياسة الباي يجب أن تكون مرتبطة بسياسةنا».

وحين أرسل قنصل إيطاليا لحكومته أن فرنسا تحاول فرض حمايتها على الإيالة. ثار الرأي العام الإيطالي وشعر بالمهانة بعد أن أخذت النمسا البوسنة والهرسك

(١) رياض، زاهر: الاستعمار الفرنسي لإفريقيا في العصر الحديث، مكتبة الجامعات للنشر: القاهرة (د.ت)،

ص ٩٣-٩٤.

(٢) Crespo, Gerard : **Les Européens voyageurs**, Montpellier ٢٠٠٨, p ٥.

(٣) مصطفى صفوت، محمد: مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره في البلاد العربية، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥،

ص ٦١.

واستولت بريطانيا على قبرص وخرجت هي فارغة اليدين، فحاولت التقرب من إنكلترا وشرح أخطار الوجود الفرنسي في تونس فباءت محاولتها بالفشل فتوجه القنصل الايطالي إلى إغراء الوزير مصطفى بن إسماعيل^(١) بالتنازل عن ميناء بنزرت لإيطاليا ففشل ثم حاول أن يحصل على وعد بتحويل ميناء بنزرت إلى ميناء حر فباءت محاولته بالفشل أيضاً.^(٢)

أدركت إيطاليا خطورة القنصل الفرنسي في تونس لذلك غيرت قنصلها وعينت القنصل **Mashio** ماشيو المعروف بدهائه وذكائه وعناده فسعى من أول وصوله إلى عرقلة وتجميد نشاط القنصل **Rostan** روستان وفي نفس الوقت سعى لدى الباي للحصول على امتيازات عقارية ومد السكك الحديدية وفتح البنوك أيضاً وقد حقق نجاحاً كبيراً عندما حصل على امتياز مد خط حديدي بين تونس وحلق الوادي والمرسي عام ١٨٨٠ بواسطة الشركة (روبانتينو) التي كانت تمولها الحكومة الإيطالية، وبذلك حصلت إيطاليا على مكانة فريدة للنفوذ السياسي بتونس ولم يتردد السفير الايطالي بالإعلان أن فرنسا لم يعد لها أي امتياز في تونس أكثر من إيطاليا وفي روما كان الكونت **Mafi** مافي السكرتير العام لشؤون الخارجية الإيطالية والذي يسانده السفير العثماني يقوم بفعاليات سريعة للتدخل العثماني بالولاية هدفها إحباط خطة فرنسا.

في هذا الوقت أحدث اعتلاء حزب الأحرار السلطة بإنكلترا الأمل لدى الايطاليين للحصول على مساندة بريطانيا حيث تبني الحزب سياسة الحياد بين فرنسا وإيطاليا، فأكمل **Mashio** ماشيو أعماله في تونس حيث أنشأ جريدة عربية (المستقبل) وفيها شن حملة على فرنسا وبين خطورة الوضع من قبل فرنسا لكن الأخيرة ردت بأنها لا

(١) ولد مصطفى بن إسماعيل في بنزرت ١٨٥٠، تولى الوزارة الكبرى بتونس في عام ١٨٧٨، واستمر بها حتى

عام ١٨٨١، حيث تنحى عن الوزارة بضغط من فرنسا، ترك البلاد وتوجه إلى اسطنبول التي توفي فيها عام ١٨٨٧ على حالة من الفقر يرثي لها. انظر: الشنوفي: مرجع سابق، ص ٩٠.

(٢) يحيى، جلال: العالم العربي الحديث، دار المعارف مصر ١٩٦٦، ص ٢٩٤-٢٩٥.

تسمح لأي دولة أن تستولي على تونس بحكم قربها من الجزائر وهددت بإرسال حملة بحرية إلى ميناء تونس^(١).

بعد حصول إنكلترا على قبرص ومصر أرادت أن تحصر نفوذها في المشرق العربي؛ لذا أيدت فرنسا التي ظهرت أطماعها في تونس ولم يكن من معارض سوى إيطاليا لذلك اشتد الصراع بين الدولتين حتى مؤتمر برلين وفيه أعلن القائد الألماني بسمارك تأييده لفرنسا باحتلال تونس لذلك رجحت كفة الفرنسيين بدعم ألماني حيث قال: " إنني أعتقد أن الكمثرى التونسية قد نضجت، وأنه حان الوقت لتقطفوها إن هذه الثمرة يمكن أن تفسد أو أن يسرقها أحد آخر، إذا تركتموها وقتاً طويلاً على الشجرة. . . . لقد وقفت إنكلترا بجانب فرنسا حيث عرض الوزير البريطاني Salsberry (سالسبري) على زميله الفرنسي تونس. "خذوا تونس إذا رغبتم فإن إنكلترا لن تقاومكم فيها وستحترم قراركم. . . إنكم لا تستطيعون أن تتركوا قرطاجة بأيدي البرابرة"^(٢).

إن تأييد ألمانيا و إنكلترا لفرنسا كان ينطوي على مجموعة من الأهداف:

- ١- إبعاد فرنسا عن فكرة الثأر لهزيمتها في حرب السبعين عام ١٨٧٠ التي خسرت فيها الألزاس واللورين.
- ٢- أرادت ألمانيا خلق مشاكل بين فرنسا وإيطاليا من جهة والدولة العثمانية وفرنسا وإيطاليا من جهة أخرى على مبدأ فرق تسد.
- ٣- إن تأييد كل من إنكلترا و ألمانيا احتلال أرض إسلامية يجعل موقف فرنسا صعباً أمام هذه الشعوب التي لن تسكت على رؤية مستعمر أجنبي يغزو بلادها.
- ٤- أرادت إنكلترا إبعاد فرنسا عن منطقة المشرق العربي و خاصة بعد فتح قناة السويس.

(١) تشابجي، عبد الرحمن: المسألة التونسية والسياسة العثمانية. ترجمة عبد الحليل التميمي، دار الكتب الشرقية،

تونس ١٩٧٣، ص ٥٩-٦٠.

(٢) فارس: مرجع سابق، ص ٣٦٤.

بعد هذا التأكيد والدعم الألماني والإنكليزي للفرنسيين سعت فرنسا إلى بسط سيطرتها على تونس فاصطدمت بمعارضة إيطاليا وعندما اشتد الصراع والخلاف بينهما ادعت فرنسا أن بعض القبائل التونسية قد هاجمت الحدود الجزائرية- التونسية وهذا يلحق الضرر بأمن الجزائر كونها محمية فرنسية لذلك توجهت القوات الفرنسية إلى الإيالة التونسية ودخلتها في أيار عام ١٨٨١.

إما الموقف العثماني من دخول فرنسا إلى تونس، فقد ظهر من خلال الرسالة التي أرسلها الباب العالي في ١٠ أيار عام ١٨٨١ إلى سفراء الدول الأوروبية احتجاجاً على هذا الواقع، مع التركيز على أن تونس هي جزء من الدولة العثمانية، وأن الباب العالي لا يريد تخريب العلاقات مع فرنسا مع التزام البايات على توفير الأمن على طول الحدود مع الجزائر.

"فالحكام التونسيون أعلنوا بأنهم حاضرون ليضبطوا الحدود من غير مزاح، فالدولة الفرنسية حكمت بأنه يلزمها إرسال عدد من العساكر الذين استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدوا عن المركز إلا بضع فراسخ، من غير الالتفات إلى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا ليأخذوا التدابير اللازمة لتمهيد الراحة في المواضيع الثائرة. . . ونزيدكم شيئاً آخر هو أنه في عام ١٨٦٣ في واقعة القرض التونسي الذي وضع في باريس من غير رضا الباب العالي كان (رسيودوارون دولويس) وزير خارجية نابليون الثالث قد أعلن رأيه بناءً على شكايات الدولة العثمانية وقال أنه يلزم إما الباشا يتولى أو الطرف الذي يريد عقد القرض معه أن يطلب رضا الباب العالي. . . " (١).

لاشك بأن الدولة العثمانية كانت في فترة احتضار وتعاني من الضعف والخطر الأوروبي يدق أبواب العاصمة إسطنبول و إلا لما كان الباب العالي يرسل رسالة إلى الباي يأمره بضبط الحدود مع فرنسا لكي لا يثير غضبها. مع دخول القوات الفرنسية إلى تونس في أيار ١٨٨١ يبدأ فصل جديد في تاريخ تونس الحديث السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ولأن موضوع الدراسة يبحث في الحياة السياسية بتونس في

(١) بيرم، محمد : القطر التونسي صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار، تحقيق علي الشنوفي وآخرون، بيت

الحكمة تونس ١٩٨٩، ص ٤٢٨-٤٢٩.

الفترة الواقعة بين عامي ١٨٨١-١٩٤٥ لابد من إلقاء الضوء على نظام الحكم في البلاد التونسية ومؤسساته مع دراسة لأهم الأحزاب والجمعيات السياسية وما هو موقفها من الاحتلال الفرنسي.

الفصل الأول

الحماية الفرنسية والنظام السياسي

في تونس

ويشتمل على:

- ١ - فرض الحماية الفرنسية على تونس
- ٢ - سياسة الحماية الفرنسية.
- ٣ - نظام الحكم ومؤسساته ويشمل على:
 - ١ - السلطة التشريعية:
 - ٢ - السلطة التنفيذية
 - ٣ - السلطة القضائية

تذرعت فرنسا بقيام مجموعة من القبائل البدوية باجتياز الحدود وحصول مناوشات بينها وبين قبائل جزائرية، فقامت قواتها البرية و البحرية بغزو تونس من أجل تأديب هذه القبائل الحدودية؛ خوفاً على أمن فرنسا، ولكن هذه القوات تابعت طريقها إلى العاصمة لتفرض على الباي نص معاهدة باردو الجاهزة. ولأسباب إقليمية و دولية، فرضت لأول مرة نظام الحماية الدولية الذي يعتبر شكلاً من أشكال الاستعمار، فأبقت على سلطة الباي الشكلية، وسيطرت على كل مؤسسات الدولة حيث سخرتها لخدمة المستوطنين القادمين من فرنسا. جعلت جميع السلطات بيد المقيم العام الممثل للحكومة الفرنسية.

بدأت مرحلة جديدة في تاريخ تونس السياسي أيقظت الرأي العام في تونس والطبقة المثقفة، ووجد الشعب التونسي أنه أمام واقع جديد لابد من مواجهته حتى لا يفقد أصالته وقوميته العربية الإسلامية. في وقت تخلت الدولة العثمانية عن الولاية التونسية وكأنها ليست ولاية تابعة لها.

١ - فرض الحماية الفرنسية على تونس:

لقد كان رئيس الوزارة الفرنسية (joL ferry) جول فيري^(١) متحمساً لفكرة احتلال تونس، ولكنه لم يجد تشجيعاً ولا مساعدة من مواطنيه؛ لأن الوضع الداخلي في فرنسا كان سيئاً فآثار هزيمة فرنسا أمام ألمانيا مازالت ماثلة في الأذهان. فكان السياسيون ورجال الصحافة يرون أن كل توسع خارج أوروبا يشنت الجهود وينسي الرأي العام المطالبة باسترجاع المناطق المفصولة عن الوطن. نتيجة هذا الوضع السيئ في فرنسا أراد (joL ferry) جول فيري وحكومته توجيه نظر الفرنسيين إلى الخارج وتحقيق نصر، لذلك اتخذ من بعض المناوشات البسيطة التي كانت تحدث أحياناً على الحدود

(١) جول فيري : سياسي فرنسي ولد في ٥ نيسان ١٨٤٦ في فرنسا، قدم انجازات تربوية في عهد الجمهورية الثالثة ،

ولكن كان من أشد أنصار الحركة التوسعية حيث تبني مقولة إن الأجناس أو الشعوب السامية تتمتع بواجب الرعاية و الوصاية للشعوب البدائية، وان الشعوب السامية تلعب دوراً كبيراً في تأهيل الشعوب النائية . فمقولة العدالة والمساواة و الحرية لم تنشأ ولا تصلح للشعوب المولى عليها . نتيجة لهذه الأفكار لعب دور في غزو تونس أثناء توليه الوزارة ١٨٨٢ توفي في ٧ آذار ١٨٩٣ في فرنسا .

بين التونسيين والجزائريين سبباً للتدخل المباشر في شؤون تونس، وبالرغم من تعهد الباي محمد الصادق بدفع الغرامات وضمان الحدود زحفت الجيوش الفرنسية من الجزائر بدون سابق إنذار على القطر التونسي،

بينما نزلت قوات أخرى من البحر في ميناء بنزرت ومنطقة طبرقة. وبعد معارك لم تدم طويلاً وصلت القوات الفرنسية يوم ١٢ أيار عام ١٨٨١ إلى بلدة منوبة وحوصر الباي في قصره ببارود، فعرض عليه قائد الجيش الفرنسي الجنرال (Briar) بريار والقنصل (Rostan) ^(١) روستان نص معاهدة باردو ولم يتركا له الوقت للنظر فيها، بل أجبره على إمضائها بعد إلقاء نص الحماية الفرنسية ^(٢).

ألقى القنصل (Rostan) روستان نص الاحتلال:

"إن حكومة الجمهورية الفرنسية لها رغبة في فصل المشاكل الموجودة الآن بصلح اختياري يحفظ سمعة جلالكم، ولذا فإنها عينتني لإنجاز هذه المأمورية، فالحكومة الفرنسية تريد قبل كل شيء إبقائكم على عرش ملك عائلتكم وليس لها من مصلحة في مس حدود الإيالة إلا أنها تريد الحصول على ضمانات تكفل لها استمرار حسن العلاقات بينها وبين حكومتكم" ^(٣).

بعد ذلك وفي الساعة الثامنة من مساء ١٢ أيار عام ١٨٨١ قضت فرنسا على استقلال تونس بعد توقيع معاهدة باردو. وخلاصة ما جاء في هذه المعاهدة:

(١) تيودور روستان: دبلوماسي فرنسي، ولد في أيكس بروفانس عام ١٨٣٣، درس الحقوق. كُلف بإدارة القنصلية في الإسكندرية ١٨٦٧، أصبح قنصلاً في دمشق ١٨٧٠، ثم عُيّن قنصلاً عاماً ومكلفاً بالشؤون الفرنسية، ثم وزير مفوض. أصبح سفيراً في مدريد ١٨٩١، توفي عام ١٩٠٦. انظر: الصولي، علي: الدين والدولة في مواقف محمد بيرم، ط ١، دار الطليعة، دمشق ٢٠٠٣، ص ٧٧.

- الجنرال بريار: ولد ١٨٢٦ في فرنسا. انتسب إلى الكلية العسكرية، وتخرج برتبة ضابط، شارك مع القوات الفرنسية في المكسيك، ثم انتقل إلى تونس ١٨٨١، دخل تونس وفرض معاهدة باردو، توفي في ١٣-٢-١٩١٢. انظر: العجيلي، التليلي: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي، منشورات كلية الآداب، منوبة ١٩٩٢، ص ١١٤.

(٢) د. ثامر الحبيب: هذه تونس، تحقيق حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط ١، ١٩٩٨، ص ٦٢.

(٣) المرزوقي محمد: صراع مع الحماية، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٧٣، ص ٧٤.

• القصد من المعاهدة التعاون بين فرنسا و الباى على أسس المعاهدات والاتفاقات السابقة.

- تحتل القوات الفرنسية مراكز معينة على السواحل.
- يزول الاحتلال عندما تتأكد فرنسا أن الأمور عادت إلى مجراها الطبيعي.
- تتعهد الحكومة الفرنسية بحماية الباى من أي خطر يهدده^(١).

من خلال النص الذي ألقاه القنصل (Rostan) روستان يتبين لنا حرص الحكومة الفرنسية على حماية كرسي عرش الباى وحماية عائلته مقابل حماية مصالح فرنسا في تونس، أما فيما يخص بنود معاهدة باردو فكانت عبارة عن تدخل سافر بشؤون الإيالة التونسية وكشفت عن أطماع فرنسا في تونس، فالبند الأول يؤكد وجود اتفاقيات سابقة تم تجديدها، ثم أن البند الثالث الذي تعهدت فيه فرنسا بحماية الباى مما يعني أن لفرنسا أطماعاً تريد تحقيقها بطريقة شرعية بواسطة لباي. أما البندان الثامن والتاسع فيؤكد على تدخل فرنسا بشؤون تونس الداخلية، ومساسها بسيادتها ووحدتها ترابها وهذا يتعارض مع النص الذي ألقاه روستان عندما قال: "إن فرنسا ليس لها مصلحة في مس حدود الإيالة".

أدى توقيع هذه الاتفاقية إلى وقوع تونس تحت الحماية الفرنسية، فكانت أول تجربة لنظام الحماية في تاريخ الاستعمار الفرنسي والهدف من تطبيق هذا النظام:

١- إسكات المعارضة الدولية بالقول أن فرنسا لم تقض على كيان الدولة المحمية.

٢- إقناع المعارضة الداخلية في فرنسا بأن الحكومة لن تتورط في أعباء مالية؛ لأن من ميزات هذا النظام أن الدولة المحمية تتحمل نفقات الاحتلال وجميع ما يترتب على الإصلاحات المراد إدخالها^(٢).

(١) زيادة، نقولاً: تونس في عهد الحماية ١٨٨١ - ١٩٤٣، معهد الدراسات العربية ١٩٦٣، ص ١٣٤-١٣٥،

وللمزيد من المعلومات أنظر الملحق.

(٢) الصباغ: مرجع سابق، ص ٢٨٢.

ولكن هذا النظام ما هو إلا شكل من أشكال النظام الاستعماري، فالمعلوم أن الدولة المحمية تحتفظ رغم قيام الدول الحامية بمركزها في الأسرة الدولية فهي شخص له كيانه الخاص وقائم بذاته، وليست جزءاً من الدولة الحامية فيحتفظ رعايا الدولة بجنسيتهم ويلتزمون بالخضوع إلى قوانين البلد. ^(١)

إن نظام الحماية هو أشبه بنظام الدولة التابعة وبالتالي الحماية والانتداب شكل من أشكال الاستعمار الفرنسي ^(٢).

الأسباب التي أدت إلى غزو فرنسا لتونس.

إن أسباب دخول فرنسا إلى تونس كانت أسباباً سياسية واقتصادية بالدرجة الأولى وهذا ما بينه (Jol Ferry) جول فيري عندما استدعاه مجلس النواب الفرنسي حيث كان معارضاً لدخول فرنسا في تونس فقد قال: "إن تركنا السياسة الاستعمارية جانباً، وإن أضعنا حقوقنا، فإن دولاً أخرى سترثنا حتماً وتتمتع بها دوننا وربما تحتل مكانة ممتازة بين الأمم، بينما نبقى نحن ننتظر ونتحسر. . . إن سياسة الاحتراز

(١) الحماية : علاقة قانونية تنشأ بين دولتين نتيجة لوضع احد الدول نفسها أو رغماً عنها تحت وصاية الدولة الأخرى وتسمى في الحالة الأولى حماية اتفاقية وفي الثانية حماية استعمارية ، أما الحالة الأولى تنشأ نتيجة إبرام اتفاق بين الدولة الحامية والدولة المحمية وتلتزم الدولة الحامية بإعلان هذا الاتفاق إلى الدول الأجنبية الأخرى وتتضمن إشرافها على الشؤون الخارجية ولا تفقد الدولة المحمية شخصيتها بل تتمتع بكل المزايا ، أما الحالة الثانية فقد عرفتها تونس حيث فرضت حمايتها قهراً على الشعب التونسي ، ويكون هذا النوع من الحماية تمهيداً لضم الإقليم أو استعارته ، ولا تعتبر هذه الاتفاقية قانونية لأنها تمت عن طريق الإكراه والتهديد العسكري . انظر عطية أحمد : موسوعة السياسة ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٨٠ .

(٢) فرضت فرنسا هذا النظام لأن الرأي العام الفرنسي لم يكن متحمساً لإيجاد مستعمرات ، وهو ما دفع الحكومة للاستيلاء على تونس دون إحداث أي رد فعل من المعارضة في الداخل ، أو الرأي العالمي مما جعلها تعتمد تسير وتنظيم إدارة اقتصادية وسياسية بدون اللجوء إلى طاب الإعانة المادية من حكومة باريس . انظر مناصريه ، يوسف الحزب الحر الدستوري التونسي ، دار الغرب ، بيروت (د.ت) ، ص ١٦ .

أما الاستعمار : كلمة فرنسية الأصل وتعني قيام دولة بفرض حكمها وسيطرتها الاقتصادية والسياسية والثقافية على دولة دون رضا أهلها وقد يتخذ إشكالا متعددة مثل الهجرة و التغلغل الاقتصادي انظر عطية : مرجع سابق ، ص ٥٨ .

والتحفظ والخشوع لا تؤدي إلى سوى التقهقر وعالم النسيان وإن الدول اليوم تستمد قوتها من مستعمراتها أكرر وأقول تستمد قوتها من مستعمراتها إن أرادت فرنسا لنفسها كلمة مسموعة، وتأثيراً حياً في مصير الدول الأوروبية الأخرى فما عليها إلا أن تنشر لغتها وعوائدها في أي قطر حلت به وأن ترفع رايتها مرفرفة على روابيه، وأن تحمل إليه أسلحتها، وتلقنه عبقريتها. . . .^(١)

في حين أكدت الإدارة الفرنسية أن الهدف من دخول فرنسا إلى تونس لنشر الرسالة الحضارية من خلال طرحها للنظرية الفرنسية التي ترى «أن الحضارة الفرنسية كنز وإن فتح هذا الكنز لأهل المستعمرات هو أنبل ما يخطر على قلب بشر وأن على الأهالي أن يتلاءموا مع العادات الفرنسية وأن يتعلموا أن يفكروا كفرنسيين. . . . وهكذا فإن هيكل الحياة المحلية بأسره يجب أن يعاد صهره على هذا الأساس فهي تتضمن الهدف وإعادة البناء وتقوم هذه النظرية بطبيعة الحال على افتراض أن السكان الأصليين يمكنهم أن يتخلوا عن مدنياتهم القائمة وطرقهم الخاصة في التفكير كما تتجرد الأفعى من جلدها وأن يستوعبوا العادات الدخيلة».^(٢)

من خلال قراءتنا لخطاب (jOL ferry) جول فيري نستطيع أن نعد أن أسباب هذا الاستعمار ما كانت إلا لسبب سياسي واقتصادي، فإذا نظرنا إلى الداخل الفرنسي، فرنسا كانت تعيش ظروفاً صعبة من الركود الاقتصادي، وهي بحاجة ماسة إلى المواد الأولية وسوق لتصريف منتجاتها، فالتجتهت إلى الولايات العثمانية التي تعاني الضعف والإهمال ولاسيما الولايات البعيدة عن العاصمة كالشمال الإفريقي وكل ذلك نتيجة ضعف الدولة العثمانية وخضوعها لمصالح أوروبا ولاسيما إنكلترا.

أما فيما يخص النظرية الفرنسية التي جاءت بها فرنسا لنشر الحضارة والمدنية الأوروبية ما هي في الحقيقة إلا وهم و زيف. فالحضارة لا تقوم على اغتصاب أرض الغير دون موافقته ولا تقوم على القتل والسلب ونهب ثروات البلاد وفرض لغتها كلغة رسمية، ومن جهة أخرى عندما تريد دولة ما أن تنشر الحضارة بشكل إنساني فعليها

(١) مزالي، محمد: دراسات، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٨٤، ص ٣٠.

(٢) حسنين محمد: الاستعمار الفرنسي من القرن السادس عشر حتى ديغول، ط ٢ القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٩.

أن تنتشرها في دولة وبين شعب يفتقر إلى مقومات الحضارة وليس في بلد يشهد له تاريخه بتفوق حضارته حتى على الحضارة الأوروبية، فعلى أرض تونس قامت الحضارة الفينيقية والرومانية والإسلامية، وامتزجت مع بعضها البعض وفي تونس كانت مدرسة باردو الحربية والمدرسة الصادقية التي علمت العلوم العصرية، يضاف إلى هذا جامع الزيتونة الذي يمثل رمزاً ومركز إشعاع فكري وحضاري.

٢- سياسة الاستعمار الفرنسي في تونس:

١- من الناحية الاقتصادية:

ما إن فرغت فرنسا من توقيع معاهدة الحماية ١٨٨١ ومعاهدة المرسى ١٨٨٣ حتى قامت بالاستيلاء على أراضي الحكومة التونسية القديمة ثم أعطتها للمستعمرين الفرنسيين، وفي عام ١٨٩٦ استولت على الأراضي البور وجعلت لنفسها حق تحديد ملكيتها ثم استولت على الغابات. أما أراضي القبائل فقد ألحقت بأملك الدولة لعدم وجود ملكية لها فأنشأت دائرة المستعمرات عام ١٨٩٨ من أجل بيع الأراضي للقادمين من فرنسا بأسعار زهيدة وأقساط لمدة ١٠ سنوات^(١).

ولم تكتفِ بإنشاء دائرة المستعمرات فحسب، بل قامت بإنشاء المدرسة الاستعمارية للزراعة في تونس نتيجة تقدم التقنيات واختلاف الطقس والشروط البيئية في تونس. كل ذلك من أجل تذليل الصعوبات التي تواجه المستوطنين في تونس. أنشئت المدرسة لتعليم الزراعة للباحثين الزراعيين وتشكيل زراعيين متقنين يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب الآخرين ولفتح المجال أمام الكيميائيين من أجل بناء المصانع الزراعية. لقد صرح (Gono) غونو في المؤتمر الاستشاري: ^(٢) « نستطيع التأكيد أن المدرسة التونسية هي أفضل تجهيز لحياة الانتداب »

ولخدمة المعمرين الفرنسيين كان لابد من إقامة تجهيزات أساسية ولاسيما شبكة من المواصلات، وبفضل الاعتمادات والقروض تم مد الخطوط الحديدية إضافة إلى

(١) رياض، زاهر: شمال إفريقيا في العصر الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٧، ص ٢٥٨.

(٢) L. Couhe : **pourquoi devenir propriétaire en tunisie**, paris ١٩٠٠, p

الموانئ المجهزة بتجهيزات حديثة تفي بحاجات التجار، ثم شيدت المدن الجديدة بجانب أبواب المدن القديمة لتستقبل الوافدين من أوروبا. أما البوادي فقد كانت مزدهرة بالمستوطنات الفرنسية. لقد حقق المستوطنون نجاحاً تقنياً جمعوا الثروات الطائلة ولم يكن هذا النجاح للاستعمار الذي كان يحلم به دعاة الحماية، بل كان نجاح الشركات الرأسمالية^(١) ونجاح المستوطنين الكبار^(٢).

أما الصناعة فعلى الرغم من التطور الكبير الذي شمل صناعات استخراج المعادن فإن البلاد التونسية لم تتحول إلى منطقة صناعية بالمفهوم الأوروبي؛ بسبب سعي الفرنسيين إلى الكسب السريع من خلال استثمار الأراضي وتحويل المواد الأولية الخام إلى فرنسا لتصنيعها، ثم تصريفها في الأسواق التونسية بأسعار مرتفعة وهكذا تم الإبقاء على التبعية الصناعية لتونس؛ إذ لا تستطيع الصناعات التونسية أن تتنافس الصناعات الفرنسية التي تمتلك المقومات الصناعية الضخمة، مما اضطر الشعب التونسي إلى التسوق من البضائع الفرنسية بسبب ازدياد السكان، والحاجة إلى هذه المواد^(٣).

وفي ميدان التجارة فقد سيطرت فرنسا على التجارة الخارجية لتونس لذلك ارتفع إجمالي حجم التجارة من استيراد وتصدير من ٥٤ مليون فرنك لمتوسط الأعوام ١٨٨١-١٨٨٩ إلى ٣٢٢ مليون فرنك عام ١٩١٣ وارتفع إجمالي التجارة الفرنسية-التونسية من ٣٩ مليون فرنك كمتوسط الأعوام ١٨٨٧ و ١٨٩٦ إلى ١٥٠ مليون فرنك عام ١٩١٣. لقد تبدل الميزان التجاري في تونس لصالح فرنسا في مطلع القرن

(١) الرأسمالية : نظام اجتماعي من شأنه أن يسمح لكل فرد من أفراد المجتمع أن يسعى وراء مصلحته الخاصة محاولاً الحصول على أكبر دخل ممكن ثم الحصول على أقصى إشباع لحاجاته بمعنى آخر أن الفرد في ظل هذا النظام حر في اختيار ما يستثمره. انظر عطية : مرجع سابق ، ص ٥٥٩.

(٢) الشريف، محمد الهادي: تاريخ تونس، ط ١، دار سراس للنشر. تونس ١٩٩٣م، ص ١٠٢.

(٣) الشاطر، خليفة وآخرون: تونس عبر التاريخ، ج ٣، مركز الدراسات والبحوث تونس ٢٠٠٥، ص ٥٥.

العشرين بمعدل مرتفع جداً لأعوام ١٩٠٨-١٩١٣ ولاشك أن هذه الأرقام تؤكد اندماج تونس في السوق الرأسمالية العالمية^(١).

إن سياسة الاستعمار في تونس اختلفت عن السياسة التي اتبعتها في الجزائر، فبعد احتلال تونس شجعت الاستعمار الحر؛ من أجل أن تثبت للمعارضة الفرنسية قلة تكاليف الاحتلال، ومن جهة أخرى أرادت أن تكسب الرأسمالية الفرنسية عن طريق إيجاد مجال جديد للاستيطان الحر الذي يمكن الفرد أو الشركات من تحقيق إرباح طائلة ولكن تحت رعاية وأمن الدولة.^(٢)

وفي نهاية الحديث بقي أن نشير إلى أن أوربة عندما عقدت الامتيازات التجارية كانت لتسهيل التجارة مع الدولة العثمانية. أما بعد الاحتلال فقد تحولت إلى وظيفة أخرى وهي جذب العمال الفقراء والفلاحين والشركات وأصحاب رؤوس الأموال واستبدالهم بأبناء البلد الأصلي مع قيامها بتأمين كافة الخدمات لهؤلاء القادمين من بناء البيوت وتوفير طرق المواصلات وبذل كل الجهود لتمليك القادمين المزارع والقرى الكبيرة.^(٣)

من خلال هذه النظرة السريعة عن السياسة الاقتصادية الفرنسية في تونس نستطيع أن نصل إلى مجموعة من النتائج:

- ١- سيطرة فرنسا على كل الاقتصاد التونسي من خلال شركاتها أو المستوطنين وبالتالي تحقيق أرباح طائلة.
- ٢- تفوق مصالح فرنسا على باقي مصالح الدول الأوروبية ولاسيما إيطاليا وهذا ما تريده فرنسا حتى تكون تونس ملكاً لها وحدها.

(١) توبي، جاك: الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية ١٨٤٠-١٩١٤، ترجمة: فارس

غضوب، ط ١، مكتبة الفارابي بيروت، ص ٩٤.

(٢) التميمي، عبد المالك : الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي دراسة مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت

١٩٨٣، ص ٤٤.

(٣) Henrie Benjamain, paul : la politique fransaise, en Tunisie, paris, P ٤٠٥.

٣- الأمر الأخطر من ذلك هو أن هذه المواد الأولية التونسية التي كانت تصدر إلى فرنسا ما تلبث أن تعود إلى تونس بعد تصنيعها ولكن بأسعار مرتفعة، وإجبار التونسيين على استهلاكها، وهذا الأمر لم يقتصر على تونس بل ظلت الدول العربية تعاني منه حتى بعد استقلالها ولفترة قريبة جداً.

٤- وقوع تونس تحت السيطرة الرأسمالية الفرنسية وتبعية الاقتصاد التونسي بالكامل وربطه بالاقتصاد الفرنسي من خلال الشركات و البنوك التي تم تأسيسها في تونس.^(١)

٢- من الناحية الثقافية:

تم الاستعاضة عن اللغة العربية باللغة الفرنسية في الإدارة، فكان المواطن لا يستطيع أن يتم معاملته إلا بالفرنسية باستثناء المحاكم الشرعية وقلما وجد في الدوائر من يتكلم العربية ليرشد المواطنين إلى ما يجب العمل به، بل تعدى الأمر إلى أكثر من ذلك عندما جاء وقت لم يكن يسمح فيه بدخول الكتب العربية إلى البلاد، بل شجعت الكتب والمجلات الفرنسية مع التعلم بالفرنسية للدخول إلى سلك الوظائف عدا فتح المدارس التي تعلم الفرنسية^(٢).

إن خير من عبر عن هذه السياسة الفرنسية الشيخ عبد العزيز الثعالبي^(٣):
"إن هدف الاستعمار الفرنسي من هذه السياسة امتصاص الذاتية التونسية وإخراجها من صيغتها القومية والدينية وجعلها أمام الأمر الواقع فرنسية في كل شيء

(١) لجأ الاستعمار إلى السيطرة الاقتصادية عن طريق البنوك التي تقدم القروض والضمانات المالية وتوسيع الاستثمار ومن جهة أخرى كانت تقدم القروض للتونسيين ولكن بفوائد مرتفعة مما أثقل الشعب بالديون. لقد كان السوق الفرنسي- حتى عام ١٩٢٠ يمتص ٧٠٪ من التجارة التونسية عن طريق هيمنة المصارف الفرنسية على الاقتصاد التونسي. انظر التميمي: مرجع سابق، ص ٧٩.

(٢) زيادة، نقولا: قصة الاستعمار في العالم العربي، دار الكاتب العربي، بيروت، ص ١٥٤

(٣) الجندي، أنور: عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية، ط ١ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٤، ص ٤٧.

لغةً وتفكيراً ودينياً وتابعيةً والأنوف راغمةً. . . . وإن سياسة التعليم الفرنسية لا ترمي إلا إلى إيجاد أيدي عاملة لا إيجاد عقول مديرة أو أيدي تنتج الثروة، أما العقول التي تفهم و تدبر الثروة لأصحابها الحقيقيين فهذه يجب أن يضرب حولها نطاق من الجهل".

ولا بد من الإشارة إلى أن حكومة الحماية حاولت توريث التونسيين لغة أدبائها وعلمائها أمثال فولتير ولاسيما في المؤسسات التعليمية والثقافية مع التشديد في تعليمها واقتباسها، ولا يهم في إدارات الدولة الأخرى. ^(١) لقد حاولت السلطات الفرنسية من خلال فرض لغة أدباء عصر النهضة أن تبين أن قدومها إلى تونس ليس له هدف سوى نشر الحضارة والمدنية الفرنسية، وبالتالي رسالتها في هذه البلاد رسالة حضارية.

٣ - من الناحية العسكرية:

ألغت فرنسا الجيش التونسي وأحلت مكانه جيشاً فرنسياً، ولم تترك للباي سوى ٦٠٠٠ جندياً هم قوام الجيش التونسي حيث يطلق عليهم حرس الشرف، وكان يشرف على هذا الجيش كولونيل فرنسي ويضم بما فيه من ضباط وجنود من حثالة الناس وكثيراً ما كانت فرنسا تشجع على الجندية بشتى الوسائل مثل إفقار الناس ، وسد أبواب الرزق حتى تضطروهم إلى الجندية الطوعية، ثم إذا ما انتهت مدة الخدمة وكتب لهذا الجندي الشقي العودة إلى بلاده يكون قد أفنى زهرة شبابه في خدمة فرنسا^(٢)، وعلى الرغم من قلة عدد الجيش فقد كان يعاني من عدة مشكلات أهمها: عدم التجانس بين عناصره، والاهتمام بالعناصر الغير نظامية على حساب العناصر النظامية كون تكاليفها المادية أقل. هذا الإهمال انعكس على العمل إذ أن العناصر النظامية مسؤولة عن السفن الحربية، فأهمل الجنود السفن لتصبح حطباء، وأصبحت الموانئ والسواحل بوابة لتهريب كل ماهو ممنوع إلى داخل البلاد وخارجها. لكن المشكلة الأهم تبقى

(١) AZOUZI, Ammar : **Le fransais aumaghreb**, flsh de Kairouan ,p٣٩.

(٢) حقي، إحسان: تونس العربية، دار الثقافة بيروت(د.ت)، ص٤٦٨.

قضية الرواتب التي كانت بيد اليهود، فكثيراً ماكانت الرواتب تتأخر أو تتعرض للاختلاس بالتعاون مع بعض المسؤولين و الوزراء.^(١)

٤ - من الناحية الاجتماعية:

بالنسبة للمجتمع التونسي فقد كان يتألف من البربر السكان الأصليين والعرب المسلمين ثم اليهود وبقايا الأتراك ومع ظهور الأطماع الأوربية بدأ التدفق الأوربي إلى تونس والجدول الآتي يوضح عدد الأوربيين:^(٢)

العالم	سكان أوربيين	سكان فرنسيين	إيطاليين	أشخاص مولدين في تونس
١٨٩١	-	٩٩٧٣	-	١٨٣٨
١٨٩٦	-	١٦٢٠٧	-	٣٣٣٩
١٩٠١	-	٢٤٢٠١	-	٥٣١٤
١٩٠٦	١٢٠٨٩٥	٣٢٦١٠	٨١١٥٦	٩٢٣٩
١٩١١	١٤٨٤٧٦	٤٦٠٤٤	٨٨٨٢١	-
١٩٢١	١٥٦١١٥	٥٤٤٧٦	٨٤٧٩٩	-
١٩٢٦	١٧٣٢٨١	٧١٠٠٠	٨٩٢١٦	-
١٩٣١	١٩٥٣٩٣	٩١٤٢٧	٩١١٧٨	-
١٩٣٦	٢١٣٢٠٥	١٠٨٠٦٨	٩٤٢٨٩	-

نستنتج من الجدول السابق ما يلي:

١- كثرة الأوربيين وتدفعهم بإعداد كبيرة منذ بداية الاحتلال وهذا بالطبع يعود إلى تشجيع سلطات الحماية على القدوم إلى تونس مع تقديم كل الخدمات الممكنة.

١- بن بلغيث : مرجع سابق ، ص ٢٢٧.

(٢) Mahmoud, SEKhLani: **La population de la tunisie**, tunise ١٩٧٤, p ٢٤.

٢- تزايد عدد الفرنسيين على حساب باقي الجاليات وهذا يتماشى مع سياسة فرنسا.

٣- تناقص أعداد الإيطاليين بعد عام ١٩١١ بسبب الهجرة إلى ليبيا وعودتهم في مطلع الثلاثينيات وربما يعود السبب في ذلك إلى مقاومة السنوسيين للاحتلال وبداية الحرب العالمية الثانية.

٥- تأثير الأعداد الكبيرة للجاليات الأوربية في المجتمع التونسي في جميع المجالات.

قضية التجنيس:

كان الفرنسيون قد أصدروا مرسوماً سُمي مرسوم **krimio** (كريميو)^(١) الذي يقضي بتجنيس اليهود الجزائريين دفعةً واحدة، وعملوا على تطبيق هذا المشروع في تونس فدفعوا باليهود التونسيين لشن حملة قاسية على السلطات القضائية التونسية كخطوة تمهيدية للانفصال عن جنسيتهم التونسية، وأخذ الجنسية الفرنسية في الوقت الذي وقفت فيه الصحافة الفرنسية إلى جانب اليهود، وقد كان الهدف من هذه الحملة الفرنسية تقوية وجود الجالية الفرنسية كانت

قليلة العدد في ذلك الوقت مقارنةً مع الجالية الإيطالية^(٢). ولعل النص الذي نشرته صحيفة إفريقيا الفرنسية في عددها حزيران ١٩٢٧ يبين هدف سياسة الاحتلال^(٣):

(١) إسحاق كريميو ١٧٩٦ - ١٨٨٠ ويسمى أحياناً أدولف كريميو ولد في فرنسا لعائلة يهودية ، تلقى تعليمه الابتدائي فكان من الأوائل ، ثم درس القانون ، وهو من أشد المعجبين بنابليون ، تزوج من يهودية في ١٨٢٤ وعمل بالمحاماة بعد ذلك ، ثم انتقل إلى باريس ليقف في صف المعارضة ضد حكم لويس فيليب ، دخل عام ١٨٤٢ البرلمان ، واشترك في ثورة ١٨٤٨ ، ثم أصبح وزيراً للعدل ١٨٧٠ وأصدر قراراً بتجنيس ٣٥٠٠٠ يهودي بالجنسية الفرنسية ، وفي عام ١٨٧٥ عين عضواً في مجلس الشيوخ مدى الحياة تنقل بين عدة دول عربية وأوربية ، توفي في باريس ١٨٨٠ ودفن في مقبرة مونيرناس ، أطلق اسم كريميو على أحد الشوارع في القدس ويلقب عند اليهود (بطل اليهود الفرنسي) انظر المسيري ، عبد الوهاب : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، مج ٢ ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٥١٨ .

(٢) الطاهر ، عبد الله : رؤية شعبية قومية ١٨٣٠ - ١٩٥٦ ، ط ١ ، تونس ١٩٧٦ ، ص ٤٤ .

"يعد تجنيس غير الفرنسيين ضرورة مطلقة، بغرض تحقيق نوع من المساواة إزاء الايطالي أو قصد إسعاف مجموعتنا الوطنية بأن تقوم بدورها التمديني، بل لأجل أن تقاوم بنجاح نمو حركة الدستوريين أو أي تيار آخر يستهدف القذف بنا إلى البحر - فأمام المهام التي يجب القيام بها والمخاطر المطلوب تجنبها، فإن الندم عن عدم البقاء كإخوان ينتمون إلى المجموعة نفسها. . . لا يغدو أن يكون شعوراً زائداً وتافهاً إن من المحبذ واللائق أن نترك شيئاً لشركاء مختارين بدقة، من أن نخاطر بفقدان الكل وبالعكس يجب أن نجنب عنصرنا، وبغاية من أن يعمر بهذه الأمواج من المتجنسين، يجب أن نستقبل منهم أولئك الذين نحن في مستوى تأطيرهم وتوجيههم، وأن نقبل حديثي التنصر تدريجياً وتحت طائلة أنهم سيستلهمون أفكارنا. . . . ولكن إلى الأبد يجب أن نستعيد المسلمة القائلة بأن التجنيس حقاً وإنما فضل و جميل".^(١) إن سياسة التجنيس ليست إلا محاولة من محاولات السلطات الفرنسية هدفت إلى القضاء على الكيان الإسلامي من خلال زيادة الفرنسيين، ولكن الشعب التونسي قاوم هذه الخطوة بكافة فئاته وفشلت محاولة الفرنسيين من خلال موقف رجال الزيتونة و المثقفين التونسيين الذين قادوا المظاهرات والاحتجاجات و دعوا إلى مقاطعة اليهود اقتصادياً، مما جعل السلطات الفرنسية تتراجع في تطبيق هذا القانون، فكانت لهذه المقاطعة دوراً كبيراً في تنشيط التجارة التونسية؛ كون التجارة محتكرة من قبل اليهود.^(٢)

(١) أحمد، مالكي: الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب، ط ١، مركز دراسات الوحدة بيروت ١٩٩٤،

ص ٢٨٤.

(٢) عبد الله، الطاهر: الحركة الوطنية التونسية، ط ٢، دار المعارف للطباعة، تونس (د.ت)، ص ٤٢.

المؤتمر الأفخارستي ١٩٣١: (١)

بعد الاحتجاجات التي أوقفت العمل بقانون التجنيس مؤقتاً قامت حكومة الاستعمار بمحاولة تشويه الإسلام و إثارة الشبهات حول مقومات الفكر الإسلامي؛ لجعل هذا الفكر منصهراً ضمن الفكر الغربي الأوربي المتمدن و الحضاري، وحتى يتم تنفيذ ذلك لابد من الاعتماد على جهاز فكري ينتشر بسرعة داخل الوسط الإسلامي. هذا الوسط هو البعثات التبشيرية التي نالت كل الدعم من الحكومة الفرنسية. (٢) فقد أعلن وزير الخارجية أمام مجلس النواب. (٣) "إن فرنسا إذا كانت لا دينية في داخل حدودها فإنها دينية في الخارج" هذا الاتجاه شجع المبعوثون المسيحيون في شمال إفريقيا على استغلال ظل السلطة لتبشير المسلمين بالمسيحية غير مبالين بموقف الشعب التونسي ومشاعره الدينية فقد أعلن المبشرون (٤): « أن فرنسا تريد اختصار الوقت، وانتهاز الفرص في سياستها الأفريقية حتى تتمكن في بضع عشر سنوات من عمل ما لم تستطعه الدول الأخرى في مئات السنين. إن أقطار شمال أفريقيا كانت قبل الإسلام نصرانية خاضعة للكنيسة الكاثوليكية، ولما جاء الإسلام عربيها و جعلها أمةً مسلمةً متممةً للوحدة الإسلامية في أقل من قرن، فكيف تعجز فرنسا عن تحويل هذه البلاد إلى النصرانية في وقت أقل مما اقتضاه الإسلام في التحويل. . . » بل ذهب

(١) هو سلسلة من المؤتمرات الكاثوليكية المسيحية عقد أول مرة في مدينة ليل الفرنسية عام ١٨٨١ على يد الفرنسي لوي برتران، وكلمة أفخارستيا تعني العرفان الجميل والامتنان وبالتالي أبداء الشكر. عقد المؤتمر في قرطاج بمنااسبة مرور خمسين عام على احتلال تونس مئة عام على احتلال الجزائر ضم ممثلين عن البابا والكنائس الكاثوليكية في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإفريقيا حيث بلغ عدد المشاركين نحو ٥٠٠ قسيس وأعلن أسقف قرطاج إن المؤتمر حملة صليبية تاسعة على تونس استمرارا للعهد الذي قطعه لويس التاسع. انظر عزيز، عبد الكريم: نضال شعب أبي، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠٠١، ص ٣٠٠.

(٢) الجندي، أنور: العالم الإسلامي و الاستعمار السياسي و الثقافي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٣، ص ٤١٥.

(٣) الفاسي، علال: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية، تطوان (المغرب) د.ت، ص ٦٠ -

(٤) الجندي، أنور: عبد العزيز الثعالبي رائد الحرية والنهضة الإسلامية، دار الغرب، بيروت ١٩٨٤، ص ٤١.

الأمر إلى أبعد من ذلك حيث اعتبر البعض أن هذا المؤتمر حملة صليبية تحمل الأمن والسلام مذكرة بحملة القديس سان لوي الذي قضى نحبه على أبواب تونس، لكن روح التحدي عند الشعب التونسي دفعت السلطات الفرنسية إلغاء الاحتفال وإنهاء المؤتمر. لقد كانت الغاية من المؤتمر نشر الديانة المسيحية مكان الإسلام معتمدين على دعم سلطات الحماية وأعوانهم من اليهود يضاف إلى ذلك سعيهم إلى التذكير بأن تونس كانت مسيحية قبل مجيء الإسلام عندما كانت تخضع لروما، وما المسلمون إلا جماعة جاؤوا وفرضوا الإسلام بقوة السيف، لذلك يجب أن يعود هؤلاء إلى ديانتهم الأصلية.

بعد الحديث عن دخول الاستعمار الفرنسي إلى تونس وإعطاء لمحة موجزة عن السياسة التي أتبعها في المجالات الاقتصادية والثقافية والعسكرية والاجتماعية ننتقل للحديث عن الناحية السياسية التي هي موضوع الدراسة التي سوف نتناولها بالتفصيل. استطاع حسين بن علي تأسيس أسرة حكمت البلاد بين عامي ١٧٠٥ و ١٩٥٧ هذه الأسرة عرفت بالأسرة الحسينية، فعندما دخلت فرنسا إلى تونس كانت هذه البلاد تحكم من قبل حكومة شرعية يقف على رأسها الباي وإلى جانبه مجلس الوزراء يقوم بالسلطة التنفيذية ومجلس تشريعي، كانت هذه المؤسسة الحاكمة تخضع للدستور الصادر عام ١٨٦١ الذي يقوم على الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويعطي المجلس التشريعي صلاحيات واسعة مثل خلع الباي إذا خالف الدستور. بالطبع ليس القصد أن تونس عرفت نظام ديمقراطي بالمعنى الدقيق ولكن الوضع السياسي يبقى أفضل من سيطرة مستعمر يقوم على اغتصاب كل شيء بالقوة. هذا باختصار الوضع السياسي في الايالة التونسية قبل مجيء الفرنسيين، ولكن كيف هي الحياة السياسية في ظل الحماية الفرنسية؟ ولتسهيل الدراسة وجدت من الأفضل تقسيم هذا البحث إلى ثلاث سلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

٣- نظام الحكم ومؤسساته:

١- السلطة التشريعية:

إن تونس بلاد إسلامية لذلك تخضع للقانون الإسلامي، فالسلطة التشريعية ليست تعسفية بسبب وجود الشرع الإسلامي. هذا القانون يسمح للشعب بوضع القوانين وهو يفرض على الباي استشارة ممثليه في ذلك والاهتداء بأرائهم. وبناء على ذلك فإن باي تونس لا يتصرف تصرفاً مطلقاً إلا بعد أن يجري استشارته القانونية؛ لأنه مقيد في الأمور العائدة إلى السلطة التنفيذية التي هو من ضمنها، وبالتالي لا يطلق على أحكامه اسم قوانين بل اسم تراتيب.^(١)

(١) هذا المصطلح يدل على أن الأحكام الصادرة عن السلطة التنفيذية عبارة عن أحكام وضعية خالصة، وبالتالي خاضعة لوجهات نظر متعددة، هذه التراتيب ظهرت نتيجة لتراكمات سياسية واقتصادية. إن إطلاق مصطلح

منح دستور ١٨٦١ الباي السلطة التشريعية مع حق التصديق على القوانين، على أن يكون مسؤولاً أمام المجلس الأكبر الهيئة التشريعية، ولا يجوز للوزراء اتخاذ القرارات إلا بعد الحصول على موافقة المجلس الأكبر فإنهم مسؤولون أمامه. وهكذا فقد أقيم نظام برلماني يمارس الباي فيه السلطة التشريعية بالاشتراك مع المجلس الأكبر الذي يتألف من ٦٠ عضواً منهم عشرون يختارهم الباي من موظفي الولاية، وأربعون من بين أعيان البلد ويتم تجديد خمسهم كل عام كما يتم تعويض الأعضاء الذين تنتهي خدمتهم. ولا يمكن عزل أعضاء المجلس إلا في حالة اقتراف هؤلاء الأعضاء لجرائم تثبت قانونياً، وبعد هذا المجلس العين الساهرة على تنفيذ الدستور والحكم الأعلى في إصدار القوانين وهو الذي يصادق على الميزانية.^(١)

وبمجرد أن احتلت فرنسا تونس، واستولت على مقاليد الحكم من أيدي أصحابها ألغت الدستور، وحلت المجلس التشريعي، وجعلت السلطة التشريعية بيد الباي وحده بعد أن كانت من حق المجلس، ثم سلبت سلطة هذا الباي فجعلت مراسيمه الملكية لا تكون نافذة إلا بعد موافقة المقيم العام الفرنسي. بعد القيام بإلغاء الدستور وحل المجلس التشريعي أصبح بيد الفرنسيين الوسائل التامة لإصدار سلسلة من القوانين والتشريعات التي تمكنها من السيطرة على البلاد واستنزاف خيراتها والسيطرة على مقاليد الحكم فيها^(٢). لقد كان إلغاء الدستور وحل المجلس الذي كان يمثل الشعب أول اعتداء حقيقي على كيان تونس.

أ- مجلس الشورى:

كان أول مؤسسة نيابية تمثل الجالية الأجنبية هي الغرفة التجارية الفرنسية التي أحدثت في ١٨٨٥ هذه المؤسسة سمحت للمقيم العام الفرنسي بالاجتماع مع أعيان الفرنسيين، والهدف من ذلك تمتين العلاقات والصلات بين المقيم والجالية الفرنسية،

ترتيب أكثر دقة من مصطلح قوانين، فالأول يشير إلى مفهوم الشورى المستمد من الشرع الإسلامي، إما الثاني يشير إلى القوانين الوضعية المستمدة من الباي وحسب مصالحه (الباحث).

(١) الثعالبي، عبد العزيز: تونس الشهيدة، ترجمة حمادي الساحلي، ط١، دار الغرب بيروت ١٩٨٤، ص ١٨-٢٠.

(٢) ثامر: مرجع سابق، ص ٦٩.

وبالتالي العودة بالنفع على الجميع. فكلما كان هناك فائدة دعا المقيم العام أعضاء الغرفة التجارية وبعض رؤساء البلديات وعدد من ممثلي التنظيمات للاطلاع على آرائهم. بقي الأمر كذلك حتى عام ١٨٩٦ حين تحولت هذه الغرفة إلى مجلس سمي مجلس الشورى حيث أصبح يضم إضافة إلى ممثلي التجار والمزارعين والبلديات ممثلين منتخبين عن الفرنسيين من غير المزارعين والتجار، ولم يكن هناك أي تمثيل للسكان التونسيين بل كان كله من الممثلين الفرنسيين.^(١)

إن اقتصار أعضاء هذا المجلس في البداية ولمدة خمسة عشرة عاماً على فرنسيين من مزارعين وتجار ما هو إلا لخدمة مصالح الإدارة الفرنسية وذلك للسيطرة على الأراضي الواسعة وإعطائها للمستوطنين الفرنسيين، ثم إن وجود التجار كان يهدف إلى الاستيلاء على منتجات تونس وتصديرها إلى فرنسا وبالتالي هذا المجلس يكشف عن نوايا الاستعمار الفرنسي. دامت هذه الحالة مدة من الزمن حتى قيام النخبة التونسية بالاحتجاج على هذه الوضع، فسعت لرفع هذا الظلم فحققت جزءاً من أهدافها، حيث تم اشتراك العنصر التونسي بمجلس الشورى بعد صدور قرار عام ١٩٠٧ القاضي بإدخال تعديل على نظام هذه الجمعية.

لقد كان عدد الفرنسيين يساوي ٣٦ عضواً يعينون بواسطة الاقتراع العام من طرف الجالية الفرنسية بمختلف جهات المملكة التونسية وحاضرتها أما التونسيون فكان عدد الأعضاء يساوي ١٦ عضواً أحدهم من الطائفة اليهودية، ويتم تعيينهم من طرف المقيم العام لإبداء آرائهم واقتراحاتهم. وبالطبع لا يعرض على هؤلاء الأعضاء الأمور الهامة وإنما الأمور العادية ولكن هذا الأمر فيه إجحاف كبير بالنسبة لحقوق الشعب التونسي للأسباب الآتية:

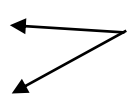
١- إن التمثيل في هذا المجلس ليس عادلاً فكيف يكون عدد أعضاء المجلس من التونسيين ١٦ عضواً ومن الفرنسيين ٣٦ عضواً في وقت كان عدد سكان تونس يتجاوز المليون ونصف مليون نسمة بالمقابل كان عدد الفرنسيين في تونس يقدر

(١) القصاب، أحمد: تاريخ تونس المعاصر ١٨٨١-١٩٥٦، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٨٦، ص ٤١٣.

بحوالي ثلاثين ألف نسمة. فعدم التوازن يجعل كل المشروعات المطروحة تذهب لحساب الجالية الفرنسية ذات التمثيل الأكثر.

٢- إن تعيين النواب التونسيين في هذا المجلس وبموافقة المقيم العام لا تعطي التونسي حقه في انتخاب من يراه صالحاً وأهلاً للثقة والدفاع عن حقوقه فنتج عن هذا الخلل أبعاد العناصر المثقفة من الشعب التونسي، أما الفرنسي فقد منح كامل الحرية في انتخاب من يشاء لتمثيله في تقرير مصير التونسي. وعلى الرغم من التفوق الفرنسي فقد سببت مشاركة التونسيين الاستياء ومعارضة من جانب المعمرين والصحافة حتى أن أحد السياسيين البارزين أرسل رسالة إلى المقيم العام الفرنسي الذي كان يرأس المجلس بنفسه يقول فيها: «آليت على نفسي ألا أحضر مجلساً أرى فيه نائب فرنسا يجلس في اجتماع واحد مع ١٦ عربياً. فإن ذلك نهاية فرنسا وخاتمة الحياة في هذه البلاد»^(١).

- نتيجة هذا الاحتجاج أصدر المقيم العام الفصل بين النواب الفرنسيين والنواب التونسيين وجعلهم على قسمين



قسم فرنسي
قسم تونسي

ب - المجلس الكبير:

استمر مجلس الشورى حتى عام ١٩٢٢ حيث اشتدت الحركة الوطنية في تونس وأصبحت خطراً على الاستعمار فألغت سلطة الحماية هذا المجلس وعوضته بمجلس آخر سمي « المجلس الكبير ».

انقسم المجلس إلى قسمين:

١- فرنسي.

٢- تونسي.

(١) بن الحاج عثمان الشريف، البشير: أضواء على تاريخ تونس، ط ١، دار سلامة للطباعة تونس (د. ت)، ص

ضم القسم الفرنسي ٤٤ عضواً تشكل منهم الغرف التجارية والزراعية ٢١ عضواً وينتخب الباقون من قبل الجالية الفرنسية. بينما ضم القسم التونسي ١٨ عضواً معيناً، ثم طرأت تغييرات على المجلس فقد زيد عدد الأعضاء بموجب أمر صدر عام ١٩٢٨. فأصبح عدد الفرنسيين ٥٢ عضواً، وعدد التونسيين ٣٦ عضواً وتم زيادة عدد الأعضاء مرة أخرى عام ١٩٣٣ ليصبح ٥٦ فرنسياً، و ٤١ تونسياً وتساوى الجانبان في عام ١٩٤٥، ثم بعد ذلك توترت العلاقات بين الفرنسيين والتونسيين فقدم الفرنسيون استقالتهم عام ١٩٥٠ محتجين بأن الحكومة الفرنسية تساهلت مع مطالب الشعب التونسي فتوقفت أعمال المجلس الكبير عام ١٩٥١^(١).

اختصاصات المجلس الكبير:

كان المجلس ينظر في ميزانية الدولة التي تعدها الإدارة قبل عرضها على الحكومة الفرنسية للموافقة عليها ، ولكل قسم الحق في إبداء رأيه حول الداخل من المال والمصاريف والضرائب وقروض الدولة، إلا أن كل اقتراح يخص المصاريف أو كل تخفيض أو إلغاء لمعلوم أو ضريبة ينبغي أن يكون مصحوباً ببيان معلوم التعويض والاقتصاد في النفقات بما يعادل ذلك في الميزانية. وبما أن اختصاصات المجلس تنحصر في أبداء بعض الآراء حول الميزانية بالدرجة الأولى فإن المسائل ذات الشكل الاجتماعي تبقى خارجة عن التداول في المجلس بشكل عام. أما سير عمل المجلس كان يدعى إلى الاجتماع كل عام وتدوم الدورة العادية عشرين يوماً ويمكن الدعوة إلى دورة غير عادية.^(٢)

فالمجلس الكبير إنما هو مجلس صوري تعرض عليه المسائل المالية. بمعنى آخر الأمور المالية كانت مقررة سلفاً، وليس له أي اعتبار خصوصاً إذا ما تعارضت هذه الآراء مع اتجاه المصالح الاستعمارية الفرنسية، ومثال على ذلك رفض النواب التونسيون النظر في الميزانية عندما رأى النواب مصروفات باهظة، وظلت الميزانية

(١) أحمد ياغي، إسماعيل: تاريخ العالم العربي المعاصر، طبعة أولى، مكتبة العكيبان للنشر، السعودية ٢٠٠٠،

ص ٣٥٥.

(٢) القصاب: مرجع سابق، ص من ٤٢٠ - ٤٢٣.

معطلة إلى أن قام المقيم العام بإصدار قرار يقضي بتحويل مجلس الوزراء حق المصادقة على الميزانية إذا رفض المجلس الكبير النظر فيها.^(١)

لقد قامت سلطات الحماية بإلغاء المجلس التشريعي الذي يعدّ ممثلاً للشعب التونسي، واستبدلته بمجلس الشورى الذي يتألف بأغلبه من ممثلين عن الجاليات الفرنسية في تونس، وهذا مخالف لاتفاقية باردو التي نصت على قيام الفرنسيين باحترام سيادة واستقلال تونس وإشرافها فقط على التمثيل الخارجي للبلاد. عدا عن ذلك لا يحق للفرنسيين الدخول بهذه الأعداد إلى مجلس الشورى أو المجلس الكبير من بعده؛ لأنهم ليسوا سكان تونس الأصليين وإذا كان لا بد من وجود ممثل عن الفرنسيين في هذه المجالس فيجب اقتصار عدد نوابهم على ثلاثة أو خمسة فقط. بالإضافة إلى أن أغلب النواب في مجلس الشورى والمجلس الكبير كانوا ممثلين عن الجالية الفرنسية ذات الصفة الزراعية والتجارية، وبالطبع كان هذا من الأمور المخططة لها من قبل سلطات الاحتلال من أجل السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية وإعطائها للقادمين من فرنسا، ثم سيطرة التجار على تونس وجعلها سوقاً لتصريف منتجات فرنسا وفي نفس الوقت تكون منتجاً ومورداً لمصانع فرنسا، وبالتالي تستطيع التجارة الفرنسية الاستيلاء وحدها على الأسواق التونسية وتتغلب على مزاحمة الجالية الإيطالية ذات الأعداد الكبيرة في تونس، وفوق كل هذه الفروق الواضحة في التمثيل والمصالح بين التونسيين والفرنسيين في هذه المجالس فإن الكلمة الأولى والأخيرة للمقيم العام الذي يضع أولويات فرنسا في المقدمة.

وأخيراً: إن وجود قسمين فرنسي وتونسي جعل الاتصال صعباً جداً بين النواب وبالتالي أصبح كل قسم يعمل منفصلاً عن الآخر.

(١) النبيلي التونسي، عمر: هذه تونس المجاهدة، مكتب المغرب العربي، تونس (د. ت)، ص ٣٩.

- السلطة التنفيذية:

أ- الباي:

كانت السلالة الحاكمة هي الأسرة الحسينية وهي أسرة أجنبية عن تونس أسسها حسين بن علي التركي الأصل عام ١٧٠٥، فكان الحكم يتداول بين الذكور وحسب السن ضمن هذه الأسرة من خلال مرسوم أو فرمان سلطاني بعد إغداق الهدايا على الباب العالي، وبقي الأمر كذلك حتى جاء الصادق محمد باي فاهتم كل الاهتمام بإعطاء الصفة الشرعية لذلك المنصب من خلال ما ورد في نص قانون الدولة الأساسي الصادر في السادس والعشرين من نيسان ١٨٦١^(١)، ثم سعى للحصول على فرمان سلطاني يجعل مسألة الحكم وراثية وبطريقة شرعية ترضى عنها الدولة العثمانية في مقابل تجديد الامتيازات المعترف بها لدار الخلافة بالإيالة التونسية، وعلى ما يبدو كان الباي محمد الصادق يسعى من وراء ذلك إلى تحقيق هدفين:

أولهما: إقرار الوراثة في أسرته بصفة دولية.

ثانيهما: الاحتماء بدرع الخلافة الإسلامية التي بدأت تظهر في هذه الفترة ضد الاستعمار وسياسته الطامعة بأمالك الدولة العثمانية، فالباي ممثل للسلطة الشرعية الحاكمة، فكثيراً ما كان يرسل الباي الوزير خير الدين إلى الأستانة محملاً بالهدايا لهذا الغرض وجعل الحكم وراثياً مستفيداً من ضعف الدولة العثمانية^(٢).

عندما دخلت فرنسا إلى تونس كان على رأس السلطة الباي الذي يتمتع بكامل الصلاحيات، ويمثل الشرعية بدعم من السلطة العثمانية وإن كانت هذه التبعية اسمية، ولكن اختلفت الأمور في ظل الحماية حيث حاولت سلطة الحماية تجريد سلطة الباي رويداً رويداً فكانت البداية مع معاهدة باردو.

(١) ورد في أحد بنود دستور عام ١٨٦١ نصاً يعطي الباي الحق في تعيين ولي عهده وضمن أفراد أسرته الأكبر سناً وللمزيد من المعلومات أنظر الملحق.

(٢) الصالح مزالي، محمد: الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترام نظامه، الدار التونسية للنشر تونس ١٩٦٩،

فمثلاً: البند السادس: يلتزم الباي بعدم عقد أي صفقة أو معاهدة إلا بموافقة فرنسا والبند السابع: تشارك فرنسا الباي في وضع نظام للمملكة التونسية، وهذا تدخل في شؤونه والبند الثامن: تتعهد حكومة الباي بفرض غرامة مالية على القبائل الثائرة لحماية أمن فرنسا. بعد معاهدة باردو قامت سلطات الحماية بإنهاء سلطة الباي تدريجياً من خلال توقيعه على اتفاقيات و معاهدات التي كان من أهمها اتفاقية ٦ تموز ١٨٨٢ عندما فرض (Paul Cambon) بول كامبون^(١) اتفاقية اعترف بها الباي بهيمنة فرنسا على البلاد التونسية مستفيداً من البند السابع من معاهدة باردو الخاص بتنظيم مالية الولاية، لتعطي المقيم حق فرض الضرائب وتنظيم الأمور المالية. هذه الاتفاقية لم يوقعها الباي إلا بعد ملاطفة وتودد إليه ومساعدة الوزير مصطفى بن إسماعيل حتى أن (Paul Cambon) كامبون كتب في ذلك اليوم الذي وقعت فيه الاتفاقية^(٢):

«لقد استطاع مصطفى بن إسماعيل تهيئة الباي بصورة رائعة فأمضى محمد الصادق في نهاية الأمر على المعاهدة بعد أن تحصل على تأكيدات تضمن حقوقه في السيادة. . . وبالإضافة إلى ذلك طلب الباي احترام كل المراسيم القديمة كما طلب أن تضمن الحكومة الفرنسية مستقبل أعوانه المدنيين والعسكريين. إلا أنه اكتفى بوعود لفظية مبهمة وغير محددة لكي يوقع على نسختين واحدة بالعربية والأخرى بالفرنسية من مشروع المعاهدة التي أعدت بباريس. . . .» أدى العامل المادي دوراً هاماً في توقيع الاتفاقية حيث كانت الكلمة الأولى في الايالة التونسية للباي وبدعم من المركز السلطة العثمانية، ويبيده جميع السلطات، وبالتالي لا يمكن أن يتعاون مع فرنسا ويشاركها في أمجاده لو كان الوضع المادي جيداً، إضافةً إلى الديون المترتبة عليها جراء سياسة التحديث.

(١) كامبون دبلوماسي فرنسي ولد عام ١٨٤٣ عين مقيماً في تونس خلفاً لتيودور روسطان ١٨٨٢ لعب دوراً في تنظيم أمور الحماية في تونس ، بقي في منصبه حتى عام ١٨٨٦ ، ثم أصبح سفيراً لبلاده في لندن من ١٨٩٨ - ١٩٢٠ توفي عام ١٩٢٤ ، انظر الصولي : مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٢) المحجوبي، علي: انتصاب الحماية الفرنسية في تونس، دار سراس للنشر، تونس ١٩٨٦، ص ٨٥-٨٦.

وهناك رسالة أرسلها كامبون إلى زوجته بباريس بتاريخ ١٢ نيسان ١٨٨٢ يقول فيها: ^(١)

«كلما تفحصت هذه المسألة التونسية وجدتها غير ممكنة الحل إذا لم تتخذ الحكومة إجراءات جديّة. فقد عم البؤس وكثر الإسراف وتردت أحوال البلاد. ولم يعد الباي نفسه يمتلك درهماً واحداً. وبعبارة أوضح فهو يموت جوعاً. فكيف يمكن للنظام أن يستتب في مثل هذا الوضع المتدهور إذا انعدمت الأموال وسيبلغ العجز في هذه العام ١٥ مليوناً ولا يمكن الخروج من هذه الوضعية إذا لم تتحمل الحكومة الفرنسية مسؤولية الديون وذلك بإدارة الشؤون المالية للولاية وبإلغاء نظام الامتيازات».

ولكن هل كان وضع هذه الولاية سيئاً إلى هذه الحد كما يدعي كامبون؟ فقد ورد على لسان أحد المعمرين الفرنسيين: ^(٢) « أن إعادة بناء تونس يحتاج إلى أموال كثيرة وهذا البلد بالطبع ليس فقير ولكن يحتاج إلى الترتيب والعدل ومن ثم الشركات الخاصة ستقوم بالباقي عن طريق حكومة الباي وتحت رعاية وكلاء فرنسيين وخصوصاً وزيرنا المقيم. . . إنه بعد سيطرة فرنسا على تونس والتفاهم مع الدول الأخرى بشأن الديون ازدادت إيرادات الحكومة الفرنسية حيث بلغت ٢٦ مليون فرنك فرنسي عام ١٨٨٦-١٨٨٧ وكانت ذروة نفقات فرنسا ١٢ مليون فرنك فرنسي ».

هناك رأيان حول الوضع الاقتصادي لتونس: لاشك أن الرأي الثاني هو الأصح فالبلاد التونسية بحكم موقعها الجغرافي وطبيعتها تميزت بثرواتها الزراعية والباطنية فضلاً عن موقعها التجاري الهام. أما ما يتحدث به كامبون عن الوضع السيئ لتونس فهذا يعود إلى سياسة الاستعمار الفرنسي القائمة على سلب ونهب ثروات الشعب التونسي، هذه السياسة ترافقت مع وجود أشخاص يتمتعون بحب المال و الجشع والتبذير بالأموال التي هي ملك للشعب. هذا الوضع دفع الباي المتصف بضعف شخصيته ووقوعه تحت تأثير الحاشية من وزراء و مستشارين إلى توقيع الاتفاقية. وأخيراً جاءت الصفعة الكبرى لسلطة الباي في اتفاقية المرسى ١٨٨٣ التي أعطت

(١) المحجوبي: مرجع سابق: ص ٨٦.

(٢) Henrie penjamain :op. cit, p ٣٢٧.

الفرنسيين الحق في الإشراف على الشؤون المالية لتونس، وتعهد الباي بإدخال الإصلاحات القضائية التي تراها الحكومة الفرنسية، كل ذلك من أجل تعميق الوجود الفرنسي ومنح الفرنسيين الامتيازات التي كانوا يحلمون بها وحرمان التونسيين من حق الانتفاع منها^(١).

ولم تكتف سلطات الحماية بالسيطرة على الباي وجعل قراراته بيد المقيم العام وجعل سلطته اسمية، بل تدخلت حتى في مسألة تعيين ولي العهد. أن حق السيادة الفرنسية يجب أن يطبق حتى في مسألة تنصيب العرش لذلك فإنه من غير المعقول ألا يطبق عندما يعين الباي ولي عهده، أو يؤخر تدخل فرنسا إلى حين صعوده إلى العرش، وبالتالي تقع فرنسا في مشاكل وتعقيدات هي في غنى عنها في المستقبل، فيجب تعيين ولي العهد باتفاق كامل بين الأسرة الحسينية والدولة الفرنسية من أجل روح التعاون و الشراكة حسب نظام الحماية، وأن فرنسا لا يمكن أن تتحمل جلوس شخص على كرسي العرش لا يمنح كل الضمانات التي تحافظ على المصالح العليا لفرنسا، لذلك يجب الاتفاق مع الباي الحاكم حول هذه المسألة، والأخطر من ذلك لا يجوز لأي فرد في الأسرة الحسينية أن ينكر على فرنسا حقها في الحصول على ضمانات للمستقبل، وهي التي تضحي في هذه اللحظة بالملايين من أجل الدفاع عن البلاد وهي ترسل آلاف من أبنائها لحراسة الحدود مع ليبيا^(٢). بهذه الإجراءات تكون فرنسا قد جردت الباي من سلطاته واستطاعت من خلال عدة اتفاقيات مستغلة ضعف الدولة العثمانية والباي من جهة ووقوع الايالة في أزمة مالية من جهة أخرى لتفرض على الباي شروطها والتي كانت إجحاف بحق الشعب التونسي، وبالتالي تربط مصير الايالة بمصير فرنسا وتكون تونس مستعمرة فرنسية يحكمها الباي الذي لا يملك من الصلاحيات شيئاً سوى التوقيع على القرارات بعد المقيم العام

(١) انظر الملحق(٦) حول معاهدة المرسى .

(٢) المنصر عدنان : استراتيجيا الهيمنة، تقديم محمد الهادي الشريف، ط٢، تونس ٢٠٠٥، ص ١١٢.

ب - الوزراء:

كان في الايالة التونسية عدة وزراء ولكن صلاحياتهم ليست واضحة بصورة كافية، ونفوذهم كان رهن مشيئة الباي، حيث يكلفهم من فترة لأخرى بمهام في الخارج أو يطلب منهم مشورة في قضية معينة، أو يوكل لهم مهمة القيام بجولة تفقدية أو أمنية داخل البلاد، وقد أصبح معاونون الكبار للباي يسمون وزراء منذ حكم أحمد باي، كما كانوا يحملون ألقاباً عسكرية رنانة، فالمؤرخ أحمد بن أبي الضياف كاتب سر بايات تونس منذ ١٨٢٧ يحمل لقب اميرلاي، وكان هناك الوزير الأكبر ووزير الداخلية والمالية ووزير الحرب ووزير البحر والخارجية، ولا بد من الإشارة إلى أن الباي هو الوحيد المؤهل لاتخاذ كل القرارات الهامة وقد توالى على حكم البلاد منذ حمودة باشا ١٨١٤ وزراء تميز أغلبهم بعدم الكفاءة والجشع مثل الوزير الأكبر مصطفى خزندار والوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل وقد بالغوا في النهب والاستيلاء على أموال الدولة والإسراف بالتبذير والترف.^(١)

بعد سيطرة فرنسا على الباي بدأ المشروع الفرنسي بالسيطرة على كامل البلاد سياسياً وإدارياً فكانت الخطوة التالية بعد الباي الوزراء. حيث تعاونت مع الباي علي الذي خلف أخاه محمد الصادق ١٨٨٢ لإبعاد الوزراء المعارضين أمثال محمد خزندار^(٢) مقابل تسلمه العرش.

فقام بإجراء إصلاحات إدارية وسياسية تمثلت بعدة نقاط:

(١) التيمومي، الهادي : تاريخ تونس الاجتماعي ١٨٨١ - ١٩٥٦، ط ١، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس ١٩٩٧، ص ١٣.

(٢) محمد خزندار: ويكنى بأبي عبد الله ولد عام ١٨١٠ بجزيرة كوس اليونانية، وقع أسيراً ثم بيع إلى باي تونس حسين باي، ارتقى إلى وظيفة خازن. خدم خمسة بايات ولمدة خمسين عاماً. بدأ في عهد احمد باشا حيث سمي والياً على سوسة و المنستير وفي عام ١٨٥٦ والياً على قابس، ١٨٦٠ عين عضواً في المجلس الكبير، ١٨٦١ وزيراً للداخلية، ١٨٦٢ وزيراً للحرب، ١٨٦٥ وزيراً للبحر، ١٨٧٧ خلف خير الدين في الوزارة الكبرى وبقي حتى بعد انتصاب الحماية: لينسحب بعد ذلك من الحياة السياسية. توفي في ضاحية المرسى ١٨٨٩. انظر الشنوفي: مرجع سابق، ص ٩٦.

- أن يكون مقر الوزارات بتونس العاصمة بدلاً من مقرها القديم / قصر باردو / .
- أن تلغى وزارتا الحربية والبحرية لأنهما غير مفيدتين وأن تعهد حراسة الموانئ إلى البحرية الفرنسية وان توكل مهمة الإشراف على الجيش التونسي إلى قائد عام جيش الاحتلال.

- أن يُحدد الوزير المقيم ويضبط مهام الوزير الأكبر .
- أن يقال رئيس بلدية الحاضرة وأن يتولى مسؤول فرنسي إدارة شؤونها المالية .
ولم يكتف بذلك بل حذف من ختمه لقب مشير وسلم كل فرمانات القسطنطينية إلى الوزير المقيم.^(١) وهكذا أصبح المقيم العام رئيساً للوزراء وهو الوزير الأول يساعده وزير القلم والكاتب العام للحكومة والمدير العام للإدارة المركزية ويجتمع مجلس الوزراء على الأقل مرة في الشهر . لقد مر تنظيم مجلس الوزراء بمرحلتين: المرحلة الأولى من ١٨٨١ حتى الحرب الثانية ١٩٤٥ وكان فيها إبعاد شبه كامل للتونسيين . أما المرحلة الثانية ١٩٤٥ - ١٩٥٥ فكان فيها تمثيل ومشاركة واسعة للتونسيين^(٢) .

أما بالنسبة لمجلس الوزراء من عام ١٨٨١ - ١٩٤٥ فقد كان يتألف في البداية من سبعة وزراء خمسة فرنسيين واثنين تونسيين ، وهم مدير الأشغال العمومية ومدير المالية ووزير الحربية والوزير المقيم وهو في الوقت نفسه الرئيس الحقيقي للمجلس ووزير الشؤون الخارجية ، أما بالنسبة للوزراء التونسيين فكانا اثنين هم العزيز بوعتور^(٣)

(١) المحجوبي: مرجع سابق، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) الشاطر: مرجع سابق، ص ٣٩ .

(٣) هو محمد العزيز بن محمد بوعتور ولد ١٨٢٥ أول وزير أكبر لتونس في عهد الحماية . ينحدر من عائلة تنتهي بنسبها إلى الخليفة عثمان بن عفان . ارتبط بعلاقات المصاهرة مع رجال السياسة بتونس ، تزوج من أخت المؤرخ احمد بن أبي الضياف ، وزوج ابنته إلى عائلة ابن عاشور . بدأ مشواره السياسي عام ١٨٦٠ حيث عين مدير للمالية ، وفي ١٨٦٦ وزيراً للمالية عندما كانت البلاد في وضع حرج ، ١٨٧٦ عين وزيراً للقلم وبقي في منصبه حتى ١٨٨٢ ، وقف مع سلطات الحماية فيقول عنه كامبون «إنه رجل محترم عديم الإرادة والنشاط يخضع بسهولة للمقيم العام ، وهو لذلك مؤهل ليكون أفضل وزير أكبر » بينما يصفه المحجوبي من أكثر الأشخاص مساهمة في تركيز وتوطيد الحماية . انظر المحجوبي : مرجع سابق، ص ١٠٥ .

ومحمد جلولي^(١).

بقي أن نشير أن هذه الوزارات التي يتولاها تونسيون ليس لها أي سلطة فعلية طالما أن هناك مقيم عام، ووجود موظفين فرنسيين إلى جانب كل وزير تونسي أن وجد.

لقد كانت السيطرة على الوزارات من بين الخطط الاستعمارية الهادفة إلى محو كيان الدولة التونسية وانتزاع جميع السلطات من يد أصحاب البلاد، وبالتالي شل الهيئة الوزارية، فقامت بإلغاء مناصب الوزارات الوطنية التي كانت موجودة قبل الحماية ولم يبق منها غير منصب الوزير الأكبر ووزير القلم والاستشارة ثم أضافت إليه منصب وزير العدل عام ١٩٢١ ومنصب وزير الشؤون الاجتماعية عام ١٩٤٥. وعلى رغم عدم فاعلية هذه الوزارات؛ بسبب سلطة المقيم العام. فقد وضعت سلطات الحماية إلى جانب كل وزير تونسي مدير فرنسي بيده السلطة الحقيقية أما المقيم العام يعد رئيس الوزراء الفعلي ووزير الخارجية وإلى جانبه الكاتب العام الفرنسي الذي يعتبر وزير الداخلية ويشرف على كل الشؤون الإدارية في البلاد. أما بقية المصالح الأخرى من مالية ومعارف وإشغال عامة وبريد واقتصاد فيتولاها مديرون فرنسيون^(٢) لقد قامت سلطات الحماية بإلغاء كل الوزارات الوطنية وحصر هذه الوزارات بيد المقيم العام.

(١) محمد الجلولي : هو محمد بن فرحات الجلولي ولد عام ١٨٢٦ ينتمي إلى عائلة مارست العمل المالي . عمل أجداده مع دولة البايات الحسينيين حيث كان جده والياً على صفاقس ١٧٢٠ . توفي والده وعمره ١٩ عاماً فكفله عمه حسونة الجلولي . بدأ عمله ١٨٧٣ عندما عين نائب لرئيس مجلس بلدية الحاضرة ثم عين والياً على صفاقس و جربة ، ثم كلف برئاسة المحكمة المختلطة للنظر في الأمور التي تكون بين التونسيين والأجانب . ١٨٨٠ انتقل إلى قيادة الكاف . خضع مثل غيره لحكومة الحماية متذرعاً بخدمة الباي وليس فرنسا ، عين على صفاقس ١٨٨٢ ، ثم ارتقى إلى الوزارة الكبرى ويعين وزيراً للقلم حتى ١٩٠٧ ، ويعين عمه حسونة والياً على الساحل . توفي محمد الجلولي ١٩٠٨ . انظر المالك ، عبد القادر : المخازن في تونس ، تونس (د.ت) ، ص ٨ .

(٢) النبيلي التونسي : مرجع سابق ، ص ٤٠ .

ج- المقيم العام الفرنسي في تونس:

كان الوزير المقيم العام يمثل الجمهورية الفرنسية وهو مكلف بالسهر على تنفيذ معاهدة ١٢ أيار ١٨٨١ على أن يكون الواسطة في العلاقات بين الحكومة الفرنسية والسلطات التونسية في جميع الأمور المشتركة بين البلدين، و كان من المفروض أن تكون اختصاصات المقيم العام مقتصرة على التوجيه والإرشاد الفني في إدارة البلاد^(١) لقد أحدثت فرنسا بتونس عدداً من المصالح والمؤسسات الفرنسية وجعلتها تابعة للوزارات الفرنسية مباشرة ثم أسندت للمقيم العام إثر قرار فرنسي صدر ٢٢ نيسان ١٨٨٢ التمثيل المباشر لهذه الوزارات والمصالح العامة الفرنسية، ومكنته من إعطاء الأوامر والقرارات إلى الجهات المختصة والوزراء الفرنسيون الذين يرسلون له خطة عملهم. ولم تكف فرنسا بذلك فأرادت أن تستولي استيلاءً حقيقياً تاماً على السلطة التشريعية فأصدرت مرسوماً من رئيس الجمهورية الفرنسية في ١٠ شباط ١٨٨٤ يفوض فيه رئيس الجمهورية الفرنسية المقيم العام للموافقة باسم الحكومة الفرنسية على المراسيم التي يصدرها الباي ولإعطاء هذه المراسيم القوة التنفيذية داخل القطر التونسي. فأصبحت جميع المراسيم التي يصدرها الباي لا مفعول لها إلا بعد توقيع المقيم العام الفرنسي عليها، ثم تطورت الأمور بحيث أصبح المقيم العام هو الذي يعد المراسيم الملكية ثم يعرضها على الباي لوضع ختمه على هذه المراسيم دون أن يكون قد أطلع عليها.

وكان ينوب عن المقيم العام في المناطق الأخرى المختلفة والمقاطعات التونسية المراقبون المدنيون. فكانت مهمتهم في البداية تقتصر على رقابة العمال التونسيين، ثم أصبحوا مستشارين لديهم ومع مرور الأيام أصبح النفوذ كله بأيديهم وكلمتهم لا ترد بل مسموعة وسلطتهم غير محدودة. ومن صلاحيات هذا المقيم صدور قرار عام ١٩٣٨ يمكنه من وضع حالة الحصار في أي جهة من تونس وفي أي زمن يريده ، وله الحق في إتباع طرق الاضطهاد والقسوة حسب ما يراه هو بنفسه. ^(٢) لقد تولى هذا المنصب

(١) انظر الحاج عثمان الشريف : مرجع سابق، ص ١٩٥ .

(٢) البلهوان، علي : تونس الثائرة، لجنة تحرير المغرب العربي، (د. ت)، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

منذ عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٥٥ ٢٢ مقيماً وكانت مدة توليهم تتراوح بين عام وتسع سنوات. وكانت مقاييس اختيار المقيم العام وتعيينه لا تساعد على تثبيت نفوذه إذ كان معظمهم ينتدب من بين ولاية الأقاليم الفرنسية، أو من بين موظفي وزارة الداخلية أو أشخاص ينتمون إلى الحزب الحاكم ، وكانت خبرة هؤلاء المقيمين بأحوال تونس والعالم الإسلامي قليلة بسبب جهلهم باللغة العربية والتقاليد المحلية لذلك كانت قرارات المقيم العام وتقديره للأوضاع العامة وتطوراتها تستند بالدرجة الأولى إلى تقارير المستشارين والمراقبين المدنيين وأجهزة الاستعلام وبدرجة ثانية إلى الخبرة الذاتية. ^(١) ويبدو أنه من الغير الممكن أن ترسل فرنسا من يمثلها إلى أحد مستعمراتها نائباً عن الرئيس الفرنسي وهو لا يعلم تقاليد وعادات وحتى لغة أهل المستعمرة وإن كان له مستشارون. لقد اثبت الواقع أن أغلب قادة الاستعمار الذين وفدوا إلى المنطقة العربية بشرقها وغربها وليس تونس وحدها أنهم على قدر كافٍ من المعرفة بطبيعة البلاد وهذا ساعدهم على تثبيت نفوذهم في المنطقة لفترة طويلة بل إلى يومنا هذا.

د - الكاتب العام للحكومة التونسية:

أحدث هذا المنصب بتاريخ ٤ شباط ١٨٨٣ من أجل إنهاء الأمور الإدارية بشكل أسرع من قبل لكن سرعان ما أصبح المراقب الفرنسي الأول على الإدارة التونسية وصارت جميع أعمال وقرارات الوزير الأول ورؤساء المصالح العامة الأخرى غير نافذة ما لم تحمل تأشيرته. وعلى الرغم من وجوب أن يكون الموظف تونسياً كون المنصب خاص بالشؤون الإدارية الداخلية التونسية فإن جميع من تولى هذا المنصب موظفون فرنسيون كان المقيم العام يرشحهم والباي يعينهم ويسميه. بقي هذا المنصب حتى عام ١٩٥١ حيث تم جمع صلاحياته إلى المقيم العام الفرنسي. ^(٢)

لقد كان الهدف من وضع الفرنسيين في هذا المنصب لضمان خلو الإدارة من أشخاص لا يعلنوا الولاء لفرنسا، ونظراً إلى تزايد عدد المصالح الجديدة التي يشرف عليها موظفون فرنسيون. فقد ازدادت عدد الرسائل المكتوبة باللغة الفرنسية. وبناءً على

(١) الشاطر: مرجع سابق، ص ٣٧.

(٢) البلهوان: مرجع سابق، ص ١١٩.

ذلك فقد فوض الوزير الأكبر إمضاءه إلى الكاتب العام الذي أصبح يتحمل مسؤوليات كانت تابعة للوزير الأكبر. أما أهم المصالح و الإدارات التي كان من ضمن صلاحيات الكتابة العامة ويشرف عليها:

- مصلحة موظفي الإدارة المركزية و المحلية.

- إدارة الأمن العام.

- إدارة الصحة.

- مصلحة البلديات.

- إدارة الأوقاف.

- إدارة المصالح العدلية.

- مصلحة المؤسسات الدينية.^(١)

صدر مرسوم عام ١٩٢٢ ألغيت فيه الكتابة العامة للحكومة التونسية؛ بسبب

خلاف بين المقيم العام (Losian San) لوسيان سان والكاتب العام (Gabriel

Boyo) غابريال بويو وأحيلت مسؤولية الكاتب العام إلى مديرين جديدين هما مدير عام

الداخلية ومدير العدلية التونسية. فأصبح المدير العام للأمن يتمتع بنفس سلطات

الكاتب العام للحكومة، فأصبح هو الذي يؤشر قرارات الوزير الأكبر حيث يعرض

ويصدر القوانين والأوامر والقرارات بالاشتراك مع الوزير الأكبر ولكن تم إعادة هذه

الوظيفة مرة أخرى بقرار صدر عام ١٩٣٣ وحددت مهام الكاتب العام من جديد وهي

تتمثل فيما يلي:

- التأشير على جميع الأوامر المعروضة على الباي لختمها بناءً على قرارات

الوزير الأكبر.

- مراقبة سير الإدارة التونسية بأكملها بما في ذلك الوزارات الفنية.

- التأشير على جميع التعيينات المقدمة للمقيم العام للموافقة عليها ويساعد الكاتب

العام على القيام بمهامه أربع إدارات هامة وهي:

(١) الثعالبي: مرجع سابق، ص ٤٨.

١- المديرية العامة للمصالح الإدارية التي تسهر على مراقبة الموظفين التابعة للإدارات العمومية.

٢- المديرية العامة للمراقبين المدنيين المكلفين بمراقبة إدارة الأعمال والشراسة.

٣- المصلحة القانونية والتشريعية المكلفة بإعداد وتحرير النصوص التشريعية.

٤- إدارة مراقبة المصاريف العمومية.

كانت آخر تعديلات على وظيفة الكاتب العام بعد جلاء قوات المحور عن تونس، وذلك في نطاق إعادة تنظيم إدارة الحماية من طرف اللجنة الفرنسية. حيث صدر قرار عام ١٩٤٣ أصبحت بموجبه السلطة المركزية الفرنسية هي التي تعين الكاتب العام للحكومة وقد ألغيت كلمة التونسية، كما عين مستشار للآلية يتولى ربط الصلة بين المقيم العام من جهة وبين الباى والوزراء التونسيين من جهة أخرى ومدير للشؤون السياسية يوجه وينسق النشاط السياسي لمصالح الحماية ويجمع المراقبة الفرنسية تحت سلطته ويسهر على حفظ الأمن. ^(١) لقد تعرضنا لذكر المقيم العام الفرنسي والكاتب العام للحكومة التونسية نتيجة الدور الذي قام به كل منهما فقد كان المقيم العام وزير الخارجية وصاحب الكلمة الأولى ثم يأتي دور الكاتب العام الذي شغل وظيفة وزير الداخلية فقد كان الاثنان هم من حكم تونس في الفترة بين ١٨٨١ - ١٩٥٦ أما الباى فما عليه سوى التوقيع على قرارات المقيم العام ولا يحق له الرفض. وكان لهؤلاء مساعدون ومديرون ومؤسسات تابعة لهم.

٣ - السلطة القضائية: كانت السلطة القضائية على ثلاث درجات:

١- القضاء الابتدائي

٢- محاكم الاستئناف

٣- محاكم التعقيب

(١) القصاب : مرجع سابق، ص من ٣٨٥ - ٣٨٩.

ويتولى أمر هذه المحاكم قضاة يشغلون مناصبهم مدى الحياة ولا يحق للباي أو مجلس الوزراء التدخل في شؤون السلطة القضائية إلا لتنفيذ الأحكام الصادرة عن المحاكم. طبق هذا الأمر فترة ثم أهمل ولم يتم إلغاؤه.^(١) بعد قيام ثورة علي بن غداهم ١٨٦٤ عدّ الباي نفسه الحاكم المطلق فاحتكر حق العقاب غير المحدد. فكان يعاقب دون نص كل الأفعال التي تستوجب اللوم معتبراً إياها تمرداً على سلطته، فاتسم قضاؤه بأحكام خاصة تخضع لاجتهاده الشخصي، ولكن بعد توقيع معاهدة باردو بدأت فرنسا بالتدخل بشؤون السلطة القضائية من أجل استكمال السيطرة على البلاد. لذلك حافظت على نفوذ الباي المطلق في مجال القضاء وإصدار الأحكام الخاصة به حتى تبدو الأحكام شرعية صادرة عن قاضي شرعي ولاسيما المقيم العام هو الذي يصدر الأحكام والباي فقط يوقع عليها. ومن جهة أخرى تجنبت سلطة الحماية المحاكمات السياسية ولجأت إلى العقوبات الإدارية عن طريق الباي لردع الوطنيين. لكن نظرية المشاركة والتعاون التي ذكرناها في البداية سرعان ما تتحول إلى هيمنة طرف على آخر حيث لا يوجد تكافؤ بين فرنسا الدولة العظمى وتونس الولاية العثمانية الضعيفة وهذا ما حصل حيث قامت سلطة الحماية بانتزاع صلاحية العقاب من الباي وأعطتها للمفوض (المقيم العام) عام ١٩٢١ بسبب:

- ١- ضغط الشباب التونسيين الذين كانوا يطالبون منذ بداية القرن العشرين بإلغاء القضاء المقيد بالباي وفصل السلطة القضائية عن السلطة الإدارية.
- ٢- توجه سلطة الحماية الفرنسية إلى إدخال إصلاحات على القضاء التونسي من أجل ملائمة مع تطور العلاقات الاقتصادية الرأسمالية بالإضافة إلى تعقد الأوضاع الاجتماعية.^(٢)

(١) البلهوان: مرجع سابق، ص ١٠٩.

(١) العرفاوي، خميس: القضاء والسياسة في تونس زمن الاستعمار الفرنسي ١٨٨١ - ١٩٥٦، ط ١، دار صامد

للنشر. صفاقس، تونس ٢٠٠٥، ص ٧٣ - ٧٤.

وبعد أن جعلت الباي القاضي الشرعي إلا أنه بقي الناطق باسم المقيم العام لذا سعت سلطة الحماية إلى إلغاء المحاكم القنصلية التي كانت موجودة في عهد الامتيازات الأجنبية قبل الحماية وكان يبلغ عددها ١٥ محكمة، فابتدأت بإلغاء هذه المحاكم وتعويضها بمحاكم فرنسية. ولأن فرنسا تعهدت أثناء دخولها تونس باحترام الاتفاقيات والمعاهدات بين تونس والدول الأخرى. سعت إلى استصدار مرسوم من الباي عام ١٨٨٣ ينص على أنه إذا ألغت دولة من الدول محكمتها القنصلية، فإن رعاياها يصبحون تابعين للمحاكم الفرنسية لذلك سعت إلى عقد معاهدات واتفاقيات مع هذه الدول حتى تم إلغاء آخر محكمة قنصلية في ١٥ آب ١٨٨٤. وبذلك استطاعت فرنسا أن تحد من سلطة الدولة التونسية، وأعطت لنفسها حق النظر في قضايا رعايا الدول الأخرى زيادة على قضايا رعاياها، وبعد أن تخلصت من سلطة الباي ومزاحمة المحاكم القنصلية للدول الأخرى بدأت بإنشاء محاكم فرنسية إلى جانب المحاكم التونسية حيث إن هذه المحاكم لا يرجع النظر فيها إلى السلطة التونسية، بل هي تابعة للسلطة الفرنسية، ونظامها هو نظام المحاكم الفرنسية في فرنسا. ^(١)

فقد أحدث قانون ٢٧ آذار ١٨٨٣ محاكم ابتدائية بتونس العاصمة ثم تبعت محاكم في سوسة عام ١٨٨٧م وفي بنزرت وصفا قس عام ١٩٤٢ بالإضافة إلى هذه المحاكم الابتدائية أحدثت ست محاكم صلح في تونس العاصمة وحلق الوادي وبنزرت وسوسة وصفا قس والكاف. أما بالنسبة للقضاة فإن أغلبهم كان من الفرنسيين الذين مارسوا مهنتهم بالبلاد الجزائرية حيث يتم اختيارهم من الذين عملوا بالسلك القضائي الفرنسي في الجزائر، وذلك بسبب معرفتهم بعادات وتقاليدهم الأهالي وعلى اطلاع بالمعارف التشريعية المحلية عدا عن علمهم للمعارف القانونية الحديثة. لقد اتسم القضاء الفرنسي بالتميز العنصري في تونس إذ تختلف أحكامه حسب جنسية المتهم. فهي أحكام مشددة عندما يكون المتهم تونسياً ومخففة عندما يكون المتهم فرنسياً أو أوروبياً وهذا التميز كان يتجلى في القضايا ذات الطابع السياسي أو القضايا الجنائية. فمثلاً وقعت حادثة عام ١٩٠٥ عندما اعتدى أحد الرعايا الفرنسيين على تونسي

(٢) ثامر: مرجع سابق، ص ١٢١.

بالضرب فأصيب بجروح وكسور ثم توفي. فعندما عُرض على محكمة فرنسية كان حكمه ٥٠ فرنك فقط، ويحق للمتهم الاعتراض إن شاء. أما عن تعيين القضاة فقد كانوا يخضعون للإدارة و يعينون ويعزلون بأمر من رئيس الجمهورية الفرنسية وفق ما يقترحه وزير العدل، ولكن في الحقيقة كانت الاقتراحات المتعلقة بتعيين القضاة وحياتهم المهنية تصدر عن سلطة الحماية بتونس (المقيم العام).^(١)

أما بالنسبة للقضاء الشرعي فقد كان يختص بالنظر في الأحوال الشخصية والعقارات غير المسجلة، وقد نظمت شؤون هذا القضاء في فترات متعددة تحت ضغط الرأي العام الفرنسي. ويتولى القضاء الشرعي في العاصمة محكمة شرعية^(٢) لذلك أوجدت فرنسا قضاءً أهلياً إلى جانب القضاء الشرعي. والدائرتان كلتاهما لم تتمتعاً بصفة الإنصاف أو الحكم بالعدل، بل كانت تقديرات القاضي هي الفصل، دون أن يوثق الأحكام بنصوص أو أسانيد، فالقاضي الشرعي يعود في أحكامه إلى قواعد متشعبة متضاربة متخالفة يطبقها على القضايا بحسب ما يراه، والقاضي الأهلي يعتمد على العادات دون أن يكون له مرجع شرعي سواء أكان دستوراً أم قانوناً. فالقضاء الشرعي كسب صيغة الشرع اسماً والقضاء الأهلي كسب صيغة القانون اسماً. وفي الواقع لا قانون ولا شرع.

هذا الوضع أدى إلى تدهور السلطة القضائية وانتشار الفساد الأخلاقي بالإضافة إلى اعتلاء منصب القضاء من قبل أشخاص لا يتمتعون بالصدق والأمانة مما أدى إلى تفشي الرشوة في القضاء الشرعي والغنى السريع فلا يمر على الشخص فترة من توليه المنصب حتى يصبح عنده عدد غير محدد من العربات والقصور ويكثر خدمه وحشمه وعبيده، عدا عن ذلك فقد قامت سلطة الحماية بحرمان الدوائر القضائية من المجالات القانونية والنصوص التشريعية. أما القضية الأخطر في هذا المجال فهو قيام سلطة الحماية بتغذية النزاع بين أبناء الدين الواحد في إطار فض الخصومات بين شخصين أو أكثر من خلال إيجاد محكمتين إسلاميتين أحدهما: حنفية والثانية مالكية

(١) العرفاوي: مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢) النبيلي التونسي: مرجع سابق، ص ٧٤.

ويكون القضاء في كل دائرة حسب المذهب الذي تنتمي إليه، والمتقاضى هو الذي يختار الدائرة التي يمثل أمامها، فمثلاً عندما يقدم مدعى دعوى ضد خصمه لدى أحد الدائرتين يستطيع الخصم إذا رأى أن القوانين التي تطبقها تلك الدائرة ليست في صالحه، أن يجبر المدعي على رفع قضيته أمام الدائرة الأخرى^(١).

لقد قامت السلطات الفرنسية بالسيطرة على الدائرة القضائية التي تمثل النموذج الشرعي للولاية التونسية مثلما قامت بالسيطرة على السلطة التشريعية والتنفيذية. وبسيطرتها على القضاء تكون فرنسا قد أحكمت سيطرتها على الدولة التونسية وجعلتها عربية الاسم وفرنسية القوانين مستخدمةً سلطة الباي في الواجهة حتى تكون كل المراسيم والقوانين شرعية أما الحقيقة فإن كل المراسيم والأوامر التي تصدر من الباي كانت في خدمة المصالح الفرنسية. فكيف لا يكون الأمر كذلك إذا كانت فرنسا هي صاحبة القرار في تعيين الباي، وكل من يخالف أمرها كانت حياته إما قتلاً، وإما نفيًا كما حصل مع الباي محمد المنصف. بذل الاستعمار الفرنسي كل إمكانياته لترسيخ نفوذه و عوامل الانحطاط في تونس ليبعد عن هذا الشعب كل أمل في النهضة و ليبقيه في حالة من التخلف و التبعية له، يستهلك كل طاقاته المادية و البشرية فاقضى تحقيق ذلك إرسال حملات عسكرية و هجمات فكرية و روحية عن طريق البعثات التبشيرية للتشكيك بقيم و أصالة الدين الإسلامي مع الإشادة بالغرب و تقدمه وحضارته المدنية.

(١) بو الخضرة: مرجع سابق، ص ٧١-٧٢.

الفصل الثاني

الحياة السياسية في تونس ١٨٨١ - ١٩١٨

الجمعيات والمدارس والأحزاب السياسية في تونس

١- المقاومة في تونس:

١- الكفاح المسلح العسكري.

٢- النضال السياسي السلمي

٢- المؤثرات الداخلية و الخارجية في الحركة الوطنية التونسية

٣- الجمعيات والمدارس والأحزاب السياسية في تونس

١- جامع الزيتونة

٢- المدرسة الصادقية

٣- الجمعية الخلدونية

٤- جماعة الحاضرة

٥- جمعية قداماء الصادقية

٦- حزب تونس الفتاة

شهد القرن السادس عشر تبدلات وتغيرات كبرى، أدت إلى تغير في موازين القوى إذ خرجت أوروبا من التخلف و الجهل و الضعف الذي عاشته قرون عديدة لتصنع ثورتها الصناعية التي اتصفت باستخدام التقنيات العلمية و الآلة الحديثة المتطورة. وبمقابل هذا النهوض كانت الدول العثمانية تتجه نحو الضعف و الانحطاط، إن أتساع الهوة بين أوروبا و الدولة العثمانية والحاجة إلى المواد الأولية دفعت بالأوروبيين إلى البحث عن أسواق لتصريف البضائع، فكانت الولايات العربية هي تلك الأسواق. بدأ التسرب الأوربي إلى البلاد العربية عن طريق الإصلاحات التي فرضتها الدول الأوربية على السلطنة العثمانية، فحملت في مضمونها أثراً ايجابياً وسلبياً.

الأثر السلبي: هذه الإصلاحات كانت إحدى وسائل التدخل بشؤون الولايات العربية، ثم الاحتلال العسكري.

الأثر الايجابي: أدرك العرب عموماً والطبقة الواعية خصوصاً أن الخطر الأوربي أصبح يمس حياة كل عربي، وأن الدولة العثمانية غير قادرة حتى على حماية نفسها وأدركوا مدى التخلف الذي يعيشه المجتمع العربي، وأن العرب أمام خطر كبير هو الغزو الأوربي ومخططه الاستعماري الفكري الذي ظهر في مجال التبشير والتغريب هذا الغزو الهادف إلى الانقضاء على اللغة العربية والإسلام والتاريخ والتراث فكانت أهم أسباب ظهور الحركات الوطنية في البلاد العربية، كمصر وبلاد الشام وتونس.

إن حركة الإصلاحات التي بدأها أحمد باي، والوجود الفرنسي وسياسته الاستعمارية، ثم الامتيازات الأجنبية التي أعطتها الدولة العثمانية. أعطت الفكر التونسي درجة عالية من الثقافة جعلته يدرك أكثر حقيقة الوضع القائم عربياً ودولياً. هذه التأثيرات أحدثت شرخاً في صفحة الفكر العربي وظهرت عدة تيارات مختلفة:

١- الفئة الأولى:

ويغلب على أصحاب هذه الفئة الطابع الإسلامي حيث رأت أنه لا بد من الالتفاف حول المركز بحكم الرابطة الإسلامية وهؤلاء يطالبون بحياة كريمة تقوم على المساواة والمشاركة في الحياة السياسية التونسية، ويمثل هذا التيار علي باش حمبة وأخوه محمد.

٢- الفئة الثانية:

وأفراد هذه الفئة من الفئات المعارضة للاستعمار وكان لهم دور في وجود حركة وطنية تونسية ، وهذه الفئة رأت أنه لا بد من اتحاد المسلمين ليس ضمن الولايات العثمانية وإنما في مشرق الأرض ومغربها، والأخذ بالعلوم العصرية وضرورة تأويل العقل وفهم الشريعة الإسلامية فهماً صحيحاً لتتمكن الأمة الإسلامية من إعادة مجدها القديم أيام الدولة الأموية والعباسية ويمثل هذا التيار الشيخ عبد العزيز الثعالبي.

٣- الفئة الثالثة:

هذه الفئة كانت تستمد ثقافتها من المؤلفات الصادرة في فرنسا ومتأثرين بتأثير كبير بكتب وآراء المستشرقين، والتقدم والحرية والتحديث بالنسبة لهذه الفئة هي الثقافة الفرنسية والغربية بينما يمثل الإسلام والعروبة لهم الماضي وعثرة في سبيل تقدمهم، وقد طرحت هذه الفئة فكرة الأمة التونسية وهي فكرة مقتبسة من كتابات القوميين الأوربيين، كما ركزوا على ضرورة تفسير الإسلام بما يتناسب مع التقدم والتحديث الذي طرحوه كما لم يقوموا بفضح المستعمر و لم يبحثوا المسائل الدينية؟ لكي لا يستفزوا الجماهير التي لا تزال محافظة جداً وبالتالي يمنحوا الفئة المحافظة ذريعة للهجوم عليهم.

ولكن هذه الفئة الثالثة سرعان ما أظهرت سياستها بعد الحرب العالمية الثانية ولعبت دوراً في تاريخ تونس بعد الاستقلال وقد مثل هذه الفئة الحبيب بورقيبة وجماعته الذين رسموا السياسة التونسية استناداً إلى المبادئ الفرنسية ، وحملوا دعوة الفصل بين الدين والسياسة، بين الشريعة والمجتمع، ورسموا مشروع دولة علماني هذا هو التمزق الذي أحدثه النفوذ الغربي في الفكر العربي الإسلامي وذلك عن طريق مؤسساته ومدارسه وإرسالياته فضلاً عن سيطرته على الصحافة والثقافة ومن هذا المنطلق كان هناك تياران، تيار إسلامي وتيار غربي الذي ساد وأسلمت إليه مقاليد الحكم والأمور.

١ - المقاومة في تونس:

قاوم الشعب التونسي الاحتلال الفرنسي منذ اللحظة التي وطأت قدمه الأرض التونسية. فكانت البداية مع العربي زروق^(١) الذي يعد موقفه أول ردة فعل على الاحتلال، وذلك عندما قدم الجنرال الفرنسي (Briar) بريار ومعه القنصل (Rostan) روستان لعرض بنود اتفاقية باردو على الباي وأعطاه مهلة لا تتجاوز عدة ساعات للموافقة. حيث أبدى العربي قمة في المقاومة عندما رفض الاستسلام على الرغم من محاولات بعض المساعدين ورجال الدين تبرير الاستسلام وبأن الشرع ليس لديه مانع من ذلك. بالطبع كان موقف هؤلاء يعبر عن رغبتهم في المحافظة على أملاكهم ومصالحهم.

لكن العربي التفت للباي وقال له^(٢):

« الآن لم يبق وجه لتأخير ما اتفقنا عليه أمس لا بد من انتقال سيدنا إلى تونس. وهنالك يتجمع حولك نحو من ستين ألف مقاتل من أمتك، ويقضي الله بيننا». فكان جواب الباي إشارة حزينة بيده إلى المعسكر المحاصر للقصر فكان جواب العربي: «من هنا تبدأ المعركة».

فقال الباي: ^(٣) «أتريد أن تخضب هذه اللحية بالدم؟»

كان الرد التلقائي من العربي زروق: «يذهب رأس واحد خير من ذهاب رؤوس أمة كاملة». كان هذا الموقف ذروة المواجهة بين العربي زروق والباي المستسلم للفرنسيين حيث قام الباي غاضباً وأنهى الاجتماع ووقع على المعاهدة بسرعة ، وأصدر أمره بعزل العربي زروق من جميع وظائفه فكان مصير العربي أما القتل أو الهرب ففضل الهرب بعد أن أشعل بموقفه راية الجهاد والتجأ إلى القنصلية الانكليزية

^(١) العربي زروق (١٨٣٢-١٩٠٢) كان مديراً للمدرسة الصادقية ورئيساً لبلدية تونس عارض معاهدة باردو

وأول من حمل لواء المقاومة هاجر إلى الشرق خوفاً من بطش الوزير مصطفى بن إسماعيل الموالي لفرنسا. انظر

بنبلغيث : مرجع سابق ، ص ٢١٣

٢- عبد الله ، الطاهر : الحركة الوطنية التونسية ، ط ٣ ، دار المعارف ، تونس ، ص ٢٥

٢- عزيز : مرجع سابق ، ص ٦٤

ومنها تابع طريقة إلى المشرق العربي فاضحاً جرائم المستعمر ورجاله ، وأتهم أولاد حسين بن علي بالخيانة وبيعهم البلاد للفرنسيين فكانت الحرب ضد عدوين الباي والفرنسيين. بعد هذا الموقف من العربي زروق وتوقيع الباي على معاهدة باردو أدرك الشعب أنه أمام واقع لا بد من مواجهته بالمقاومة المسلحة.^(١)

اعتقد الفرنسيون أن احتلال تونس بدون مقاومة قد أشعرهم باستقرار الأمور، لذلك نجد أن القائد بريار قبل رجاء الباي بعدم دخول القوات الفرنسية إلى العاصمة، ومن جهة أخرى أسرع (jol ferry) جول فيري لسحب جزء كبير من قوات الاحتلال. كان فيري يريد إظهار براعته وذكائه أمام المعارضة حيث إن هذا النجاح قد كلف فرنسا القليل من الجنود والنفقات ولاسيما أن البلاد الفرنسية مقبلة على انتخابات نيابية وكان فيري يحاول استرضاء أسر الجنود لكن تقديراته خابت، حيث اندلعت ثورة عامة في البلاد، مما شجع التونسيون على القيام بهذه الثورة عاملين:

- ١- قيام ثورة بو عمامة في الجزائر في جنوب وهران صيف عام ١٨٨١.
 - ٢- إحساس التونسيون بأن القوات العثمانية المرابطة في طرابلس الغرب سوف تقدم لهم الدعم أو على الأقل تقدم لهم المأوى في حال فشلت الثورة.^(٢)
- حاولت قبائل خمير و الشحيحة و عبدون إعاقاة تقدم الجيش الفرنسي ونجحت بذلك إلا أن المقاومة الحقيقة و المنظمة بدأت مع الاجتماع الموسع الذي ضم أغلب القبائل في جامع عقبة بن نافع في القيروان ١٥ حزيران ١٨٨١ برئاسة علي بن خليفة النفاتي^(٣). قررت القبائل مواصلة الكفاح ضد الاستعمار، وضرورة التنسيق مع السلطات في طرابلس، ثم انضمت الأرياف وبعض المدن إلى الثورة، ولاسيما قابس و صفاقس، وقفصه، أما المدن والأرياف الأخرى فقد ساندت الثورة بالرجال و المال. بدأت الثورة

١- عبدالله: مرجع سابق، ص ٢٦

(٢) العقاد. صلاح: المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث والمعاصر، مكتبة الانجلو المصرية (د.ت)، ص ١٩٢ -

في معظم المناطق، في الشمال و قابس و قفصه انزل الثوار الهزائم بقوات الاحتلال، ثم اضطروا إلى الانسحاب بسبب قوة المدافع.^(١)

هذه الثورة أخرجت موقف (jol ferry) جول فيري فهو الذي أراد أن تتم عملية الاحتلال بأقل عدد ممكن من الجند والآن أصبح بين أمرين إما أن يترك الثورة وشأنها مخاطراً بالمكاسب التي حققها، وإما أن يعزز الحملة بقوات كبيرة وهذا يتطلب أموالاً كثيرة قد لا يوافق عليها مجلس النواب. لكن براعته السياسية أخرجته من المأزق حيث قرر قمع الثورة ولكن على مرحلتين.

مرحلة أولية عاجلة: وتهدف إلى إبعاد الثوار عن المنطقة الساحلية التي تقطع عليهم سبيل الاتصال بالخارج ويمكن الاكتفاء بالأسطول الفرنسي لإتمام هذه العملية.

مرحلة ثانية: وتهدف إلى الزحف على الثوار بالداخل، حيث وجه الأسطول الفرنسي ضرباته على ميناء صفاقس وقامت المدرعات الحربية بالهجوم عليه براً ومع ذلك قاوم التونسيون بكل إمكانياتهم التي لا تقاس بالقوة الفرنسية.

وأخيراً اضطر الثوار للجوء إلى الواحات الجنوبية ورحل بعضهم مثل علي بن خليفة وبعضهم الآخر سلم نفسه إلى السلطات ومنذ عام ١٨٨٤ اعتبرت المنطقة الجنوبية لتونس منطقة عسكرية وأقاموا مراكز للقيادة العامة في سوسة^(٢).

ويعود فشل الثورة إلى الأسباب الآتية:

١- بن بلغيث : مرجع سابق ، ص ٢١٨

٢- علي بن خليفة النفاي : من ابرز المجاهدين ضد الاستعمار الفرنسي . ولد في تونس عام ١٨٠٧ وينحدر في نسبه إلى قبيلة بني سليم التي كانت تسكن في الجنوب الشرقي من تونس . تقلد عدة وظائف كعامل على ولاية القيروان صفاقس . اعلن الثورة على الفرنسيين بعد توقيع اتفاقية باردو ، فضم جيشاً بلغ ١٢٠ الف مقاتل من مختلف القبائل . كانت له اتصالات مع الدولة العثمانية ، لكن أملته خاب بالدولة العثمانية التي كانت تعاني الضعف ، استطاعت فرنسا ان تقضي على ثورته و التجأ إلى طرابلس . توفي ١٨٨٥ . انظر بن بلغيث : مرجع سابق : ص ٢١٩ .

٣-العقاد :مرجع سابق ،ص ١٩٤

١- عدم وجود خطة موحدة للمقاومة نتيجة تشتت القيادات فقد حاول علي بن خليفة أن يوحد القيادة في شخصه فاجتمع معه لهذا الغرض مجاهدي صفاقس والقيروان لكن أبي زعيم كل قبيلة إلا أن يتولى الأمر بنفسه فاستطاعت فرنسا أن توقع بهم الواحد تلو الآخر. لاشك أن الطبيعة القبلية والرغبة بالسيطرة كانت وراء عدم اتفاق الزعماء.

٢- حاجة رجال المقاومة للسلاح فقد كانت تعوزهم الأسلحة الحديثة ولم تستطع أسلحتهم القديمة أن تحقق النصر أمام المدفعية الفرنسية وقوة الأسلحة الحديثة والتخطيط والتكتيك الحربي الفرنسي المنظم.

٣- خضوع الباي للمستعمر وخيانتة لشعبه حيث كان يساعد المحتل من خلال رجاله الذين يقدمون معلومات عن مخابئ البلاد وطرقاتها مقابل الذهب الذي أغدقه الفرنسيين لهؤلاء العملاء^(١).

٤- عدم وصول المساعدات للثورة من الخارج حيث الجزائر محتلة من الفرنسيين وليبيا من الشرق كان يتحكم بها الأتراك وهؤلاء لم يحركوا ساكناً على الرغم من تظاهر بعض ضباطهم بالتعاطف مع الثورة، وعلى الرغم من أن الثورة قائمة باسم السلطنة العثمانية ولكن الخوف من فرنسا منعهم من تقديم العون والمساعدة^(٢).

بعد قمع الثورة لم يستكن الشعب التونسي لسياسة المستعمر واستسلام الباي، بل تابع طريق المقاومة بشتى أنواعها فبعد العربي زروق وثورة علي بن خليفة كان الرد التونسي بواسطة أحد شيوخ الزيتونة وهو محمد بن عثمان السنوسي المتأثر بأفكار الشيخ قبادو رائد الإصلاح في بداية القرن التاسع عشر حيث قرر مع مجموعة من

(١) عطا الله الجمل، شوقي: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ط ١، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٧،

ص ٣١١.

(٢) المرزوقي: مرجع سابق ص ١٢٩.

وجهاء البلاد تقديم مجموعة مطالب إلى الباي علي (١٨٨٢-١٩٠٢) الحاكم الشرعي للبلاد، فعندما قابلهم الباي واستمع إلى آرائهم بدأ بالبكاء ووعدهم بتحقيق مطالبهم. وقد تضمنت هذه المطالب مايلي:

١-تعميم الانتخاب البلدي.
٢-إيقاف الأوامر المخالفة لعادات وتقاليد أهل البلاد وبخاصة ما يتعلق منها بدفن الموتى.

٣-ردع شركة ماء العاصمة التي أخذت تفرض على المشتركين فيها قوانين جائرة.
٤-استخدام اللغة العربية في الدوائر الحكومية.
٥-إيقاف عزل الموظفين التونسيين وإحلال الأجانب محلهم^(١).
أدركت سلطات الحماية مدى الخطورة التي قد تتجم عن تحركات زعماء الزيتونة لذلك سارعت إلى اعتقال السنوسي ومعه بعض الوطنيين وأبعدتهم خارج العاصمة، وبعد فترة أصدرت عفواً عنهم وعاد السنوسي إلى العاصمة وعمل في الدوائر الحكومية وهذه من الأمور التي أخذت على السنوسي.

كانت هذه الردود التي تحدثنا عنها سابقاً هي أول ردة فعل للشعب التونسي الذي رفض الاحتلال الفرنسي. بعد القضاء على ثورة علي بن خليفة اتخذت المقاومة شكلاً آخر وهو الكفاح السياسي ويرجع سبب هذا التحول إلى:

- ١- صغر مساحة تونس.
- ٢- تمكن فرنسا من السيطرة على المواقع الاستراتيجية المهمة.
- ٣- خلو تونس من قوى منظمة تعتمد المبدأ القبلي ولا سيما بعد خروج علي بن خليفة ونهاية ثورته.
- ٤- خلو تونس من معاقل وممرات جبلية تساعد الثوار على صنع بطولات فردية مقارنة بطبيعة الجزائر أو المغرب.

(١) السنوسي، محمد بن عثمان: النازلة التونسية، ترجمة محمد الصادق بسيس، تونس ١٩٧٦، ص ٨٩-٩٠

٥- توفر الثقافة العالية التي تشمل قاعدة واسعة من الأهالي وزيادة الوعي المنظم والإصلاحات الحديثة^(١).

٦- هناك سبب آخر لا يقل أهمية حيث إنه من المعروف أن أغلب حركات المقاومة في البلدان العربية عامة والمغرب العربي خاصة يقودها رجال الدين (طرق الصوفية). أما في تونس فعلى الرغم من انتشار الطرق الصوفية إذ يوجد في البلاد التونسية ما يقارب ١٩ طريقة تمثلها ٥٠٠ زاوية ينتمي إليها ما يقارب ٣٠٠.٠٠٠ من الأخوان. ولكن على ما يبدو أن عدداً كبيراً من أصحاب الطرق الصوفية كانوا على علاقة مع المستعمر، وسهلوا له الطريق بالدخول إلى البلاد التونسية، وهناك قسم آخر قليل العدد قاوم الاستعمار الفرنسي. لكن بسبب ضعف الإمكانيات والعتاد لم يستطع المتابعة والقتال. فمثلاً سيدي قدور شيخ طريقة القادرية بمدينة الكاف سلم البلاد إلى الفرنسيين وكان على اتصال وثيق مع القنصل الفرنسي. ثم كان الشيخ محمد بن شعبان شيخ مشايخ القادرية وإمام جامع باردو ضمن الذين نسقوا مع الفرنسيين ورحب بهم عند دخولهم إلى تونس ولم يكتفِ الأمر بهؤلاء فقد بذل الشايبون أتباع الطريقة الشاذلية جهوداً لاستتباب الأمن وسلموا المناوئين لفرنسا.

كما قام عمران بن عبد السلام الفيتوري مقدم الطريقة السلامية عند فرار العربان إلى طرابلس الغرب إلى إرجاعهم. أما المنوبي العمراني شيخ زاوية الطريقة التيجانية^(٢) ببوعرادة فقد استقبل الجيش الفرنسي وأوصى القبائل بالامتثال لأوامر فرنسا^(٣).

(١) عامر، تاريخ المغرب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص ١٠٣-١٠٤.

٢- الطريقة القادرية : تسمى بالجيلانية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المولود بالعراق عام ١٠٧٧ عاش حياة العلماء ولم يلبس لبس المتصوفين ، وقد اتسمت طريقته بالطابع الخلقي في تربية التلاميذ وإيصالهم إلى تجريد التوحيد والحضور في موقف العبودية ، وكان يلبسون الزئ الأخضر و العمامة بيضاء . انظر علي عامر ، محمود : تاريخ

الدولة العثمانية ، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٧ ، ص ١٦٣

- الطريقة السلامية : هي فرع من فروع الطريقة الرفاعية و كانت تسمى بالبيت الكبير ، اسس الرفاعية الشيخ احمد

الرفاعي عام ١١٨٢ في منطقة البصرة و واسط . انظر عامر : مرجع سابق ، ص ١٦٧

هذه بعض الأمثلة عن موقف البعض من رجال الطرق الصوفية الذين تساهلوا كثيراً مع المستعمر الفرنسي وبالطبع لم تتبع كل الطرق نفس الأسلوب، ولم تأخذ الدور الذي اتخذته الصوفية في ليبيا والجزائر بسبب الواقع الاجتماعي والعلمي للشعب التونسي.

على الرغم من كل هذه الأسباب فإن المقاومة استمرت ولم تستطع القوات الفرنسية من قتل روح المقاومة لدى الشعب التونسي، فاستلمت الطبقة المثقفة زمام الأمور لقيادة حركات التحرر وتخليص بلادهم من براثن المستعمر وهذا أكسب تونس ميزة مهمة، فنظم المثقفون أنفسهم في جمعيات وأحزاب من أجل التشاور والتعاون والتنسيق للوصول إلى أهدافهم. متأثرين بما يحدث في البلدان العربية والإسلامية ، لذلك سوف تكون هذه الجمعيات والمدارس والأحزاب موضوع الدراسة في الفصل الثاني

٢ - أهم المؤثرات التي أثرت في الحركة الوطنية التونسية:

١ - المؤثرات الداخلية:

أ - الوضع الداخلي في البلاد: كونها خضعت للحماية الفرنسية عام ١٨٨١ ومنذ ذلك التاريخ أصبحت تونس محمية فرنسية يطبق عليها كل القوانين الفرنسية. يقف على رأس الإدارة المقيم العام الحاكم الفعلي للبلاد وإن كان الباي مايزال هو الحاكم ولكن بشكل صوري، إضافة إلى وقوع كل المؤسسات تحت سيطرة موظفين فرنسيين.

الطريقة الشاذلية : تنسب إلى الشيخ احمد بن مخلوف ، نشأ في بلدة الشاذلية ثم انتقل إلى تونس ، خلفه بالمشيخة ابنه محمد الكبير الذي حاول تأسيس دولة تشبه دولة المرابطين لكنه فشل ، ثم طاردهم الأتراك في كل انحاء البلاد. انظر عامر : مرجع سابق ، ص ١٧٥ .

الطريقة التيجانية : تنتسب إلى الشيخ ابو العباس بن محمد الشريف الحسن التيجاني العلوي . تلقى التعليم عند الصوفيين ، ثم زار عدة مدن عربية وإسلامية ، طريقته متأثرة بابن عربي ، أي أنها تقوم على فكرة وحدة الوجود و الاعتقاد بالحقيقة المحمدية . انظر عامر : مرجع سابق ، ص ١٧٥ .

(٢) العجيلي،: مرجع سابق ، من ١١٥ إلى ١١٩ .

ومن الناحية الاقتصادية: سيطر الفرنسيون على الأراضي الزراعية التي كانت بحوزة الفلاحين ،وأراضي الأوقاف ، وأراضي البور وأعطوها للمعمرين الفرنسيين، كما أغرقوا الأسواق التونسية بالبضائع الفرنسية وفرضوا الضرائب الباهظة على الصادرات التونسية.

من الناحية الثقافية: شجعت الإدارة الفرنسية على تعليم اللغة الفرنسية لتحل محل اللغة الأم لذلك حاولت السيطرة على المؤسسات التعليمية مثل جامع الزيتونة لتسييس هذه المؤسسة وتجعل منها مؤسسة تخدم مصالحها واشترطت على كل إنسان يريد الدخول إلى أي قطاع أن يتقن اللغة الفرنسية.

أما من الناحية الاجتماعية: حاولت الإدارة بكل جهودها إلى تحقيق أمرين في غاية الخطورة هما سياسة التجنيس وإعطاء الجنسية الفرنسية لزيادة عدد الجالية الفرنسية في تونس وسياسة التنصير من خلال المؤتمر الأفخارستي الذي عقد في تونس عام ١٩٣١ بمناسبة مرور خمسين عاماً على احتلال فرنسا لتونس. لقد كان الاستعمار الفرنسي من أهم أسباب ظهور الحركة الوطنية في تونس نتيجة للسياسة التي اتبعتها بحق التونسيين وحرمانهم من كل حقوقهم حتى أن المواطن التونسي أحس وكأنه غريب عن بلده والمستوطن هو صاحب الحق في هذه البلد، لذلك انتفض رجال الحركة الوطنية للدفاع عن حقوقهم.

هذه السياسة الاستعمارية قامت على سلب الشعب التونسي كل شيء فوجد نفسه يعاني الجوع و الفقر والتشرد و لكن هذا الوضع أسهم في تطور الحركة الوطنية التونسية، فالمعروف أن المشردين والجائعين والمحرومين والمضطهدين كانوا في هذه الحالة يتوجهون إلى المدن لعلهم يجدون لقمة العيش أو مكاناً آمناً فهي بنظرهم آخر مكان يلجؤون إليه وبالتالي وجد هؤلاء في الطبقة المثقفة سنداً وداعماً لهم فالتف التونسيين حول بعضهم البعض.

ب -مقومات الشعب التونسي:

وحدة اللغة: كون اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة كل التونسيين.

وحدة الدين: الإسلام هو دين أغلب سكان المغرب العربي فعندما بدأ الاستعمار على تونس شعر الشعب إن حماية دينه و بلده يتطلب منه مواجهة الاستعمار بكل ثقله

هذا من جهة. ومن جهة أخرى إن الدين أثر في هذه المنطقة حيث قامت دول على أساس ديني مثل دولة الأدارسة والمرابطين والموحدين والفاطميين. هذه المقومات ليست خاصة بالشعب التونسي فقط، بل هي خصائص تميز بها كل الشعب العربي وجمعه في صف واحد فكانت ثورة سلطان باشا الأطرش في سوريا، وثورة سعد زغلول في مصر وثورات أخرى في مشرق الوطن العربي ومغربه.

هذه المؤثرات الداخلية كانت كفيلة بظهور الكفاح بنوعيه المسلح والسياسي، وظهر رجال دافعوا عن تونس وعروبتها. هذه المؤثرات الداخلية تراكمت مع تطورات عربية ودولية أعطت الحركة الوطنية دفعا قويا في سير حركتها إلى الأمام حتى حققت الاستقلال التام عام ١٩٥٦، لذلك لا بد من الإشارة إلى أهم العوامل الخارجية التي أثرت في سير الحركة الوطنية.

المؤثرات الخارجية في الحركة الوطنية:

أ - مطالب الزعماء الليبيين لحكومة الاستعمار الإيطالي: بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وفي عام ١٩١٨ قامت مجموعة من الزعماء، وفي مقدمتهم سليمان الباروني^(١)، ورمضان السويحلي^(٢)، وعبد النبي بالخير^(٣) بتشكيل جمهورية طرابلس ودعوا الحكومة الإيطالية إلى احترام هذه الحكومة، وعلى الرغم من معارضة الحكومة

(١) سليمان الباروني: ١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م من مواليد ليبيا وأحد زعماء الحركة الوطنية الليبية، حارب العثمانيون

والإيطاليون، كان عضواً في مجلس المبعوثان العثماني وأسس في مصر مطبعة الإزهار البارونية، توفي في سلطنة عمان

١٩٢٤. انظر الزاوي، الطاهر أحمد: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، دار الفتح، بيروت ١٩٧٠، ص ٢٧

(٢) رمضان السويحلي: ١٢٩٧هـ - ١٨٧٩م من زعماء الجهاد الليبي ضد الإيطاليين وأحياناً يسمى رمضان أحمد

الشتوي وينتمي إلى عشيرة السواحلية، توفي إثر معركة ارفلة ١٩٢٠ فبعد القائد جرزباني عن وفاته بقوله: «من

حظنا ذلك فهو يمتلك صفات القائد المقدم». انظر الزاوي: مرجع سابق، ص ٢٨

(٣) عبد النبي بالخير: أحد زعماء الحركة الوطنية الليبية ولد عام ١٨٦٠. قاوم الاستعمار الإيطالي طوال حياته، تنقل

بين مصر وتونس وفرنسا ونظراً لدوره في الكفاح الوطني. ضيقت إيطاليا الحناق عليه حتى وفاته في ليبيا. انظر

الزاوي: مرجع سابق، ص ٣١

الإيطالية ومحاولتها عرقلة هذه الجهود وتشديد الخناق إلا أن خطتهم باءت بالفشل
وقدم الزعماء مطالبهم تحت عنوان:

«مواد دستورية يعرضها مجلس الجمهورية الطرابلسية لتأسيس إمارة حرة بطرابلس
الغرب تحت إشراف الحكومة الإيطالية على أن تكون الشريعة الغراء قانونها
الأساسي».

لقد كانت هذه المطالب معتدلة للغاية فقد طالبوا بتنصيب أمير مسلم على الإمارة
المراد إقامتها، وتأسيس برلمان يكون ثلاث أرباع أعضائه من المسلمين والربع الباقي
من الطليان واليهود، وتأليف جيش وطني من خمسة آلاف جندي تكون الخدمة فيه
إجبارية وصك عملة عربية ووضع علم وطني للإمارة وتأسيس محاكم مختلطة بين
العرب والطيالان.

في مقابل هذه المطالب الليبية يتم وضع الإمارة المراد إنشاؤها تحت رعاية
الحكومة الإيطالية وقبول إشراف قنصل على شؤونها وسياستها وقبول إنشاء مراكز
عسكرية إيطالية في البلاد، وأن يقوم رجال السلك الدبلوماسي الإيطالية بتمثيل الإمارة
في الخارج ويشرف إيطاليون على إدارات المالية والجمارك والمعارف والعدل والمحافظة
على مصالح الطليان. و مقابل كل التنازلات من قبل الزعماء الطرابلسيين فإنهم ركزوا
على ضرورة المساواة بين الإيطاليين والليبيين في المعاملة^(١).

ب- التأثير بالعلماء والطلاب المهاجرين الجزائريين في تونس: لم يكن هناك حاجز
بين تونس والجزائر، فكان الانتقال من بلد إلى آخر يتم بدون حواجز، و ذلك بحكم
تقارب الشعبين، وبقي الأمر كذلك حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠، حيث
أرادت فرنسا أن تضع الحواجز بين البلدين من أجل إبعاده عن إخوانه في تونس
وحرمانه من كل تبادل علمي وسياسي واقتصادي، وتجريده من مقوماته التي تمكنه من
مناهضة الوضع السائد، ولكن إرادة الشعوب لا تقهر، حيث إن الظروف السيئة التي

(١) رمضان، عبد العزيز: الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة، دار المعارف، مصر، ١٩٨٥،

عاشها الجزائريون والسياسة السيئة التي اتبعها المستعمر في الجزائر دفع بعلمائها وطلبتها إلى التوجه لتونس لإكمال مسيرة النضال والكفاح ضد فرنسا، فكانت رحلة عبد الحميد بن باديس من أهم الرحلات التي توجهت إلى تونس عام ١٩٠٨، لقد قام المهاجرون الجزائريون بنشاط كبير من خلال أفكارهم وآرائهم ومؤازرتهم للحركة الوطنية التونسية قاصدين تحقيق:

١- مقاومة الاستعمار الفرنسي في إطار حركة وطنية معترف بها من قبل سلطات الاستعمار وتكون جبهة ضاغطة على المستعمر.

٢- تحويل الحركة الوطنية إلى حركة قومية تدعو إلى تحرير الشمال الإفريقي من خلال توحيد الجهود الجزائرية والتونسية ولا بد من ذكر أهم الزعماء الجزائريين الذين برزوا على الساحة التونسية، فنذكر أحمد توفيق المدني أحد أعضاء الحزب الدستوري، وعبد الرحمن اليعلوي، وصالح بن عيسى، ولا ننسى زعيم الحزب الدستوري وأحد أبرز زعماء الحركة الوطنية التونسية طوال القرن العشرين عبد العزيز الثعالبي، ولم يقتصر دور الجزائريين على الدخول إلى الأحزاب السياسية بل قام الجزائريون بالتبرع بالمال للحزب الدستوري كلما أُلتمت به أزمة وخاصة التجار^(١).

ج - التأثير بالأحداث الموجودة في مصر: ولا سيما مع بداية القرن العشرين ١٩٠٧ عندما استطاع أحد الشبان المصريين ألا وهو مصطفى كامل^(٢) من تأسيس الحزب الوطني عندما عاد كامل من أوروبا.

لقد خطب مصطفى كامل بالإسكندرية في ٢٢ تشرين الأول بالشعب وأعلن قيام الحزب الوطني وأن هدفه هو تحقيق جلاء القوات البريطانية عن مصر، وأن الحزب

(١) الجابري، محمد صالح: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، ط ١، دار الغرب، بيروت ١٩٩٠، ص ٣.

(٢) مصطفى كامل / ١٨٧٤-١٩٠٨ / زعيم وطني مصري ولد في ١٤ آب ١٨٧٤ بحي الصليبية بالقاهرة من أب مهندس، توفي والده ١٨٧٦ فكفله أخوه حسين، ثم التحق بكلية الحقوق، بدأ نشاطه الصحفي منذ عام ١٨٩٥ حيث انصرف للحركة الوطنية ومطالبة الإنكليز بالجللاء، سافر إلى أوربا للدفاع عن بلاده فكتب في جريدة الأهرام والمؤيد، أصدر جريدة اللواء ١٩٠٠ باللغة العربية ثم جريدة اللواء ١٩٠٦ باللغتين الإنكليزية والفرنسية. انظر

عطية: مرجع سابق، ص ٤١٢

سيعتمد في عمله على الإقناع لا على الثورة ولا التعصب ولا القوى الأجنبية: (إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطني مستقل عن كل الدول، والحكومات، والملوك، والأمراء. . . إن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها. .^(١) لقد حاول مصطفى كامل أن يستفيد من عداة فرنسا لإنكلترا فتقرب من الفرنسيين، وزار فرنسا لكسب حليف يساعده في تحقيق استقلال مصر، ووجه نداء لألمانيا عندما زار برلين ١٩٠٥، وألقى فيه خطاباً ناشد فيه الشعب الألماني أن يتبنى قضية حرية مصر.

لابد أن التعاون مع أعداء إنكلترا يعود بالدرجة الأولى إلى عدم وجود ثقة بالمندوب البريطاني كرومر^(٢) وحكومته التي ظهرت أطماعها الواضحة في مصر فتجلى ذلك واضحاً بخطاب مصطفى كامل إلى كرومر: ^(٣) «يفأخرنا الإنكليز بأنهم أغنوا البلاد وملئوها ذهباً فما قيمة الثروة التي يفأخرون بها بجانب الحرية الشخصية والحرية العمومية وسيادة المصري في بلاده واستقلاله في وطنه، هل يستطيع الإنكليز أن يدعوا أنهم نشروا المعارف بين الفلاحين وهم الذين

(١) ادوارد جولد سميث، آرثر: الحزب الوطني المصري، ترجمة فؤاد دواره، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣، ص ١٣١.

(٢) كرومر (١٨٤١-١٩١٧) هو ايفلن بازنج سياسي بريطاني معتمد بمصر من ١٨٨٣-١٩٠٧ ولد عام ١٨٤١ لأسرة تعمل في التجارة والمال، اشتغل ضابطاً بالجيش البريطاني في ١٨٥٨ وعمل أميناً خاصاً لحاكم الهند الإنكليزي من ١٨٧٢-١٨٧٦، جاء إلى مصر مندوباً لصندوق الدين الذي يضمن حقوق الدائنين الأوروبيين الذي أعطوا أموالاً إلى مصر، ثم عمل وزيراً لمالية الهند من ١٨٨٠-١٨٨٣ ثم عاد إلى مصر بعد الاحتلال حيث عمل قنصلاً عاماً وصار الحاكم الفعلي لمصر حتى عام ١٩٠٧ حيث تركها بناء على رغبة الإدارة في بريطانية، له كتاب (مصر الحديثة) وهو كتاب مؤلف من جزئين ١٩٠٨، وكتاب (عباس الثاني) عام ١٩١٥. انظر عطية: مرجع سابق، ص ٣٦٧

(٣) حسين، أحمد: موسوعة تاريخ مصر، ج٣، دار الشعب للنشر، القاهرة (د.ن) ص ١٢٦.

سدوا أبواب المدارس في وجوههم». لقد كشف مصطفى كامل حقيقة المستعمر أمام الناس فكانت مواقفه أحد أسباب قيام إنكلترا بسحب كرومر من مصر عام ١٩٠٨ إن الإرادة الشعبية المصرية أعطت الثقة ليس للمصريين بل أثرت في المحيط العربي وعلمته أن إرادة الشعب لا تقهر. لاشك أن حزب تونس الفتاة تأثر كثيراً بالحزب الوطني المصري.

د - ولم يكن تأثير المغرب أو مصر فقط هو المغذي للحركة الوطنية حيث ظهرت بوادر النهضة والوعي بشكل أقوى من بلاد الشام وعلى يد الأمير شكيب أرسلان^(١) الذي بقي طيلة ثمانية عشرة عام من مكتبه بجنيف يبيت دعواته لوحدة أبناء العرب في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقوى صلاته مع الأوربيين وزعمائهم من جهة، وزعماء العرب من جهة أخرى لحل مشاكل العرب فكان يرسل الرسائل لحل الخلافات والمشاكل بين الأحزاب وتوجيه الطاقات العربية والمغربية بشكل خاص، ولا سيما أنه يرتبط بعلاقات وثيقة مع زعماء مغاربة أمثال مساعده ببرلين محمد باش حمبة المبعد من تونس والشيخ عبد العزيز الثعالبي، لقد كان ينادي بأعلى صوته أن تونس والجزائر والمغرب الأقصى أجزاء من المجتمع الإسلامي الذي تربطهم به وحدة الدين واللغة والثقافة^(٢).

لقد تأثر رجال الحركة الوطنية التونسية تأثراً كبيراً بشكيب أرسلان حيث يذكر جوليان تأييداً لذلك:

(١) شكيب أرسلان: ولد بالشويفات جنوبي بيروت ١٨٧٦/١٢/٢٥ تلقى تعليمه في مدرسة الحكمة ثم بالمدرسة السلطانية، سافر إلى مصر والآستانة عام ١٨٩٤ حضر دروس الأفغاني عن الوحدة الإسلامية، فوقف على حقيقة المخططات الاستعمارية الرامية إلى تفتيت العالم الإسلامي، انتخب عام ١٩٠٩ نائباً عن منطقة حوران بمجلس المبعوثان وساهم في أحداث طرابلس الغرب، عرف بمناوئته للمؤتمر العربي الأول فاتهم بتواطئه مع الأتراك ويعد من أبرز دعاة الوحدة الإسلامية، توفي عام ١٩٤٦. انظر الشنوفي: مرجع سابق، ص ٩٥

(٢) اندريه جوليان، شارل. إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر تونس ١٩٧٦،

«ومن مناهل فكره الذي لا ينضب كرعته الحركة الوطنية المغربية التي كان غالب زعمائها قد تكونوا عنه أو استلهموا منه فتوثقت علاقاته مع زعماء الحركة الدستورية في تونس أمثال عبد العزيز الثعالبي».^(١)

لقد كان الأمير شكيب أرسلان من أهم الشخصيات التي أثرت ليس بالحركة الوطنية التونسية بل في باقي الحركات المغربية من خلال طرحه لمشروع يتمناه المغاربة حتى اليوم ألا وهو مشروع اتحاد بلدان المغرب العربي، فنبه إلى أن بلدان المغرب عبارة عن شعب واحد يجمعه اللغة والتاريخ ويخضع لمستعمر واحد، وبالتالي يجب التنسيق والتعاون بين الأحزاب والحركات السياسية لتحقيق أهدافها، وسنجد فيما بعد أي عام ١٩٤٥ وما بعد عندما تم التعاون والتنسيق حصلت الدول المغربية على استقلالها.

هـ - التأثير بالحركة الإصلاحية في الوطن العربي: لقد تجلّى تأثير الحركة الوطنية في تونس بالحركات الإصلاحية التي ظهرت في الوطن العربي، ولا سيما الشيخ محمد عبده وزيارته إلى تونس، ثم تلميذه الشيخ رشيد رضا من بعده، لقد قام الشيخ محمد عبده بصفته زعيم الإصلاح الديني والاجتماعي في البلاد الإسلامية برحلات قصيرة إلى العديد من البلدان الإسلامية فزار تونس مرتين عام ١٨٨٤ و ١٩٠٣، لقد كان منهجه يقوم على أن إصلاح الأمة الإسلامية لا يكون إلا عن طريق التعليم والتربية أولاً ثم السياسة ثانياً. لقد كان تأثير الشيخ عبده كبيراً بالزعماء التونسيين لذلك انضم الكثير منهم إلى جمعية العروة الوثقى وفي مقدمتهم محمد السنوسي، ومحمد بيزم، والشيخ عبد العزيز الثعالبي، والبشير صفر.

لقد انتشرت آراء عبده بشكل كبير في نفوس التونسيين حيث أدركوا بفضل نصائحه أن لا سبيل لهدم التأخر إلا باسترجاع ما أضاعه المسلمون، وما اقتبسوه عن الغرب هو سر عظمتهم وعزتهم أي العلوم الحكيمة والرياضية، فلا نهضة للإسلام

(١) الحسناوي، ضاهر: شكيب أرسلان ودوره السياسي الخفي، ط ١، دار رياض الريس للنشر، بغداد ٢٠٠٤،

والمسلمين إلا باستعادة هذه العلوم^(١). لا شك أن لآراء الشيخ عبده أثراً كبيراً، وتجلى ذلك بتبني أفكاره من قبل السنوسي وغيره

ولم يقتصر هذا الأثر على زيارة الإمام إلى تونس عام ١٩٠٣ فقد استمر أثره الإصلاحى ولكن على يد تلميذه رشيد رضا الذي رافق الإمام أثناء زيارته الثانية وألقى محاضرة شهيرة على المنبر الخلدوني بعنوان «العلم وطرق التعلم» حيث استطاع بعد ذلك أن يقوي الصلة بينه وبين النخبة التونسية ولا سيما مشايخ الزيتونة المفتحين للإصلاح.

لقد تأثر التونسيون بالشيخ رضا وجريدته المنار حتى أن العدد الواحد في جريدته كان يتداوله الناس عشرات المرات و رغم أن الشيخ قد اضطر في بداية الأمر أن يساير سلطات الحماية إلا أنه كثيراً ما كان يدعو سلطات الحماية في تونس والجزائر إلى الرفق واللين، ومن ثم غير موقفه عندما زادت سلطات الحماية من قبضتها على التونسيين و وفاة سيده محمد عبده فشن حرباً على الاستعمارين الإنكليزي والفرنسي، وخاصة عند البدء بسياسة التجنيس ودفن المسلمين التونسيين المجنسين في المقابر الإسلامية، نتيجة تعلق التونسيين بالمنار أنشؤوا مجلة على غرارها سميت بمجلة الزيتونة عام ١٩٣٦.^(٢)

و- حركة الجامعة الإسلامية: نتيجة الثورة الصناعية التي عرفتها أوروبا، ظهرت الحاجة إلى إيجاد أسواق لتصريف البضائع وتكون منبعاً للمواد الأولية، فاتجهت أوروبا إلى الدول التي تخدم مصالحها فكانت الولايات العربية الواقعة تحت سيطرة العثمانيين هي الهدف المقصود لذلك بدأت الحملات الاستعمارية على الوطن العربي التي استهدفت هذا العالم من خلال الامتيازات التجارية والبعثات التبشيرية، ثم الإصلاحات فكانت حملة نابليون على مصر واحتلال فرنسا للجزائر وتونس واحتلال إنكلترا لمصر والخطر الروسي بدأ يدق أبواب العاصمة. إن خطورة هذا الوضع ودقته دفعت

(١) الشنوفي، المنصف: حوليات الجامعة التونسية، العدد ٣، تونس ١٩٦٦، ص ٧١-٧٢.

(٢) صالح المراكشي، محمد: قراءات في الفكر العربي الحديث، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٩٢، ص ١٠٤.

المسلمين البحث في تراثهم عن أسباب تخلفهم الحضاري وجمودهم الفكري في محاولة لتحقيق النهضة السريعة التي تكفل لم الشمل وسد الثغرات، فكانت هذه النهضة نهضة إصلاحية أساسها الدين الإسلامي ضمن إطار الجامعة الإسلامية، لقد كانت دعوة الجامعة الإسلامية تهدف إلى إعادة وحدة المسلمين التي كانوا عليها في بداية الإسلام، فوجد المسلمون في هذه الأخطار حقيقةً راسخةً بأن الإسلام في خطر، الأمر الذي زاد في نفقتهم على الغرب الاستعماري وعدائهم له وحتم عليهم التحرك من أجل تحولهم إلى قوة لها وزنها، ومن شأنها أن تقوم بصد الأعداء.^(١)

لقد كانت حركة الجامعة الإسلامية من ضمن السياسات التي تبنتها الدولة العثمانية للوقوف في وجه الأطماع الغربية العلنية و الواضحة بالولايات العثمانية ولاسيما البعيدة عن المركز؛ كونها تتمتع باستقلال نسبي عن العاصمة. وليس الهدف رغبة الدولة العثمانية جمع المسلمين تحت راية واحدة. إن حركة الجامعة الإسلامية وجدت لهدف سياسي وليس لهدف ديني

هذه التغيرات و الأحداث العربية أثرت كثيراً بالطبقة الواعية لمستقبل بلدها و المدركة لحجم الأخطار؛ لذلك ظهر النضال السياسي السلمي المتمثل بالجمعيات و المدارس و الأحزاب

(١) العجيلي، التليي: صدئ حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي، ط١، دار الجنوب للنشر، تونس ٢٠٠٥،

٣ - الجمعيات والمدارس والأحزاب:

١ - جامع الزيتونة:

من أهم وأقدم المراكز الدينية العلمية في العالم الإسلامي. فإذا كان جامع بني أمية في دمشق والجامع الأزهر في مصر منارة العالم في المشرق، فإن الزيتونة لا يقل عنهما أهمية في المغرب العربي حيث أسهم أسهاماً كبيراً في نشر الوعي الوطني و القومي. أما تاريخ بناء هذا الجامع: فقد اختلفت المؤرخون والباحثون حول بناءه.

الرأي الأول: فقد جزم أصحابه بأن من بناءه حسان بن النعمان البكري أيام عبد الملك بن مروان عام ٧٩ هـ - ٦٩٨ م.

الرأي الثاني: فقد كان رأي أصحابه أن الجامع من بناء والي هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب عام ١١٤ هـ - ٧٣٣ م.

الرأي الثالث: كان رأي أصحابه أن الجامع من بناء حسان بن النعمان وأن من قام بتوسيعه وأهتم به أكثر عبيد الله بن الحبحاب.

أما الرأي الأول:

فيذكر الدكتور إحسان حقي أنه في أواخر القرن الأول الهجري اختط أمير أفريقيا حسان بن النعمان مدينة تونس وبنى مسجدها الجامع على رابية وسط المدينة وقد عرف هذا المسجد باسم جامع الزيتونة^(١). و تذكر الدكتورة زاهية قدوره بأن حسان بن النعمان هو من بنى هذا الجامع ويعتبر من أهم مراكز الثقافة الإسلامية^(٢).

أما الرأي الثاني:

فقد وجد عدة مؤرخين وباحثين تبناوا فكرة بناء الجامع من قبل والي هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب عام ١١٤ هـ - ٧٣٣ م

(١) حقي: مرجع سابق، ص ٢٠٢

(٢) قدوره، زاهية: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٥، ص ٤٥٢.

ذكر محمد بن عثمان الحشائشي أن بناء الجامع يعود إلى الأمير عبيد الله بن الحبحاب عام ١١٤ هـ - ٧٣٣ م^(١).

ونسب الدكتور عبد العزيز سالم بناء جامع الزيتونة إلى الأمير عبيد الله بن الحبحاب عام ١١٤ هـ^(٢).

وأخيراً نجد الطاهر حداد يرجع بناء هذا الجامع إلى عام ١١٤ هـ^(٣).

أما الرأي الثالث:

فقد ذكر أن بناء الجامع كان على يد الشيخ الأمين حسان بن النعمان البكري عام ٧٩ هـ ولكن تم توسيعه بشكل كبير أيام عبيد الله بن الحبحاب ومنهم. أبو المهاجر دينار حيث ذكر أن بناء الجامع كان عام ٧٩ هـ وأن عبيد الله زاد في بناءه عام ١١٤ هـ.^(٤)

بعد دراسة هذا الآراء يبدو الرأي الثالث هو الأصح للأسباب الآتية:

١- أن المسلمين ولاسيما في أول فتوحاتهم كانوا لا يحلون بمكان ألا وكان بناء الجامع هو أول شيء يفكرون في بنائه من أجل إقامة الصلاة وإقامة الصلاة من الأمور المفروضة عليهم حتى وقت الحرب وبالتالي هم بحاجة إلى مسجد لإقامتها وهذا ما فعله حسان بن النعمان البكري.

٣- حب الاقتداء بالنبي (ص) فعندما هاجر الرسول (ص) من مكة إلى المدينة كان أول ما قام به هو تخطيطه لمسجد قباء ليجمع الناس للصلاة في المدينة.

(١) الحشائشي، محمد بن عثمان: تاريخ جامع الزيتونة، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، ط ٢، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله تونس (د.ت)، ص ٢١.

(٢) سالم، عبد العزيز: المغرب الكبير، ج ٢، دار النهضة بيروت ١٩٨١، ص ٤٣٦.

(٣) الحداد، الطاهر: التعليم الإسلامي وروح الإصلاح، تقديم وتحقيق محمد أنور بو سنية، الدار التونسية للنشر، ١٩٨١، ص ١٥.

(٤) الرعيني القيروني، محمد بن أبي القاسم: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط ١، مطبعة الدولة التونسية، ص ٣. وهذا المؤلف معروف باسم المهاجر بن أبي دينار .

أما عبيد الله فإن الأغلب قام بتوسيعه وترميمه وكما كان هناك اختلاف في تاريخ بناء هذا المسجد. كان أيضاً الاختلاف في التسمية

تسمية مسجد الزيتونة:

منهم من قال: إنه بني في موقع كانت فيه زيتونة. وهناك رأي يقول أنه سمي باسم قديسة فندالية اسمها (olive) أوليف تعني الزيتون.

وفي بعض الروايات: أن العرب المسلمين اختاروا هذا الاسم ليجعلوا من زيتونهم هذه نوراً يضيء الشمال الإفريقي^(١) لقوله تعالى: "الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نارٌ نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم"^(٢).

فالرواية الأقرب إلى الصح:

هو أن العرب المسلمين عندما وصلوا إلى تلك المنطقة وأرادوا بناء مسجد فكان القصد من هذا المسجد هو إقامة الصلاة أولاً ثم من أجل أن يكون محطة لتزويد الديار بالنور الإسلامي المشع، وليكون مركز إشعاع ديني وحضاري يسطع على كل إفريقيا أولاً ثم الشعوب التي تجاورهم ثانياً مستشهدين بالآية القرآنية السابقة. كان المسجد في البداية مكان للعبادة ثم أدخلت إليه وظيفة التعليم مثله مثل باقي المساجد في المشرق كالأموي في دمشق والأزهر في مصر، فيدرس في ذلك المعهد الزيتوني التفسير والحديث، والتوحيد، والنحو، والقراءات، والفقه، والأصول، وآداب، والشريعة وبعض دروس التاريخ والجغرافية، ويتولى إدارة المعهد أربعة من الشيوخ وهم رئيس

(١) حقي. مرجع سابق ٢٠٢-٢٠٤.

(٢) القرآن الكريم: سورة النور، الآية ٣٥.

الإفتاء الحنفي ورئيس الإفتاء المالكي، والقاضي الحنفي، والقاضي المالكي ويسمى هؤلاء « المشايخ النظار »^(١).

تطور المسجد بعد بناءه من حيث المساحة ومن حيث التعليم ولعل أبرز تغير طرأ عليه كان في العصر الحفصي عندما تحول هذا المسجد إلى جامعة حقيقية في القرن الثالث عشر ميلادي وذلك عندما قام أبو زكريا الأول بجلب الأساتذة من الأندلس وصقلية لتدريس الفقه، واللغة، والتاريخ، والفلسفة والرياضيات والطب ولكن هذا التطور لم يستمر فانتهى بموت أبي زكريا و سرعان ما اقتصر التدريس فيه على العلوم الدينية واللغوية ونشر الثقافة الإسلامية وإعداد المعلمين والوعاظ والقضاة. أي أنه عاد إلى مهمته الأساسية وهي الحفاظ على العلوم الدينية وإعداد العلماء والمرشدين^(٢).

تعرض جامع الزيتونة للكوارث البشرية أخطرها أثناء الغزو الاسباني لتونس حيث مزقوا الخزائن المليئة بالكتب النفيسة، وإن نجت بعضها فتباع بأبخس الأسعار أو تدوسها حوافر الخيول. فقد ذكر بعض المؤرخين أن المار حول الجامع من جميع الجهات لا تكاد تقع قدمه على غير الكتب فبادت جميع الكتب وتلاشت ولم يبق منها بالجامع إلا بضع نسخ من صحيح الإمام البخاري وأمسى العلم بتونس كالشمس عند المغيب ومما زاد الأمور سوءاً تعاقب الأوبئة في ذلك العهد ومنها وباء عام ١١٠٠م حتى وصف أحدهم إن العلم انقطع من تونس بذلك الفناء المتعاقب إضافة إلى السرقة والخراب أثناء الفتن، والاضطرابات ولم يرى النور إلا مع البيت الحسيني حيث توجهت عناية حسين بن علي مؤسس الأسرة الحسينية إلى بناء المدارس ونسخ الكتب والفقه واجتهد في ذلك حتى وصل إلى مرحلة متطورة ولعل أبرز تطور أدخل عليه أثناء ولاية المشير أحمد باشا الذي اهتم بالعلم وعمر الخزائن بالكتب والمخطوطات بدقة وقد وصف المؤرخ الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضياف هذا العمل «يا له من عمل ذات صعاب العلوم وراضها وأنشأ حدائقها ورياضها وأجرى جداولها

(١) الخضر حسين، محمد: تونس وجامع الزيتونة. تحقيق علي الرضا التونسي، تونس ١٣٩١هـ - ١٩٧١.

(٢) قدورة. مرجع سابق. ص ٤٧٣.

وحياضها وأصاب شواكلها وأغراضها نسج على أعز مثال انهل به ودق العلم وانثال وسرى ذكره مسرى الأمثال»^(١).

ثم كانت أبرز التطورات على الإطلاق تجربة خير الدين التونسي عندما أخذ على عاتقه تحقيق مشروع نهضوي في تونس نتيجة تدخل الدول الأوربية في الأيالة ، فكان أول ثمرات هذا المسجد تأسيس المدرسة الصادقية، وعندما وقعت تونس تحت الاحتلال الفرنسي عام ١٨٨١ وتوقيع معاهدة باردو تحول الجامع إلى مركز آخر ألا وهو مقاومة هذا الاحتلال، والمحافظة على الشخصية التونسية فما سبب هذا الاحتلال سوى مزيد من الوعي لدى أبناء الزيتونة وغيرهم، وبضرورة الإصلاح للتعليم وأساليبه حتى يصبح قادراً على مواجهة التطورات الناتجة عن دخول البلاد التونسية تحت السيطرة الاستعمارية فتشكلت عدة لجان حتى عام ١٩٤٥ أول هذه اللجان تأسست عام ١٨٩٨ عقدت برئاسة الوزير الأكبر وعضوية علماء الزيتونة والمدير الفرنسي لإدارة المعارف، وأسفرت هذه اللجنة عن قرارات بضرورة النظر في شؤون التدريس بالجامع وهذا من اختصاص الوزارة الكبرى لا من اختصاص إدارة المعارف رغم سعي المدير (Mashual) ماشوال للإشراف على الزيتونة.

ثم عقدت اللجنة الثانية في الربع الأول من القرن العشرين وأسفرت النتائج التي توصلت إليها اللجنة إلى صدور قرار عام ١٩١٢ بتأسيس خمسة فروع للتعليم الزيتوني في القيروان وسوسة وصفاقس وتورز وقفصه إلا أن هذه الفروع تعثرت؛ بسبب عدم الاهتمام. أن أهم اللجان التي انعقدت كانت عام ١٩٣٠ حيث تحولت الجلسة للنقاش والاختلاف بين المحافظين وعلى رأسهم الوزير الأكبر خليل بو حاجب وشيخ الإسلام أحمد بيزم الذين رأوا أن صيانة الهوية الإسلامية والعربية مقيدة بشرط إبقاء التعليم الزيتوني على حاله والإصلاحيون الذين يرون عكس ذلك وعلى رأسهم مفتي المالكية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عندما أكد أن أساس الحياة التونسية مرتبط بإصلاح التعليم الزيتوني.

(١) بن أبي الضياف : مرج سابق ، ص ٦٥ .

ولم تنتهي هذه الانقسامات إلا بعد إقالة الوزير الأكبر و الشيخ بيرم وإبداله بالشيخ محمد بن يوسف المناصر لابن عاشور الذي عين عام ١٩٣٢ شيخاً للإسلام المالكي، ثم في العام نفسه عين مديراً للجامع الأعظم فتحقق لابن عاشور مشروعه الذي طرحه في كتابه «أليس الصبح بقريب»^(١).

لقد نشر ابن عاشور مشروعه الإصلاحي في هذا الكتاب وأهم الأفكار التي طرحها:

١- وجوب إشراف الدولة والحكومة على التعليم وذلك ليكون في خدمة الأهداف الكبرى التي تسعى الحكومة إلى تحقيقها.

٢- جعل التعليم إلزامياً عندما رأى عدم إقبال الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس نظراً لجهلهم وهذه مشكلة الأمة الإسلامية وهذا يقتضي إنشاء المؤسسات التعليمية وتجهيزها.

٣- أما بالنسبة للبرامج والمناهج التي فكر بإنشائها وإعادة إصلاحها كانت دينية بالخصوص لاستمرار دور الزيتونة التاريخي إلا أنها لم تخل من إشارة علوم اللغة والعلوم الدنيوية التي كانت تدرس على عهد ازدهار الحضارة الإسلامية وعلومها. كما أن هذه العلوم هي سر النهضة والالتحاق بركب الأمم.

إن هذه العلوم برأيه تضمن الاستمرار التاريخي حيث كانت الأمة في أوج ازدهارها تدرسها وتعتني بها وهي أيضاً تحقق للعرب السمو إلى منزلة قرنائهم من الأمم المعاصرة. لذلك فهو يدعو إلى الترجمة لتوفير المواد للناشئة والمعلمين: ^(٢) «إن العلوم الدنيوية التي رأينا أخواننا المصريين يتسابقون فيها مع الأمم الأوروبية ترفع عنا وصمة البعد عن مناهج التمدن وتهمة عدم اللياقة بالأزمان الأخيرة. ولا نتحرج أن نستفيد بعض تلك المعارف عن كتب غير إسلامية كما أخذ إسلامنا من كتب اليونان».

(١) ابن عاشور، محمد العزيز: جامع الزيتونة، دار سراس للنشر، تونس ١٩٩١، ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) صولة عبد الله، القاضي محمد: الفكر الإصلاحي عند العرب في عصر النهضة، دار الجنوب للنشر، تونس

١٩٩٢، ص ١٢٧ - ١٤٠.

هذه الإصلاحات التي كان يطالب بها التونسيون سواء أكانت عن طريق الاحتجاجات، أو بواسطة البرقيات، أو عن طريق الكتابة بالصحافة ما كانت لترضي السلطة الفرنسية في تونس في بداية الأمر وبالطبع بعد فشل السلطات بالسيطرة على المسجد والتحكم بأموره من إشراف ومناهج وتعليم. بذلت كل الجهود ليبقى جامع الزيتونة خارج الحياة التونسية، ولا يشارك في الأحداث التي تجري على الأراضي التونسية متذرة فرنسا برغبتها في أن يحافظ هذا المسجد على طابعه الديني ويقتصر في أداء مهمته على نشر الإسلام والتعريف بالحضارة الإسلامية.

ولعل هذه المعارضة ظهرت في أكثر من مرة أثناء انعقاد لجنة الإصلاح عام ١٩٣٠ حيث نرى المقيم العام (Mansuroon) منصورون ١٩٢٩ - ١٩٣٣ يرسل رسالة إلى وزير الشؤون الخارجية بباريس يقول فيها: «إنني أعارض كل إجراء غير مرغوب فيه بالنسبة للجامع الأعظم بل أنني أرى من الممكن التفكير بالسير إلى إحداث معهد جديد يرمي إلى منافسة جامع الزيتونة ويكون تحت نظر الإقامة العامة بصورة مطلقة».

وفي أثناء انعقاد اللجنة الرابعة لإصلاح جامع الزيتونة عام ١٩٣٨ لم يتردد المقيم العام أن يعلن في خطابه: ^(١) «أن جامع الزيتونة سيبقى معهداً دينياً ولا يمكن أن يكون قومية تونسية، وبالنظر إلى ضرورة إبقاء تلك المؤسسة منفصلة عن الدولة وعن سياستها الوظيفية حرصاً على المحافظة على استقلالية الثقافة الروحية السابقة».

أما عن موقف جامع الزيتونة من الاستعمار الفرنسي:

كان رواد جامع الزيتونة في طليعة المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي ورجاله حيث قام الشيخ محمد السنوسي ومعه أعيان البلد بالاحتجاج على الممارسات الفرنسية، وقدموا عريضة احتجاج إلى الباي علي الذي لم يملك سوى الدموع محتجين على هذه السياسة. فكان مصير الشيخ السنوسي الإبعاد هو وبعض رفاقه الزيتونيين، وفرض غرامة مالية؛ بحجة التهديد لأمن فرنسا الدولة الصديقة والشريكة لتونس حسب اتفاقية

(١) العياشي، مختار: البيئة الزيتونية ١٩١٠ - ١٩٤٥، ترجمة حمادي الساحلي، دار التركي للنشر ١٩٩٠، ص ٣٦ +

الصداقة والتعاون، ولم يقتصر دور الزيتونة على الشيخ السنوسي بل كان له دورٌ في كل القضايا المصيرية التي واجهت الشعب التونسي ولعل أبرز هذه القضايا:

١- المؤتمر الافخارستي.

٢- قضية التجنيس.^(١)

ولكن نتيجة الضغط والتدخل الاستعماري في شؤون البلاد الإسلامية عموماً والبلاد التونسية بشكل خاص. هذا التدخل الذي أسفر عن وقوع تونس تحت الهيمنة المالية الأوروبية وإنشاء مصرف لتحصيل الديون كان لا بد من مواجهة هذا التدخل من خلال القيام بالتنظيمات التي شملت مختلف الولايات وعلى جميع الأصعدة فكان إصلاح التعليم من المواضيع البارزة المطروحة. إذ رأى المسلمون أن قيام النهضة الأوروبية ونشوء القوميات حركة اجتماعية فتطلع المسلمون إلى إقامة حاجز يقف في وجه هذا التدخل من جهة، والنهوض بالبلاد الإسلامية من جهة أخرى.

هذا الوضع المتأخر للعرب كان يحتاج إلى سؤالين هامين. لماذا تقدم الأوروبيين؟ ولماذا تأخر المسلمون؟ كان الجواب واحداً حيث أجمع أغلب الإصلاحيين أن تقدم أوربا مرجعه الأساسي علمي، ولعل في طليعة هؤلاء أبو النهضة التونسية خير الدين التونسي الذي رأى أن البداية تكون من إصلاح المؤسسة التعليمية وإدخال العلوم العصرية إلى التعليم حتى يتم اللحاق بركب الحضارة الأوروبية.

ويرجع سبب طرح خير الدين وغيره من الثوريين لموضوع العلم والتعليم إلى سببين.

١- إن الأساس الذي يقوم عليه تقدم أوربا هو العلم فالنهضة رهينة بنشر العلوم التي أتاحت التقدم الغربي.

٢- إن التربية والتعليم طريق إلى ترشيد الأهالي ليصبحوا أهلاً للاستقلال من جهة وللمشاركة السياسية من جهة ثانية^(٢).

(١) الطاهر. الحركة الوطنية التونسية، مرجع سابق، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) أومليل، علي: الإصلاحية العربية والدولة الوطنية: ط ١، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥، ص

لقد أدرك رجال الفكر والإصلاح في تونس أن المؤسسات الدينية بحكم تركيبها هي مؤسسات لا تفي بالغرض المطلوب لمواجهة الاستعمار الأوربي بكل اتجاهاته فكان لا بد من بناء مؤسسات علمية تدرس في العلوم التي كانت وراء نهضة أوروبا.

٢ - المدرسة الصادقية:

تأسست المدرسة الصادقية عام ١٨٧٥ نسبة إلى محمد الصادق باي لأسباب خارجية وداخلية

أ- السبب الخارجي: كانت تونس كبقية البلدان العربية الإسلامية تخضع لضغوط اقتصادية من قبل الدول الأوربية ولاسيما فرنسا بعد احتلالها الجزائر عام ١٨٣٠. لقد اكتسبت الهيمنة الأجنبية طابعاً اقتصادياً في أول الأمر مكنت الدول الأجنبية الثلاثة المتنافسة على تونس / إنكلترا - فرنسا - إيطاليا / من التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد. (١)

ب- أما داخلياً:

فقد كانت البلاد تعاني من ضائقة اقتصادية، والشعب يعاني من ارتفاع الضرائب التي تذهب للباي وبدوره يصدر هذه الأموال إلى الخارج بسبب القروض التي جاءت نتيجة سياسة التحديث فكانت ثورة علي بن غداهم ١٨٦٤. في هذا الوقت برزت مجموعة من النخب السياسية والثقافية التي آلمها هذا الوضع السيئ، فكان لا بد من تغيير المجتمع و إيجاد السبل والطرق التي تساعد على قيام دولة عصرية تشبه الدول الأوربية يكون الحكم فيها مقيداً بالقانون على غرار الدول الكبرى وتندرج هذه الحركة ضمن صيرورة النهضة التي كانت تعيشها البلاد الإسلامية كمصر. فبرز أبو الإصلاح خير الدين الذي أخذ على عاتقه هذا المشروع فجمع آراءه في كتابه الشهير «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» فمن أهم الآراء التي طرحها مشكلة التعليم حيث اعتبره الوسيلة الناجحة لتقويم حالة التدهور وتطوير المؤسسات الإدارية والاقتصادية على النمط العصري مع المحافظة على القيم العربية الإسلامية (٢). وفي

(١) بن أبي الضياف: مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٢) صادق سعد. أحمد وآخرون: الانتلجنسيا العربية، الدار العربية للكتاب، بيروت، ص ٣٤١-٣٤٢.

هذا الصدد يقول خير الدين: ^(١) «كل متمسك بديانة وان كان يرى غيره ضالاً في ديانته، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمة الإفرنجية فإنهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسناً من أعماله، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد وشأن الناقد البصير تميز الحق بمسيار النظر في الشيء المعروض عليه، قولاً كان أو فعلاً، فإن وجده صواباً قبله واتبعه، سواء كان صاحبه من أهل الحق أو من غيرهم فليس بالرجال يعرف الحق بل الحق تعرف الرجال، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها»

تلك السمات المميزة للظروف التاريخية التي برزت فيها فكرة إنشاء مدرسة متكاملة للتعليم التقليدي الزيتوني الذي لم يعد يستجيب لمتطلبات العصر والتعليم الأجنبي خاص لأبناء الجاليات الأوربية الموجودة في تونس. لذلك تأثر التعليم التونسي بالتجربة المصرية التي بدأها محمد علي باشا.

كانت المدرسة تحوي على ١٥٠ طالباً (١٠٠ من العاصمة و ٥٠ من أنحاء البلاد) لقد كان القصد من ذلك تحقيق اندماج السكان سياسياً، وخلق تجانس على مستوى الإدارة التونسية وكانت الغاية القصوى إيجاد المناخ المناسب للتعارف بين الشبان التونسيين حتى ينشأ بينهم الإحساس بالانتماء لنفس الأمة وكان أنجب وأذكى الطلاب يرسلون إلى الخارج لإتمام دراستهم على حساب المدرسة الصادقية^(٢).

أما بالنسبة إلى العلوم التي كانت تدرس فيها:

ففي العربية حفظ القرآن الكريم، والقراءات، الحديث، علوم الدين من عقائد وفقه، ومن علوم العربية النحو والصرف، والمعاني والبديع والأدب والتاريخ الإسلامي والأخلاق، وأوكل ذلك إلى مدرسين من أعلام جامع الزيتونة منهم الشيخ الأمين بن الخوجة، والشيخ محمود بيرم، والشيخ عثمان الشامخ وألحق بذلك تعليم الخط بالقلم العربي وكان أستاذه الشيخ محمد الكتاني، والخط الثلث وكان أستاذه الشيخ محمد

(١) التونسي، خير الدين: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة (د.ت)، ص ٦.

(٢) صادق سعد: مرجع سابق، ص ٣٤٢.

الفخري وفي اللغات الأوربية اقتضى البرنامج المذكور تعليم اللغة العثمانية، واللغة الفرنسية، واللغة الإيطالية وعهد بتعليم العلوم العصرية كالتاريخ العام والجغرافية ومن الرياضيات الحساب والجبر والمقابلة والهندسة وجر الأثقال والطبيعة والكيمياء، وعلوم الصحة، والنبات والفلاحة، والحيوان، والقوانين والأنظمة السياسية إلى أستاذة فرنسيين كانت لهم خبرة التعليم بمدرسة الضباط بباردو كالأستاذ (Imon) أيمنون والأستاذ (soleh) سوليه. وأما تعليم اللغة التركية فقد كلف الأستاذ علي رضا أفندي من كبار أساتذة المدارس الملكية. وأسندت نظارة التعليم الأوربي بالعالم (Nons Roca) نونس روكا وهو من خيرة الفرنسيين نزلاء في البلاد وأسندت إدارة المدرسة اللواء محمد العربي زروق^(١).

وبعد توقيع معاهدة باردو بقيت المدرسة مدة عام وهي غير مطمئنة على أحوالها ومصيرها ، فكان المعارضون لها ينتظرون تصفية أوقافها وإغلاق أبوابها، فهي قد أنشئت لتخرج لتونس موظفين أكفاء مكونين تكويناً عصريةً يرتجى أن يخلصوا البلاد من قبضة الدول الأوربية. وبسبب انشغال الفرنسيين بالثورات التي قامت بها القبائل من جهة ومعارضة إيطاليا لاحتلال تونس من جهة أخرى فلم يتم البت بأمر هذه المدرسة إلا في الشهر الأخير من عام ١٨٨٢ حيث عين كمبون وزيراً مفوضاً لفرنسا بتونس حيث كان يرمي إلى تكوين وزارة من الفرنسيين يحكم بها البلاد باسم الباي.^(٢)

بعد وصول كمبون إلى تونس بعدة أيام زار المدرسة الصادقية، وأبدى إعجابه بها، وبعد عدة أيام أخرى زارها الأسقف (la figery) لافيغيري^(٣) الذي كان متفقاً مع

(١) بن الحوجة، محمد: صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، ط ١،

دار الغرب بيروت ١٩٨٦، ص ٣١٢.

٢-الصولي: مرجع سابق، ص ١٦٥

(٣)-لافيجيري: من أشهر المبشرين في القرن التاسع عشر الذين لعبوا دوراً في التمهيد للاستعمار الفرنسي لتونس

. كان مدير لمؤسسة مدارس الشرق في بلاد الشام ، ثم عين في الجزائر كبير أساقفة الجزائر ١٨٦٧ ، وفي تونس

لأسس مدرسة سانت لويس التي أصبحت تعرف باسم معهد كارنو ، ثم أصبح رئيساً على جميع أساقفة إفريقيا

كمبون، وأبدى إعجابه بالدور الذي تقوم به ولعل اهتمام كامبون بالمدرسة يعود لسببين:

- ١- إن الصادقية هي المدرسة الوحيدة التي كانت تحوي تعليمًا فرنسيًا.
 - ٢- إن لهذه المدرسة موارد مالية تكفي لسد حاجتها ويمكن أن يحول قسم من موارد هذه المؤسسة إلى مشاريع ثقافية أخرى.
- ولكن على ما يبدو أن كمبون لم يحقق هدفه فغادر تونس عام ١٨٨٦، ومع ذلك فقد عين (Mashual) ماشوال^(١) في إدارة التعليم بتونس حيث صرح ماشوال إن ما يحتاج إليه التونسيون هو التعليم الابتدائي بدرجاته المختلفة والتعليم المهني والتجاري والزراعي والصناعي، فيجب أن نكون عمال ومزارعين وتجاراً وأن نجتنب كل شيء.
- فكان اهتمام (Mashual) ماشوال متجهاً إلى إنشاء المدارس الابتدائية المسماة بالمدارس الفرنسية- العربية محملاً المدرسة الصادقية رغم ضيقها المالي نفقات البناء لثلاث مدارس بتونس والقيروان وصفاقس، وحتى يتمكن شكلياً من إدراج تلك النفقات في ميزانية الصادقية سميت فروع المدرسة الصادقية. وحرصاً على تطبيق برامج التعليم بالفرنسية فقد أزال التعليم باللغة العثمانية والاطيالية أما التعليم الثانوي فقد كان موجوداً في معهد القديس شارل الذي أسسه الرهبان قبل الحماية ثم أحاله إلى القديس (la figery) لافيغري. وبالنسبة للطلبة الذين أوفدتهم الحكومة التونسية لمتابعة دراستهم بالخارج فقد أصدرت إدارة الحماية قراراً بعدم تقديم النفقات لهم بحجة قلة الموارد المالية، فمنهم من عاد وعمل مع الإدارة الفرنسية، ومنهم من عاد وحمل لواء المقاومة.

لقد كان التعليم باللغة الفرنسية، وكانت العربية تدرس في بعض الأقسام التي يشرف عليها مشايخ من جامع الزيتونة، وكان يوجد في المدرسة الفرع الابتدائي ٢٣٠-

ومطراناً بقرطاج ١٨٨٢. كان كثير النشاط التبشيري حتى نصبوا له تمثالا في العاصمة. انظر الصولي: مرجع

سابق، ص ١١٤

(١) لويس ماشوال: من الشخصيات البارزة في عهد الحماية تميز بكفاءته العلمية لذلك وضع رئيس لإدارة التعليم بتونس نشأ بأفريقيا فكان عارفاً بأحوال البلاد وبعادات المسلمين. انظر مسعود بو الخضرة: مرجع سابق، ص ٢٠.

٢٤٠ طفلاً، وهؤلاء الأطفال من جميع أنحاء البلاد، وأغلبهم من الأسرة الحسينية أو من المتعاونين مع السلطات الفرنسية^(١).

لقد دخلت فرنسا إلى المدرسة الصادقية لا حياً بتطويرها وتحديثها ونشر التعليم الأوربي فيها بل من أجل نشر اللغة الفرنسية التي لم تكن وسيلة للتعليم والثقافة بل كانت وسيلة عملية لتحقيق عدة أهداف:

١- الغزو الفكري: بحيث يدور الفكر العربي في نطاق التفكير الفرنسي عن طريق دراسة تاريخ فرنسا وقوانينها واقتصادها وتاريخ علمائها ومن ثم تصبح فرنسا المثل الأعلى في نظر المتعلم التونسي.

لقد كان القصد من هذا الغزو الفكري تكوين المواطن التونسي على مثال الإنسان المستعمر ولا يقصد بذلك تحويل التونسي إلى فرنسي فتلك رتبة لا ينبغي أن يصلها. وإنما يراد أن يصبح مستتباً فكرياً عن طريق محو الشخصية العربية الإسلامية، وبالتالي يصبح إنساناً تابعاً لا كيان له ولا يهم أن يظل اسمه محمداً أو أحمداً، وإنما الذي يهم هو أن يكون محمد هذا مستتب الفكر عديم الشخصية خادماً في المزارع أو المعامل أو موظفاً صغير يقوم بالمهمة التي لا يقوم بها السيد المستعمر.

إلا أن هذه السياسة لم تنجح في تونس في البداية حيث كان جامع الزيتونة وكل المرتبطين بأصالتهم يقفون في وجه هذه السياسة، وبعد الحرب العالمية الثانية وسيطرة المثقفين ثقافة أوربية على الحكم بدأ هذا الغزو الفكري يدخل إلى العقول المغربية كلها، وليس التونسية فحسب فنجد اليوم أن معظم سكان تونس يجيدون اللغة الفرنسية^(٢).

(١) عبد السلام، أحمد: المدرسة الصادقية والصادقيون، بيت الحكمة، قرطاج ١٩٩٤، ص ٢٧-٥٠.

٢- أن تعليم اللغة الفرنسية للشعب التونسي ليس معناه غزو فكري، وإنما الغزو الذي سعت حكومة الحماية لتطبيقه جعل المواطن التونسي لا يتكلم سوى هذه اللغة، وتكون الحضارة والمدنية الفرنسية، الهدف الذي يسعى إليه المثقف التونسي ليستطيع أن يلحق بالإنسان الأوربي ويكون مواطناً من الدرجة الثانية أو الثالثة لا يملك أي من مقومات الشخصية العربية. أما أن يصل إلى مرتبة الأوربي المتمدن فهذا مستحيل بنظرهم، ولكن الطبقة الواعية المثقفة في تونس استطاعت أن تجبر السلطات الفرنسية على الاعتراف بقدرة التونسيين وتوافر الثقافة والمستوى العلمي المتطور لديهم. راجع أفكار جول فيري ص ٢٠.

٢- لتكوين المساعدين الثانويين لخدمة الإدارة الفرنسية في المناصب الثانوية (بائع طوابع بريد، موزع طوابع، ترجمان في مكتب بقرية يفترض بسكانها أن يتعلموا اللغة الفرنسية).

٣- لربط الاقتصاد التونسي بالاقتصاد الفرنسي بامتلاك الأراضي والموارد واستغلالها في التصدير والاستيراد وبذلك يصبح اقتصاد تونس مكماً للاقتصاد الفرنسي، ومزوداً لفرنسا بكل ما تحتاجه من المواد الأولية وتكون تونس مساعداً للآلاف من الفرنسيين الذي تضيق دولتهم عن تلبية حاجاتهم^(١).

لم تكن اللغة الفرنسية في تونس وسيلة تثقيف أو تمدين للشعوب البربرية بل كانت عبارة عن وسيلة لمحو الشخصية العربية فكان الإسلام، واللغة العربية هما ركيزتا هذه الشخصية لذلك أرادوا إزالة مقومات الشخصية التونسية.

على الرغم من محاولة فرنسا ربط المدرسة الصادقية بأوامر المقيم العام لكنها فشلت حيث إن هؤلاء الصادقين كانوا أصحاب ثقافة مزدوجة فهم خرجوا من بين الشعب التونسي، وبالتالي قادرين على التفاهم والتواصل مع شعوبهم من جهة، ومن جهة أخرى تمكن هؤلاء من تعليم اللغة الفرنسية هذه الثقافة المزدوجة للشبان التونسيين جعلهم قادرين على أن يكونوا نداً للاستعمار.

(١) غلاب، عبد الكريم: مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٦، بيروت ١٩٨٢، ص ٨٩ - ٩٠.

٣ - الجمعية الخلدونية: ^(١)

تأسست عام ١٨٩٦ نسبةً إلى المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ^(٢)، وذلك بعد عودة طلاب الصادقية من الخارج وتعيين إعداد منهم في الإدارة الفرنسية. فقررت حكومة الحماية بالتقرب منهم لكي تظهر بأنهم أقرب إلى الفرنسيين المتحضرين من العرب المتأخرين، وأن المستقبل للغرب وثقافته، وأن القومية التونسية إلى زوال. فمن نجا بنفسه وتفرنس روحاً وفكراً التحق بالأمة المتمدنة، ومن عكف على عصبية القومية اندرج مع البائدين. لكن البشير صفر ^(٣) وقف في وجه هذه المحاولة، فأخذ يحذر

(١) أسسها البشير صفر وزملائه، فحاول البعض إرجاع الفضل في تأسيس هذه الجمعية إلى الإدارة الفرنسية بعد اتفاق معها وبعض رجال الحركة الوطنية في تونس حيث يقول مدير التعليم ماشوال: «كان المسيو ميلي المقيم العام ينوي بعث تونس الفتاة على غرار تركيا الفتاة وكان من الضروري تشكيل جمعية للتنسيق بين الشباب التونسيين، ولقد ترأست الاجتماعات وأدرت النقاشات وقمت بوضع القانون الداخلي واقترحت أن يستند للجمعية اسم مؤرخ ولد في تونس، وهكذا أنشأت الخلدونية وفي خطبي وأحاديثي مع تلاميذ الصادقية، لم أفتأ أحثهم على الإتحاد والوفاء والحكمة وحذرهم من الجنوح إلى التورط في السياسة ونبهتهم بألا يفصلوا البتة بين قضيتهم وقضية فرنسا» انظر فرين. أرنولد: العلماء التونسيين، ترجمة حفناوي عميرية وأسماء معل، لقد حاول ماشوال إظهار الرجال الوطنيين أمام شعبهم بأنهم رجال باعوا قضية بلادهم وتعاونوا مع سلطات الحماية ولكن هل فتح جمعية علمية كالخلدونية تساعد التونسيين على النهل من العلوم العصرية تتماشى مع سياسة فرنسا في تونس... وإذا قبل التونسيين التعاون مع سلطات الحماية فليس من باب الاستسلام للحماية بل من باب الحوار حتى الوصول إلى أهداف التونسيين بحكم الفوارق في موازين القوى بين البلدين

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨ هـ - ١٣٣٢-١٤٠٦ م) مؤسس علم الاجتماع، ولد بتونس وينتمي إلى فرع من قبيلة كنده. درس العربية والقرآن والفقه والحديث. عاش في بيئة مضطربة سياسياً وإمارات متنافسة، تقلد عدد من المناصب، زار عدد من الأماكن، له مؤلفات أشهرها: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عصرهم من زوي السلطان الأكبر. انظر الكيالي: مرجع سابق، ص ٤٣٢

٣- ولد البشير صفر في ٢٧ شباط ١٨٦٥ في تونس، ورث عن والده الضابط التركي مصطفى صفر الانضباط و النزاهة، درس في الصادقية ثم تابع دراسته في معهد سان لويس في باريس على نفقة الحكومة التونسية. كان يحب المطالعة والقراءة لأوقات طويلة على ضفاف نهر السين، ولما عاد إلى رئاسة الأوقاف وشارك في العديد من المؤتمرات للدفاع عن القضية التونسية، له مؤلفات عديدة منها الجغرافية عند العرب ومفتاح التاريخ توفي في

المتقنين من سياسة حكومة الحماية ويدفع بهم إلى التعلق بقوميتهم والنظر إلى ما يجري في دمائهم من مجد العروبة والإسلام، لا إلى ما يجري على ألسنتهم من لغة الفرنسيين وأفكارهم. أدرك البشير صفر ومن معه من رجال الإصلاح أن الوقت قد حان لتطبيق برنامج خير الدين الإصلاحى القائم على إدخال العلوم الكونية على الثقافة الإسلامية. ولن يكون الأمر ممكناً دون تعاون جماعي وتكوين جمعيات

احتفل بافتتاح معهد الجمعية احتفالاً رسمياً عظيماً، حضره الوزير الأكبر وشيخ الإسلام، والمقيم العام (Rene Milli) ريني ميلي الذي ألقى فيه خطاباً نوه فيه بالثقافة الإسلامية ودور تونس في نشرها وفضل العرب على أوروبا في نهضتها، وأمل أن تشع أنوار الثقافة العصرية من ذلك المعهد حتى تنعم بها بلاد المغرب الإسلامي قاطبة.

لقد كان الهدف من هذه الجمعية بث العلوم العصرية باللغة العربية حتى تكون هذه العلوم سداً للشجرة الموجودة في جامع الزيتونة، وأقاموا نظامها على الطريقة المألوفة في الجمعيات. تتكون من أعضاء مشتركين تنتخب جمعيتهم العمومية رئيساً وأعضاء ثم ينتخبون الأعضاء من بينهم الوكلاء والأمناء، فكان ذلك أول عهد البلاد بنظام الانتخابات والمداولات والمناقشات السليمة في الشؤون العامة، وصدر قانونها الأساسي بقرار وزاري عام ١٨٩٦ وانتخب أول رئيس للخلدونية الأمير الای محمد القروي وشكل مجلس فيه البشير صفر وأصحابه من خريجي الصادقية أمثال الزواش و خير الله^(١). استمر محمد القروي عاماً واحداً في رئاسة الخلدونية ثم خلفه في الرئاسة البشير صفر

تونس ١٩١٧. انظر الزمرلي، الصادق: إعلام تونسيون، تقديم حمادي الساحلي، دار الغرب، بيروت ١٩٨٦، ص

^١ ابن عاشور، محمد الفاضل: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، النشرة الثالثة، الدار التونسية للنشر، ص ٧٠-٧١.

خير الله بن مصطفى: (١٨٦٧-١٩٦٥) ولد في تونس وتخرج من المدرسة العلوية بتقدير عال مكنه من التدريس بالمدرسة الصادقية ثم عمل مترجماً عدلياً بالمحكمة المختلطة بتونس ثم رئيس جمعية قدماء الصادقية ساهم في مؤتمر

شمال إفريقيا عام ١٩٠٨ ثم عمل محرراً في جريدة التونسي. انظر الزمرلي: مرجع سابق، ص ١٣٥

الذي استمر سنين طويلة مع صديقه محمد الأصرم^(١). نظمت الخلدونية دروساً باللغة العربية، والتاريخ، والجغرافيا، والعلوم الطبيعية، والرياضية، ورسم الأراضي، والاقتصاد، واللغة الفرنسية، فأقبل عليها الشبان من الطلبة ولا سيما الزيتونيين إقبالاً عظيماً وظهرت نتائج هذه الجمعية منذ العام الأول لإنشائها، وقام البشير صفر بإعطاء دروس التاريخ والجغرافيا فرفع قيمتها بفصاحته وقوة بيانه وإقدامه على شرح الحقائق الاستعمارية، وكشف الحجاب عن الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامي حتى صارت دروسه معهداً تتلقى فيه التوجهات القومية. فصارت زعامة البشير على الشباب مطلقة ومنزلته منزلة خير الدين من الجيل الماضي. هو رجل الساعة، وحامي الحمى، و زعيم النهضة، أو أبو النهضة الثاني^(٢).

حتى قال عنه الحبيب بورقيبة: ^(٣) «إن البشير صفر يعد واحداً من القلائل التونسيين الذي عرف كيف يستبقي فضلاً من الشعور والكرامة في نفوس مواطنينا بواسطة تدريسه لتاريخنا».

إن الإقبال الجماهيري على الدروس التي كانت تلقى في هذه الجمعية أثار مخاوف السلطات الاستعمارية حتى جعلت أحد المستوطنين يقول ^(٤): «إذا ما اندلعت ثورة في البلاد التونسية فإن هيئة أركان ثوارها تكون قد تخرجت من الخلدونية»

لقد أدرك زعماء الإصلاح وفي مقدمتهم تلميذ خير الدين البشير صفر خطورة الوضع في تونس، والسياسة الفرنسية المقنعة بقناع الحضارة والمدنية الأوروبية، فتوجه

(١) محمد الأصرم: (١٨٥٨ - ١٩٢٥) ينحدر من أسرة قيروانية عريقة، لفت الأنظار بتفوقه الدراسي في المدرسة الصادقية، وجامع الزيتونة. أكمل تعليمه بباريس وعاد إلى تونس ليعمل معلماً ثم مديراً لإدارة الغابة، وعندما أنشئت الخلدونية عام ١٨٩٦ كان أستاذاً ومحاضراً قدم دراسات إلى المؤتمر الاستعماري المنعقد في مرسيليا عام ١٩٠٦ وفي باريس عام ١٩٠٨. انظر مسعود بو خضرة: مرجع سابق، ص ٢٧

(٢) - الزمري: مرجع سابق، ص ١٢٧

(٣) - عامر: تاريخ المغرب العربي المعاصر، مرجع سابق، ص ١٠٤.

(٤) - نعيسة، يوسف: محاضرات في التاريخ العربي المعاصر، مطبعة الداودي، دمشق ١٩٨٥ - ١٩٨٦، ص ٤٣٢.

إلى الشباب لإلقاء المحاضرات في الجمعية الخلدونية من أجل جذب الشباب إلى صفوف كل المناضلين في سبيل تحقيق الاستقلال وعدم انجراف هؤلاء الشباب وراء الوظائف الفرنسية التي تخدم المستعمر.

٤- جماعة الحاضرة:

أدركت النخبة التونسية أن أسباب تقدم الغرب يعود إلى اهتمامهم بالعلوم العصرية من طب ورياضيات وهندسة. . . وافتقار المؤسسات التعليمية العربية إلى هذه المناهج هو السبب وراء تخلف العرب، فازدادت القناعة لديها بضرورة الأخذ بالعلوم العصرية لذا يجب توجه الطلبة إلى الخارج ليكونوا على مقربة من هذه العلوم ويتقنوا لغة أهل هذه البلاد، فتم السفر إلى الخارج ولا سيما فرنسا وإنجلترا.^(١) ولكن أغلب الطلبة التونسيين كانوا يفضلون الدراسة في فرنسا على بقية الدول وحتى العربية رغم انخفاض تكاليف الدراسة وتشابه الوسط الاجتماعي في البلدان العربية والإسلامية.

ويمكن تفسير هذا الإقبال على الجامعات الفرنسية بعدة أسباب:

١- التأثير برموز الحركة الوطنية من خريجي الجامعات الفرنسية، ولا سيما طلبة الصادقية الذين درسوا في فرنسا، واحتلوا مركزاً مهماً في الإدارة التونسية، ولا سيما البشير صفر، وكان هؤلاء يدرسون في مدرسة فرساي وسان كلود، وقد ساهموا فيما بعد في إعلاء شأن مجتمعهم من خلال ما طرحوه من أفكار ومواقف.

٢- طبيعة المناخ السياسي والفكري السائد في فرنسا. ففرنسا بلد النور والحريات الفكرية والتعددية الحزبية منذ أيام نابليون وبالتالي الدراسة في هذه الجامعات سوف تتيح للتونسيين فرصة التكوين السياسي والإيديولوجي والتلاقي الفكري والنشاط السياسي والنقابي مع غيرهم من القوى الوطنية.

٣- تفوق مستوى التكوين بالجامعات الفرنسية. فغالبية الطلبة التونسيين يفضلون الدراسة بكلّيات ومعاهد فرنسا لشهرتها وشهرة أساتذتها ومثانة تكوينها. هذا الشعور ما يزال ماثلاً لدى أغلب الطلبة العرب حتى يومنا هذا.

(١)- الساحلي حمادي : فصول في التاريخ والحضارة، ط١، دار الغرب بيروت ١٩٩٢، ص ٩٢

٤- الدراسة بفرنسا لكشف عيوب البيئة الأصلية. حيث اعتقد الطلبة أن التوجه إلى فرنسا يساعد على كشف عيوب البيئة التي يعيش فيها الطالب والاستفادة من المدنية والتقدم في فرنسا. هذه القناعة ترسخت لدى النخبة التونسية حيث يقول أحد الطلبة^(١):

«فالبعد عن وسطهم (تونس) والعيش في وسط آخر لا يماثل الأول فيه شيء من العوامل التي تؤثر على حياة الطالب وتجعله يفكر في العيوب الموجودة في بيئته فيعمل إلى تقويتها عندما يرجع إلى وطنه وفي يقظة مستمرة ينظر إلى حالة بلاده الحقيقية دون تحامل، فيسعى في إصلاح ما فسد فيها بكل شجاعة وإقدام والإقامة ببلاد ترى فيها المدنية واصله أوجها بعيدة متجالية في أحسن مظاهرها، في بلاد ذات حركة قوية تتدفق الحياة في بلاد حرة يجد الفكر فيها ميادين واسعة واللسان مجداً فسيحاً مما يبعث فينا روحاً جديدة وينفح فينا حياة ملؤها السعي المستمر والنشاط الذي لا يفتر. . .»

لذلك توجه أغلب الطلبة التونسيين إلى فرنسا للدراسة وللتعرف على المدنية والحضارة الفرنسية، وفي عام ١٩٠٥ عاد جماعة من هؤلاء الطلبة إلى تونس بعد أن أذنت لهم سلطة الحماية حيث كانت تعتقد أن الحال قد استتب، وأنه بمقدور السلطات بعد أن تغذي هؤلاء الشبان بالحضارة الفرنسية أن تجعلهم ألعوبة بيدها، لكن سلطة الحماية فشلت في مسعاها عندما وجدت أن هؤلاء الشبان قد عادوا وهم يحملون الأفكار التحريرية ومبادئ الثورة الفرنسية من أجل تنوير الرأي العام التونسي، و في مقدمة هؤلاء علي بوشوشة^(٢) صاحب جريدة الحاضرة الذي استطاع أن يجمع من

(١) بن يوسف، عادل: النخبة العصرية التونسية، سوسة (تونس) ٢٠٠٦، ص ٧٣-٧٦.

٢- علي بوشوشة: ينتمي بوشوشة إلى أسرة تشتغل بالفلاحة هاجرت من مدينة جيجل الجزائرية إثر الاحتلال الفرنسي. ولد علي في بنزرت ١٨٥٩، درس في جامع الزيتونة، ثم انتقل إلى مدرسة الصادقية ونهل من العلوم العصرية وتعلم بعض اللغات الأوربية، ولما بلغ العشرين من عمره توجه إلى أوروبا وإلى إنكلترا بالذات لدراسة القانون حيث بقي ثلاث سنوات. بعد عودته تقلد وظيفة الترجمة بالحكومة التونسية من عام ١٨٨١-١٨٨٩. ساهم مع أصدقائه في تأسيس جريدة الحاضرة واستمر بها مدة ثلاث وعشرين عاماً، كما كان عضواً في الجمعية

حوله كتلة قوية من أصدقائه وغيرهم من مثقفي الصادقية والزيتونة فقاموا بحركة دينية قومية تهدف إلى تقوية روابط القطر التونسي بحركة الجامعة الإسلامية وتطالب من جهة أخرى بتنفيذ الدستور التونسي الذي ظل معترفاً به بعد اتفاقية المرسى ومعهدة باردو وهما وثيقتان تستندان عليها الحماية^(١).

ولعل الأثر الهام الذي تركته جماعة الحاضرة في الحياة التونسية كان مقاومة الغربة اللغوية (أي مقاومة انتشار اللغة الفرنسية على حساب اللغة الأم العربية) حيث بدأ الشعور بالغربة اللغوية منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر لذلك تنبه المشير أحمد باشا مع الشيخ محمود قابادو إلى هذا الخطر الذي اجتاحت الجزائر، ومن الممكن أن يمتد إلى تونس فقام ببناء مدرسة باردو، ثم تطور هذا الاتجاه في محاربة التغريب على يد الوزير خير الدين الذي قام ببناء المدرسة الصادقية عام ١٨٧٥ لتحتفظ اللغة العربية بمكانتها كحاجز في وجه الغزو الأجنبي الذي يهدد شخصية البلاد التونسية وتطورت هذه المقاومة اللغوية على يد جماعة الحاضرة التي حاولت الاحتفاظ بالشخصية التونسية في اللغة والدين عن طريق ربط تونس بحركة الجامعة الإسلامية ونشر الأفكار التحريرية معتمدة على الروح التي بثها زعماء الإصلاح الديني والسياسي في مصر والوطن العربي أمثال محمد عبده^(٢)، وقد انتشرت ظاهرة الغربة اللغوية في

الخلدونية، تنقل بين عدة دول عربية وأوربية وخاصة فرنسا واليونان، تزوج مرتين من سيدتين تركيتين ١٩٠٥، ثم توفيت بسبب مرض فتزوج في المرة الثانية ١٩٠٦، اتصل مع زعماء القوي الوطنية في مصر، كان له دور كبير في الحركة الوطنية التونسية، توفي في تونس ١٩١٧. انظر العربي، علي، الحاضرة، كلية العلوم الإنسانية، تونس ١٩٩٥، ص ٨٥

(١) الفاسي: مرجع سابق، ص ٤٢.

٢- محمد عبده: ولد في قرية محلة نصر في مصر ١٨٤٩ تلقى تعليمه الولي من قراءة وحساب والقرآن في القرية، ثم انتقل إلى الأزهر والتقى مع الأفغاني ١٨٧١، عمل مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم، ومن أعماله الفكرية (الكتابة والقلم) و (العلوم الكلامية) و (الدعوة إلى العلوم المصرية). تنقل بين عدة بلدان عربية وأوربية، أصدر مع صديقه الأفغاني جريدة العروة الوثقى. تبني التيار الإصلاحي وفيه يرى أن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تنهض إلا بالتربية والتعليم أولاً ثم السياسة ثانياً. انظر عمارة، محمد: الإمام محمد عبده، دار الوحدة، بيروت ١٩٨٥، ص ٢٩-٣٠

تونس طوال فترة الحماية نتيجة اصطباغ التعلم والإدارة والحياة العامة باللغة الفرنسية. لكن وجود الزيتونة وجماعة الحاضرة حفظا ماء الوجه ولو قليلاً للشخصية التونسية. لقد كانت الغربة اللغوية من أخطر الأمراض التي واجهت المجتمع التونسي فكان أعضاء جماعة الحاضرة رغم ميولهم إلى الغرب حذرين من هذه الآفة فدعوا إلى الاحتفاظ بالشخصية التونسية الإسلامية مع ضرورة الأخذ من الغرب بما يناسب الواقع. لقد عبر المؤرخ و الكاتب التونسي البشير بن سلامة عن هذا الوضع بقوله ^(١): «هذه الآفة من شأنها أن تنهك الأذهان وتتعب العقول وتستنفذ الطاقات، فلا تبرح ترافق المتعلم حتى تعصره عصراً أو يفتر حماسه، وتلفظه من عالم الحياة الحية لفظاً كما تلفظه النواة، فتراه عندما يفارق الدرس يحمل مرارة في نفسه تنفره من كل ما هو كتاب، وتجعله يقبل على الكسب دون تطور وتطوير».

(١) غلاب : مرجع سابق، ص ٩٣ - ٩٤ .

٥ - جمعية قداماء الصادقية:

بعد مرور ربع قرن من الزمن على دخول الاستعمار الفرنسي إلى تونس، تخرجت مجموعة كبيرة من المدرسة الصادقية، وتنوعت مجالات اختصاصاتهم، مما دفعهم إلى التفكير بإنشاء جمعية تجمع شملهم وفي الوقت نفسه تقوم بنشاط يتناسب مع ميولهم ولا سيما بعد امتناع البعض عن الدخول والانتساب إلى الخلدونية بحجة أنه كان يطغى عليها الطابع التقليدي بحسب رأيهم، فكانوا يرون أنه من الضروري الانفتاح أكثر فأكثر على الثقافة الفرنسية والتوجه نحو الحضارة الغربية. اجتمع الأعضاء المؤسسون يوم الأحد ٣ كانون الأول ١٩٠٥ وكان عددهم يناهز السبعون، وبعد الاجتماع اتفقوا على تعيين خير الله بن مصطفى رئيساً لها، وانتخبوا هيئة إدارة تتألف من ١١ عضواً أغلبهم من أرباب المهن الحرة أمثال المحامين علي باش حمبة وعبد الجليل الزواش وأحمد الغطاس^(١) وحسن قلاتي من خريجي معهد كارنو والذي

١- علي باش حمبة: ١٨٧٦ - ١٩١٨ ولد في تونس لأسرة تركية الأصل، درس في الصادقية فظهرت عليه علامات النبوغ والتفوق منذ البداية، حصل على الأجازة في الحقوق بالمراسلة، ساهم بتأسيس جمعية قداماء الصادقيو الحزب التقدمي الذي تحول إلى حزب تونس الفتاة ١٩٠٧، ساهم بدور كبير في الحركة الوطنية التونسية، تنقل بين عدة بلدان واستقر أخيراً في الأستانة حيث توفي عام ١٩١٨. انظر بن ميلاد، مسعود ادريس: مرجع سابق، ص ١٥٧ - عبد الجليل الزواش ١٨٧٣ - ١٩٤٧: ولد في عائلة معروفة بولائها للأسرة الحسينية، درس في الصادقية ثم التحق بمعهد سان شارل ليكمل دراسته الثانوية، توجه إلى باريس، وهناك التقى بالطلبة العرب والأوربيين، و حضر عدة جلسات في البرلمان الفرنسي ليكتسب الشيء الكثير عن السياسة ليعود عام ١٩٠٠ ويعمل في جريدة الزهرة ومرشد الأمة والصواب. أسس النادي التونسي، ثم عمل وزير للعدل في عهد المتصرف باي، ليستقيل منها بعد فترة ويترك العمل السياسي بسبب المرض الذي أودى بحياته.

- أحمد الغطاس ١٨٧٥ - ١٩٢٦: ينتمي إلى أسرة برجوازية متواضعة، درس الابتدائية والثانوية في معهد كارنو، ثم أكمل دراسته في مدينة أكس الفرنسية في مجال الحقوق. عمل مدرساً في الخلدونية وزودها بالكتب العلمية القيمة، كان له دور في الحركة التونسية من خلال كتاباته في الجرائد الصادرة في ذلك الوقت، انظر الزمري: مرجع سابق، ص ١٨٧

- حسن قلاتي ١٨٨٠ - ١٩٦٦: ولد في بلدة بوغاري في الجزائر جاء إلى تونس وعمره سنة واحدة درس الابتدائية والثانوية في تونس، حصل على الحقوق وانتسب للمحاماة بتونس عام ١٩٠٨، تعرض للنفي أثر حوادث الزلاجات ثم شارك في تأسيس الحزب الدستوري عام ١٩٢٠ ثم انفصل عنه مصادفاً على إصلاحات لوسيان سان أسس جريدة البرهان ثم النهضة. انظر الزمري: مرجع سابق، ص ٣٣٣

كان يجمع بينهم هو تكوينهم المدرسي وتأثرهم بالثقافة الفرنسية.^(١)

لقد دعا خير الله بن مصطفى إلى تخليد الأفكار ونشر المبادئ التجديدية التي كان المعهد الصادقي مصدراً لها. والمقصود هنا هو تغيير عقلية الشعب التونسي المتصفة بآثار حقبة طويلة من الجهل والإسراع بدفع هذا الشعب نحو التقدم ودفعه إلى الأخذ بالأفكار العصرية. وقد صرح علي باش حمبة المنظم الرئيسي لجمعية قدماء الصادقية قائلاً^(٢):

«لبلوغ ذلك، علينا أولاً أن نجتهد للحفاظ على هذا الفكر التجديدي الذي كان المعهد الصادقي مهداً له وتتميته لدى رفاقنا ثم نشره بين عامة الشعب» وتتوي الجمعية إلى تحقيق هذين الهدفين بواسطة إحداث مكتبة وتنظيم محاضرات موجهة إلى قدماء الصادقية والقيام بإلقاء محاضرات موجهة إلى عامة الشعب. وقد استطاعت جمعية قدماء الصادقية أن تنظم خلال عام حوالي ٤٨ محاضرة منها ٢٧ محاضرة في مقرها و ٢١ في أحياء المدينة. لقد كانت الغاية من هذه المحاضرات الحفاظ على الفكر الصادقي ونشره بين الجماهير الشعبية، وبالتالي تحقيق نهضة أدبية وفكرية لدى التونسيين. وقد صرح علي باش حمبة قائلاً^(٣):

«في اليوم الذي نصل فيه إلى تربية عامة الشعب بنشر الأفكار العصرية، والتعريف بالعلوم وتقريبها إلى الأذهان نكون قد نجحنا في إيقاظ النشاط والإسراع بتطوير بلادنا نحو وضع أكثر تلاؤماً مع متطلبات العصر». أما نشاط هذه الجمعية:

التمسك بالمنهج الأصلي الذي رسمه خير الدين، ثم المحافظة على الألفة الاجتماعية بين القائمين على المدرسة و أنصار الصادقية، وتتميتها و بناء أكبر قدر ممكن من المكتبات والقاء المحاضرات، وتعليم العربية للتونسيين ولغير التونسيين مع

(١) الساحلي: مرجع سابق، ص ٩٤.

٢- المحجوبي، علي: جذور الحركة الوطنية التونسية، مرجع سابق، ص ١٣٣.

٣- المحجوبي: مرجع سابق. ص ١٣٤

تقديم الجوائز المشجعة وإرسال كل من يريد استكمال دراسته بالخارج، أما الأثر الأكبر لأعضاء هذه الجمعية وقوفهم مع القضايا العربية ولا سيما بعد هجوم إيطاليا على طرابلس الغرب عام ١٩١١، وفي مقدمتهم علي باش حمبة ثم كان لهم موقفاً حاداً تجاه قضية الزلاج^(١)، وفي عام ١٩١٢ دعوا إلى الإضراب بسبب حوادث التراموي^(٢). إن مشاركة عناصر من قداماء الصادقية في تأجيج المظاهرات والاضطرابات ضد سلطات الحماية التي لا تريد مشاكل مع جارتها إيطاليا أدى إلى تضيق الخناق على زعماء الصادقية، ثم نفهم إلى خارج البلاد مما أدى إلى ضعف واضح في نشاط هذه الجمعية، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فانقطع نشاطها حوالي عشرة سنوات منيت الجمعية بتهديم ناديها فنقلت مكتبتها وأوراقها إلى مقر الجمعية الخلدونية. وبعد عام ١٩٣٠ تميز قداماء الصادقية بنشاط واضح فكان لهم الفضل في تأسيس جمعية أحياء الطلبة، فعملت على تلافي النقص الذي لوحظ في المنح والقروض التي كانت إدارة التعليم العمومي تمنحها للطلبة التونسيين، وكانت في سنواتها الأولى تقيم حفلات وتجمع التبرعات. ومن الجمعيات النشيطة التي تأسست بإشراف جمعية قداماء الصادقية الشبيبة المدرسية حيث تم تأسيس هذه الجمعية في ١٩ آذار ١٩٣٤ بإيعاز من المرحوم الطاهر صفر الرئيس السابق لجمعية قداماء تلامذة المدرسة الصادقية عام (١٩٣١ و ١٩٣٢)، وكان اتجاه هذه الجمعية لا يخلو من الطابع السياسي على الرغم من التظاهر بالنشاط الثقافي و الترفيهي. ولكن الموقف الواضح لنشاط هذه الجمعية

(١) جرت إحداث الزلاج ٧ تشرين الثاني ١٩١١ عندما قررت بلدية مدينة تونس التي يسيطر عليها العنصر الفرنسي تسجيل مقبرة الزلاج الإسلامية باعتبارها ملكاً من أملاك المدينة والحقيقة هي وقف من أوقاف المسلمين وعندما اتخذ القرار لم يتم استشارة أعضاء المجلس البلدي المسلمين فأدلى إلى وقوع اصطدامات وإطلاق نار بين المتظاهرين والسلطات الفرنسية وأدى إلى وقوع عدد من الضحايا بين الجماهير. انظر . العجيلي : مرجع سابق ، ص ٢٠٧

(٢) حوادث التراموي ١٩١٢ بسبب قيام سائق تراموي بدهس طفل تونسي مما أدى إلى اضطرابات وحوادث عنف بين التونسيين والاطاليين ويبدو أن العمال التونسيين كانوا مستاءين من قبل الحادث بسبب التميز في الأجور وعدم المساواة وكان لباش حمية دوراً كبيراً في هذه الحوادث. انظر . العجيلي : مرجع سابق ، ص ٢١٤

ظهر عام ١٩٤٨ عندما قامت بجمع تبرعات للشعب العربي الفلسطيني، ثم ظهر دور هذه الجمعية بشكل أوضح بعد الخمسينيات.^(١)

لقد كانت الغاية من هذه الجمعية المحافظة على النهج التي قامت من أجله المدرسة الصادقية التي أسسها الوزير خير الدين. حيث إن هذه الجمعية باعتقادها أن معظم الطلبة الصادقية قد اندمجوا في الجمعية الخلدونية، وهي برأيهم جمعية تقليدية لا تواكب التطورات فكان لا بد من إنشائها، وقد اتبع هؤلاء الشبان طريقة جديدة في إيصال صوتهم إلى الخارج عن طريق المحاضرات ودعوة المفكرين الفرنسيين لإلقائها لعل هذه الطريقة تساعد على الوصول إلى الاستقلال.

(١) عبد السلام: مرجع سابق، ص ٧٢-٧٧.

٦ - حزب تونس الفتاة:

تأسس حزب تونس الفتاة عام ١٩٠٧ متأثراً بحزب تركيا الفتاة^(١) ويمكن تشبيه هذا الحزب بالحزب الوطني المصري من حيث الأهداف.

أما سبب تأسيس هذا الحزب فيعود إلى سياسة الحماية نفسها، وذلك عندما قررت السلطات الفرنسية تجنيس اليهود في تونس كما فعل (krimio) كريميو في الجزائر من قبل، وقد شن الزعماء التونسيين حملة على مبدأ تجنيس اليهود، ودعوا إلى مقاطعة المتاجر اليهودية مما أدى إلى رواج التجارة الوطنية، وأهم من ذلك تكوين حزب سياسي هو حزب التقدم الذي يدعو إلى مشاركة الوطنيين مشاركة فعالة في حكم البلاد مع بقاء نظام الحماية^(٢)، وعندما نذكر حزب تونس الفتاة لا بد من ذكر علي باش حمبة الذي يعد بحق زعيم هذا الحزب كما ضم الحزب بعض خريجي المدارس الفرنسية أمثال عبد الجليل الزواش كما دخل إلى هذا الحزب الشيخ عبد العزيز الثعالبي خريج الزيتونة.

وقد أصدر الحزب مجلة التونسي الناطقة بالفرنسية عام ١٩٠٧ وفي عام ١٩٠٩ أصدر الثعالبي أول نسخة من هذه الجريدة باللغة العربية استمرت بالصدور حتى عام ١٩١٢.

(١) حزب تركيا الفتاة : (جون تورك) وهي منظمة سرية أنشأها الشبان الأتراك في سالونيك وهدفها القضاء على حكم السلطان عبد الحميد الاستبدادي وإقامة حكومة تقوم على الانصهار لكل الأجناس في بوتقة واحدة وكانت خليطاً من أجناس وأديان مختلفة.

لقد تأثرت الحركة بآراء الفيلسوف / ضياء جوكلب / الذي انطلق من الفكرة القائلة بأن الوسيلة الوحيدة للخروج من المأزق الملازم للإمبراطورية إنما هي فرض شعور قومي واحد على أبنائها. لكنه رأى فيما بعد من أن الشعور القومي العثماني لا يمكنه القيام بهذا الدور حيث كان اصطناعياً وقائماً بالحقيقة على الولاء للأسرة الحاكمة ولكن تقوية السلطة المركزية التي نادى بها أعضاء هذا الحزب وأتباع سياسة التتريك دفع الأرمن إلى تتريك فكرة القومية الأرمنية وكذلك فعل العرب والألبان والأكراد. انظر. رفعت ، محمد : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته

السياسية ، دار المعارف مصر (د. ت)، ص ٣٣٠

(٢) العقاد: مرجع سابق، ص ٣٢٣.

لقد كان أفراد هذا الحزب بوجه عام معجبين بالثقافة والمدنية الفرنسية واعترضوا على فكرة الاستعمار. وكانت مطالبهم تتمحور حول تحسين مستوى الحياة الاقتصادية والثقافية للشعب التونسي والعمل بدستور ١٨٦١ كما طالبوا بإدخال نظام ليبرالي فرنسي وتحديثات في البنية السياسية والمساواة مع الفرنسيين في الحكم وإعادة تنظيم القضاء تحت اسم الليبرالية.

لقد اتجه زعماء الحزب إلى مخاطبة رجال القانون في فرنسا للتعاون معهم في سبيل تحقيق مطالبهم فتجلى هذا التقارب في بناء العديد من المدارس والمعاهد الفرنسية.^(١) وفي الوقت ذاته لم يتخل أتباع الحزب عن الإسلام والتراث الإسلامي وإنما اعتبروا الدولة فوق الدين، ولكن الحزب لاقى معارضة من

١- الفرنسيين: الذين كانوا ينظرون أن كل مسلم ينتمي إلى حركة الجامعة الإسلامية.

٢- الشعب التونسي: لم يتقبل الشعب هذه الأفكار فهي أفكار يصعب على الشعب التونسي تقبلها. إضافة إلى أن أغلب أعضائها كانوا من الطبقة الارستقراطية وصلتهم بالشعب ضئيلة.

٣- بعض الأعضاء الفاعلين فيها ولا سيما عبد العزيز الثعالبي المثقف بالثقافة التقليدية القديمة^(٢).

لقد كان حزب تونس الفتاة أول حزب بالمعنى السياسي، حيث أدركت الطبقة المثقفة التونسية أن خير طريق للحصول على الاستقلال والنهوض بالدولة هو الأخذ من الحضارة الأوربية بما يتناسب مع ثقافتها والنهوض بالبلاد حتى يكتسب الشعب سلاحاً قادراً على مواجهة الاستعمار مع عدم التخلي عن ثقافته ودينه لذلك وجد تياران في هذا الحزب:

١- تيار يدعو إلى الأخذ من المدنية والحضارة الأوربية.

(1) Hibou, Beatrice: Tunisie d un reformisme a lautre, paris, p 24.

(٢) قدورة: مرجع سابق. ص ٤٧٢ - ٤٧٣.

٢- تيار إسلامي يدعو إلى التمسك بالإسلام وعدم الأخذ من فرنسا وكثيراً ما اختلف التياران

وأخيراً تم حل هذا الحزب إثر حوادث الزلاّج والتراموي ،حيث تعرض زعماء الحزب إلى النفي والقسم الآخر للسجن، إما إتباع الحزب فقد ظلوا يعملون بالخفاء من خلال توزيع المنشورات والقيام بالدعايات، وكانت السلطات الفرنسية تتابع نشاطهم حتى القبض عليهم في منزل الامير محمد الحبيب الذي أصبح باياً فيما بعد ^(١)

كان ظهور الجمعيات و المدارس والأحزاب نتيجة احتكاك التونسيين بالجاليات الأوربية، واطلاعهم على التقدم الذي وصلت إليه أوربا في جميع مجالات الحياة، فحاولت الطبقة المثقفة وضع الحلول و الطرق للوصول إلى ما وصلت إليه أوربا، و استطاع هؤلاء الشبان ان يتعلموا اللغة الفرنسية، ومبادئ السياسة ويكونوا ندّاً للفرنسيين، ومع ذلك لم يطالب الشباب التونسي بالاستقلال في هذه المرحلة فكل مانادى اليه هو المساواة مع الفرنسيين حسب الاتفاقية الموقعة ١٨٨١ وإجراء إصلاحات إدارية. اما القضايا الاقتصادية و الاجتماعية فلم تنل الاهتمام الكافي فبقي اغلب الشعب بعيداً عما يجري حوله.

١ - الفاسي : مرجع سابق ، ٤٨ ص

الفصل الثالث

الحياة السياسية في تونس ١٩١٨ - ١٩٤٥
(الأحزاب السياسية و النقابات العمالية)

- ١ - الحزب الحر الدستوري القديم.
- ٢ - الحزب الحر الدستوري الجديد.
- ٣ - الحركة النقابية العمالية.

تميزت المرحلة السياسية بين عامي ١٩١٢-١٩١٨ بهدوء سياسي نسبي، فلم يعد لرجال السياسة دور وذلك بسبب أحداث الحرب العالمية الأولى، ولأن أغلب القادة السياسيين تعرضوا إما للنفي أو للسجن و أغلقت أبواب حزب تونس الفتاة. بقيت الأمور على حالها حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى التي افرزت تغيرات عالمية في موازين القوى و انتهت الدولة العثمانية التي حكمت فترة طويلة من الزمن و ظهرت مفاهيم جديدة في العالم مثل السلام وحقوق الإنسان و حق الشعوب في تقرير مصيرها. لذلك تغيرت طرق المواجهة مع الاستعمار إذ ان الكفاح المسلح في ضوء عدم وجود التوازن بين القوى لن يجد نفعاً، لابد من وجود المؤسسات السياسية التي تعبر عن الكفاح المسلح و تدافع عنه.

١ - الحزب الحر الدستوري القديم:

يعود سبب نشوء الحزب الحر الدستوري إلى عوامل داخلية و عوامل خارجية:
العوامل الداخلية: عاشت تونس خلال الحرب العالمية الأولى ظروف اقتصادية و سياسية صعبة جداً، تعثرت الزراعة و توقفت الصناعة والتجارة؛ بسبب الغلاء الفاحش في أسعار المواد الأولية، وفقدان اليد العاملة إذ أن معظم الشباب في جبهات الحرب. هذا الوضع انعكس على المجتمع الذي أصبح مجتمعاً استهلاكياً بشكل كبير، كون الريف افرغ من اليد العاملة، وشهدت الحركة السياسية هدوءاً نسبياً ولاسيما في الأرياف و البلدات، واقتصرت النشاط السياسي على المهجر حيث كان زعماء النشاط السياسي قد تركوا تونس ليتابعوا نشاطهم وخاصةً في العاصمة الأستانة.^(١)

إضافة إلى هذا الوضع السيئ الذي شهدته تونس، فقد سنت السلطات الفرنسية قانون الثالث الاستعماري المتمثل في رفع أجور الموظفين و العمال الفرنسيين بنسبة ٣٣ % مع تعميق الفوارق بين الفرنسيين و التونسيين، مما دفع بالمتقنين إلى الخوف من قيام السلطات بمضايقتهم في العمل وخاصة المحامين لذلك انضم هؤلاء إلى الحركة الوطنية^(٢).

١- بن ميلاد، ادريس: مرجع سابق، ص ١٨٢ .

٢- الشاطر: مرجع سابق . ص ٨٦ .

العوامل الخارجية: أدت نهاية الحرب العالمية الأولى إلى تغيرات مهمة في العالم، فقد انهارت الدولة العثمانية و ألمانيا، وظهرت الولايات المتحدة الأمريكية على مسرح الأحداث، وقيام الثورة الشيوعية في روسيا^(١)، والدعوة إلى شن هجوم على الاستعمار، وتحرير الشعوب المستعمرة، وظهور مبادئ ويلسون^(٢) الأربعة عشر ولا سيما حق الشعوب في تقرير مصيرها إضافة إلى الأحداث العربية التي كانت تشهدها سوريا و مصر. كل ذلك أدى إلى تغير في تفكير التونسيين، فبدؤوا العمل للنهوض ببلادهم وتخليصه من الاستعمار الفرنسي.

وكما خاب العرب والعالم المضطهد بمبادئ الرئيس ويلسون وبآمال الدول المنتصرة في الحرب بريطانيا - فرنسا خاب أمل التونسيين فلم يكن أمامهم سوى التوجه إلى الرأي العام الفرنسي لإسماع صوت بلادهم^(٣)، فقام الشيخ عبد العزيز الثعالبي^(٤) بالسفر إلى باريس عام ١٩١٩ وكان زميله أحمد السقا^(١)

١ - الثورة الشيوعية هي الثورة التي قامت في روسيا عام ١٩١٧ ضد حكم القيصرية وأنهت الحكم القيصري ، كانت بزعامة لينين ، اما مصطلح الشيوعية فيعود إلى العام ١٩٠٣ عندما انقسم الحزب الاشتراكي إلى قسمين .
تزعّم الأول يليخانوف وكان يسمى بالأقلية (المونشفيك) . والثاني تزعمه لينين وكان يسمى بالأكثرية (البولشفيك) ، دام الصراع فترة ثم انتصر البولشفيك واستلم السلطة . انظر الكيالي : مرجع سابق ، ص ٢٣٦ .
(٢) توماس تيودور ويلسون (١٨٥٦ - ١٩٢٤) الرئيس السابع والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية، درس القانون ومارس المحاماة شارك في الحرب العالمية . فرجحت كفة الحلفاء وأعلن مبادئه الأربعة عشر لعقد الصلح في ٨ كانون الثاني ١٩١٨ وسافر إلى أوروبا حاول في مؤتمر الصلح بفرساي أن يضع أسس مجتمع عالمي جديد يقوم على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها . انظر . بو الحضرة : مرجع سابق ، ص ٤٦
(٣) نعيسة . مرجع سابق ، ٤٣٨ .

٤ - كان الثعالبي يدرك تماماً أنه لأحد سوف يسمع لصوت الشعوب المستعمرة ، فقد سأله حسن قلائي قبل الذهاب إلى المؤتمر : «هل ستطبق مبادئ ويلسن في المستعمرات الفرنسية في الشمال الأفريقي ، فأجابه الثعالبي أتظنني طفلاً ، إنها سأذهب لأعرض قضية بلدي أمام الساسة الفرنسيين .» انظر الثعالبي : مرجع سابق ، ص ١٤

٤ - عبد العزيز الثعالبي : هو عبد العزيز بن عبد الرحمن الثعالبي أصله جزائري ، ولد عام ١٨٧٤ في تونس ، تولى جده رعايته فحفظ القرآن ، ثم دخل مدرسة باب سويقة الابتدائية والتحق بجامعة الزيتونة ، ولكنه لم يكمل دراسته بسبب موقفه من بعض القضايا الدينية فاتهم بالزندقة ، شارك بتأسيس حزب تونس الفتاة ، واصل جريدة التونسي

قد سبقه إلى هناك لعرض قضية تونس والاتصال بالرأي العام الفرنسي ليشرح قضية بلاده مستفيداً من الجناح اليساري الفرنسي، وفاضلاً مساوئ نظام الحماية في بلاده، بعد أن كانت تونس قد أخذت السير على طريق التقدم في الفترة السابقة لدخول الفرنسيين. ثم شرح لهم كيف أدت سياسة التوطين واغتصاب الأراضي إلى بؤس الطبقة الكادحة وفقرها بعد الحماية ثم استند إلى حقوق الشعب الطبيعية في تولي أموره بنفسه للوصول إلى ضرورة تطبيق الحكم الوطني، وقد ترجم الثعالبى أفكاره إلى كتاب بعنوان « تونس الشهيدة » ألفه بالفرنسية بمساعدة زميله أحمد السقا ليبين من خلاله مساوئ نظام الحماية.^(٢)

قام الثعالبى بجولات دعائية في المحلات العمومية وأكثر من الخطب والمقالات الصحفية مستنداً إلى دعم الحزب الاشتراكي الفرنسي. ولم يقتصر العمل على ذلك بل قام بدفع الأموال للصحف الأجنبية التي تعرض في صفحاتها قضية بلاده مثل جريدة لوميني لسان الحزب الشيوعي الفرنسي. وبهذه الأعمال يكون الثعالبى قد عرض قضية بلاده على الشعب الفرنسي مستفيداً من وقوف الاشتراكيين إلى جانبه، ولكن هؤلاء كانوا ينظرون إلى القضية التونسية نظرة إنسانية مع ضمان مصالحهم حيث من غير المعقول أن يطيح هؤلاء بآمال فرنسا لأجل الثعالبى وغيره فهم عندما وقفوا إلى جانبه كانوا يريدون تحقيق إصلاحات دستورية واقتصادية للتونسيين، وبالطبع مصالح فرنسا

بالغة العربية، زار بلدان عربية وإسلامية كثيرة، كان له مواقف وطنية وقومية. أهمها وقوفه مع القضية الفلسطينية، يعتبر الزعيم الوطني الأول في مطلع القرن الواحد والعشرين، له العديد من المؤلفات أهمها . تونس الشهيدة _ روح التحرر في القرآن - تاريخ الأديان والمذاهب ، توفي في تونس ١٩٤٤ بعد عمر قضاه في التنقل و السفر خدمة لقضايا أمته العربية والإسلامية ، انظر الثعالبى : مرجع سابق ، ص ١٠ - والجندى ، انور : عبد العزيز الثعالبى رائد الحرية والنهضة الإسلامية ، ط ١ ، دار الغرب ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٨٨ .
- ولد أحمد السقا بالمنستير في ٣ آذار ١٨٩٢ وكان والده يشغل وظائف هامة في الإدارة التونسية، أكمل دراسته العالية في باريس وحصل على الدكتوراه في الحقوق، تزوج من فرنسية عام ١٩١٧، كان يتميز بنشاط وذكاء حاد طوال سنين دراسته. انظر بو الخضرة : مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(١) الناضوري، رشيد وآخرون : تاريخ المغرب العربي الكبير، دار القومية للنشر، الإسكندرية، مصر ٢٠٠٠، ص

١٠٧٧ .

سوف تبقى فوق كل المصالح وإن كان هؤلاء يساريين أو يمينيين أو شيوعيين. وكما خيبت مبادئ ويلسون الآمال خابت آمال الثعالي في تشرين الأول ١٩١٩ وتمت هزيمة الحزب الاشتراكي الفرنسي في الانتخابات، هذه الانتخابات وهزيمة الداعم للوطنيين أحدثت تحولاً في مسار الحركة الوطنية إذ أدرك التونسيون أن العمل بالخفاء قد انتهى وبدأ العمل الجاد و الاعتماد على النفس.

عقد الوطنيون أول اجتماع لهم في آذار عام ١٩١٩ حضره ثلاثون مندوباً من المسلمين واليهود واتخذوا من مبادئ تونس الفتاة برنامجاً لهم، ثم شكلوا الحزب التونسي الذي لم يكن حزباً بالمعنى المتعارف عليه، بل كان تجمعاً وطنياً غايته تحقيق بعض الإصلاحات في الهيكل الإداري في تونس^(١). لقد قام بعض الوطنيون بتشكيل هذا الحزب عندما كان الثعالي في فرنسا وبالطبع كان هو المخطط لهذا الحزب، لم تقف السلطات الفرنسية مكتوفة الأيدي جراء اتساع نشاط الحركة الوطنية فأسرعت إلى ألقاء القبض على العقل المدبر الشيخ الثعالي بباريس ونقله مكبلاً بالأصفاد إلى تونس وأقامت دعوة عليه بحجة التآمر على أمن الدولة. ولما رأت هياج الشعب وحماسه واندفاعه في الدفاع عن زعيمه اضطرت إلى إطلاق سراح الثعالي^(٢).

كان برنامج الحزب يطالب:

- ١- ضرورة إنشاء مجلس تشريعي وإشراك العناصر الأوربية إلى جانب العناصر الوطنية من أجل الوصول إلى مكاسب سياسية.
- ٢- إنشاء حكومة مسؤولة أمام المجلس.
- ٣- إنشاء جيش وطني.
- ٤- استعادة الأراضي التي حصل عليها المستوطنون.
- ٥- فتح الباب أمام التونسيين لجميع الوظائف.
- ٦- تطبيق الديمقراطية والحريات العامة.^(٣)

(١) الثعالي : تونس الشهيدة، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) البلهوان: مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣) - الناضوري : مرجع سابق، ص ١٠٩٦

على ما يبدو أن الحزب أدرك عدم تحقيق ذلك؛ بسبب معارضة كل من الباي و المقيم العام، فالبنود جميعها تصب في مصلحة الشعب التونسي، على الرغم من أنها لم تطرح فكرة الاستقلال

نتيجة معارضة كل من الباي و المقيم العام اجري تعديلات على هذا البرنامج من خلال مطالب يغلب عليها الصفة الإصلاحية وعرفت هذه المطالب بالمطالب التسعة:

١- تكوين مجلس تشريعي من تونسيين وفرنسيين بالانتخاب العام على أن تكون له صلاحيات واسعة فيما يتعلق بأمور الميزانية.

٢- تشكيل حكومة مسؤولة أمام المجلس التشريعي.

٣- الفصل بين السلطات الثلاث التشريعية- التنفيذية- القضائية.

٤- مساواة الفرنسيين مع الموظفين التونسيين في الأجور.

٥- تكوين مجالس بلدية منتخبة.

٦- مساواة التونسيين والفرنسيين في الوظائف العامة إذا توفرت فيهم الشروط المطلوبة.

٧- جعل التعليم إجباري.

٨- السماح للتونسيين بالتمتع بحق شراء الأراضي.

٩- إطلاق حرية الصحافة والاجتماعات. ^(١)

أراد الحزب الدستوري إلغاء سلطة المقيم العام من جهة وإبعاد الفرنسيين عن المجلس الكبير ذي الأغلبية الكبيرة في التمثيل. إذ أن المقيم كان المسؤول الأول عن هذا المجلس وبالتالي كل القرارات المقدمة له سوف تتال الموافقة كونها لصالح الجالية الفرنسية، لهذا يجب إشراك العنصر التونسي و بإعداد كبيرة من منطلق انهم أصحاب البلاد الشرعيين و يقررون مصيرهم والمقيم يصبح عضواً مثل باقي الأعضاء، ثم مطلب المساواة للشعب التونسي فهذا حق من حقوقه، وبالتالي على السلطات أن تعمل على تحقيق ذلك وإلغاء الثلث الاستعماري.

(١) راشد، أحمد إسماعيل : تاريخ وأقطار المغرب العربي الحديث والمعاصر، ط ١، دار النهضة بيروت ٢٠٠٤،

باعث هذه المطالب بالفشل أيضا، مما دعا بالحزب إلى مراجعة سياسته؛ من اجل اتخاذ خطوات أكثر جدية تجاه المستعمر الفرنسي، فكانت الخطوة الأولى جذب الباي محمد الناصر (١٩٠٤ - ١٩٢٣) لتأييد سياسة الحزب، فتبنى مطالب الوطنيين بتشكيل مجلس نيابي ووضع دستور للبلاد. اثار هذا العمل المقيم العام الذي حاول الضغط على الباي للتخلي عن الوطنيين لكنه فشل، فقام بإغراء احد الصحفيين بنقل أخبار عن الباي باتهامه الوطنيين بالشيوعية في محاولة للتفريق بين الباي و الوطنيين، غير أن تهديد الباي الاستقالة احدث نوع من الهيجان الشعبي في الشارع التونسي.^(١)

ام يستغل الحزب فرصة الهيجان الشعبي التي نتجت عن تهديد الباي بالاستقالة، ليقوم بعمل يعزز موقعه على الساحة التونسية، حيث كان الشعب التونسي في حالة غليان، وانما قام بجمع الاشتراكات وزيادة عدد المنسبين إليه وإرسال الوفود التي توجهت في مطلع عام ١٩٢٢ بقيادة احمد الصا في إلى باريس لعرض مطالبهم المتضمنة:

١- المساواة في انتخابات المجلس الكبير.

٢- حرية الانتخابات في المجالس البلدية.^(٢)

ولتلافي الموقف، و تنامي الحركة الوطنية عمدت الحكومة الفرنسية بقيادة المقيم لوسيان سان إلى إصدار إصلاحات شكلية في ١٣ تموز ١٩٢٢ تضمنت إنشاء أربعة لجان: لجنة المجلس الكبير وتوسيع مشاركة التونسيين و لجنتي الأشغال والمالية و المجالس الإقليمية و مجالس القيادة، لكن الحزب رفض هذه الإصلاحات ودعا إلى إضراب عام في ٥ أيلول شارك فيه كل طبقات المجتمع وفي المقدمة القضاة.^(٣) أن إصلاحات ١٩٢٢، ونجاح سلطات الحماية باستمالة حسن قلاتي أدى إلى انقسام الحركة الوطنية، وبرز عدة تيارات سياسية:

(١)- العقاد : مرجع سابق ، ص ٣٢٧ .

(٢)- يحيى .، جلال : العالم العربي الحديث ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٦٩٦

(٣)- الناضوري : مرجع سابق ، ص ١٠٩٨ .

- ١- الاتجاه الموالي للشيوعية المعادي بقوة للاستعمار، واغلب أعضاء هذا الفريق من المدرسين و موظفي البريد و الهاتف.
- ٢- الاتجاه المعادي للوجود الفرنسي، ويطالب بالاستقلال الكامل ويمثله عبد العزيز الثعالبي.
- ٣- الاتجاه الثالث يتزعمه احمد الصافي ^(١) وكان يطالب بإصدار دستور ينص على إيجاد مجلس استشاري مشترك، وحكومة مسؤولة أمامه.
- ٤- الاتجاه الرابع يطلق عليهم المعتدلين، وعلى رأس هذا التيار يقف حسن قلاتي الذي أسس الحزب الإصلاحي الذي يرى انه لاسبيل للحصول على الدستور إلا بعد التمهيد له بمراحل عديدة، ويقترحون انتخاب مجلس تمثيلي يتألف نصفه من التونسيين والنصف الثاني من الفرنسيين، و للمساهمة في السياسة التونسية يرشح الشعب عنه ثلاث نواب لتمثيلهم في باريس. بقي هذا الحزب مستمراً حتى ١٩٢٦ حيث انحل الحزب بعد فشل زعيمه في انتخابات عضوية المجلس الكبير. ^(٢)
- ٥- في اواخر ١٩٢٢ ظهرت حركة باسم الحزب الدستوري المستقل يتزعمها فرحات بن عياد الذي كان مبعوثاً للحزب الدستوري بباريس، وكان يدعو إلى تعاون مع السلطات للحصول على الاستقلال، لكن حركته باءت بالفشل بعد أن تقلد وظيفة في القصر الملكي ^(٣)

موقف الشعب التونسي من الحزب الدستوري

لم يكن الشعب التونسي بعيداً عن السياسة ومجريات الأحداث بل كان يستمد إحساسه بالخطر من جامع الزيتونة وتلامذته. ولعل أول ردة فعل قام بها الشعب

١- احمد الصافي : من زعماء الحزب الدستوري القديم ، ولد في تونس العاصمة ، وتعلم بها انضم إلى الحزب ١٩١٩ ، ترأس عدة وفود إلى باريس ليشرح قضية بلاده ، له علاقات قوية مع الأحزاب اليسارية . انشق عن الحزب القديم ١٩٢٢ ليؤسس الحزب الإصلاحي ، لكنه عاد إلى صفوف حزبه القديم ١٩٢٦ و انهار الحزب الإصلاحي . انظر بو ذيبة : مرجع سابق ، ص ٦١ .

٢- بن ميلاد ، ادريس : مرجع سابق ، ص ٢١٨ .

٣- بن قفصية، عمر : اضواء على تاريخ الصحافة التونسية ، دار بو سلامة للنشر ، تونس ، ص ٢٧

لصالح الحزب هو سخطه على اعتقال الثعالبي، وقيامه بالمظاهرات والاضطرابات، فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى إطلاق سراحه، وعندما تم إطلاق سراحه اجتمع الشعب حوله بمختلف شرائحه من عمال شركة الترام والسكك الحديدية ومدرسة الصادقية وشيوخ الزيتونة، فقام الحزب بتأسيس شعب له في جميع أنحاء البلاد وركز على الشمال و الساحل التونسي كبنزرت ورأس الجبل وماطر، وكان رؤساء هذه الشعب محامين أو ملاكين أو مديري مدارس قرآنية من موظفين أو من أعيان البلد وأغنيائه، فكانت هذه الشعب تنتشر الوعي بين صفوف الشعب ثم كان للصحافة دور كبير في إثارة الحماس الشعبي ولا سيما جريدة الصواب. .

لم يقف الشعب التونسي إلى جانب الحركة الدستورية بقيادة الثعالبي فقط، بل قاموا بجمع التبرعات الداعمة لنشاطه. هذا التضامن يدل على مدى قوة الحزب و متانة علاقته مع أعضائه، وقدرته على توجيه الشعب نحو اهدافه. ضم الحزب الحر الدستوري الكثير من فئات الشعب وخاصة شيوخ وتلاميذ الزيتونة، المثقفين و الصناع و التجار، مما دفع إدارة الحماية إلى التصريح بان الحزب الدستوري حزب الرجال المخلصين.^(١)

نتيجة وجود هذا الحزب و دعمه من قبل ابن الباي الوريث الشرعي للحكم في المستقبل جعل فرنسا في مأزق، لذلك اتجهت اتجاهاً مغايراً عن طريق استمالة الباي محمد الذي كان قبل اعتلاء العرش مؤيداً للمطالب الوطنية وصديقاً للأستاذ الثعالبي. فلما اعتلى العرش جعل مصلحته مع الفرنسيين ولم يدع وسيلة من وسائل القهر والاضطهاد والضغط إلا وأخذ بها. كما أن فرنسا استطاعت أن تتجح في زرع الخلاف و الانشقاق داخل الحزب، مما دفع بالثعالبي إلى ترك البلاد و التوجه نحو المشرق العربي ليتابع نضاله السياسي^(٢).

(١) مناصرة : مرجع سابق، ص ٧٤.

(٢) مسعود بن الخضرة : مرجع سابق، ص ٥٠.

نشاط الحزب الدستوري الحر.

- ١- السعي بشكل مستمر إلى تركيز العقيدة الدينية على دعائم متينة وتعميق جذور التوجه العربي حيث كانت توجهات الثعالبي إقامة وحدة إسلامية وتعميق الصلات مع الأقطار العربية والإسلامية.
- ٢- مقاومة البدع والعادات الباطلة التي تنتافى والخلق الإسلامي الكريم من ذلك الشعوذة والمعتقدات في الزوايا والتوابيت والقبور ولا شك أن زيارة الشيخ محمد عبده إلى تونس كان لها أثر كبير في ذلك.
- ٣- التصدي بحزم لكل حركة إصلاحية سياسية كانت أو اجتماعية تبرز في البلاد والقضاء عليها بسرعة، ولعل هذا التصرف كان الدافع إليه خوف القادة من انقسام الشعب إلى مجموعات وكتل متناحرة.
- ٤- العمل على التأثير بالباي ورجال قصره من أجل إيجاد الانسجام بين الراعي والرعية.
- ٥- الوقوف مع الشعب بكل الإمكانيات للتصدي للسياسة الفرنسية وفضح ممارسته، تجلّى ذلك بالمظاهرات التي قام بها الشعب التونسي احتجاجاً على إقامة تمثال للكاردينال لافيجيري عام ١٩٢٥، حيث دعا الحزب إلى مقاطعة الاحتفالات والتتديد بالسياسة الفرنسية.^(١)
- لقد كانت حركة الثعالبي ورفاقه تدعو إلى إجراء إصلاحات في تونس ووضع دستور للبلاد مع بقاء الارتباط بالدولة الحامية لعل هذه الإصلاحات برأيهم تقود إلى الاستقلال. فاعتمدت على تقديم العرائض و الاحتجاجات، ثم تحول بحكم الظروف إلى حزب سياسي.

(١) عبد الله، إبراهيم: شروق وغروب، ج ١، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، سوسة (د.ت)، ص ١٧-١٨ .

٢- الحزب الدستوري الحر الجديد:

لقد كانت ثلاثينيات القرن العشرين نقطة تحول في تاريخ تونس الحديث والمعاصر حيث ظهر إلى الواجهة حزب يسمى الحزب الدستوري الحر الجديد الذي استطاع أن يغير في مسار الحياة السياسية.

فما هي الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا الحزب على الساحة السياسية:

١- الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٢٩. ^(١)

٢- الأوضاع الداخلية في تونس ولا سيما الآثار الناجمة عن قضية التجنيس، حيث بدأت تظهر نتائجها عندما اعتبر الشعب التونسي كل من يتجنس كافراً مارقاً، وليس له الحق في أن يدفن في مقابر المسلمين فتعددت الحوادث العنيفة كلما مات مسلم متجنس. غير أن السلطات الفرنسية تمكنت من الحصول على فتوى من أكبر السلطات الدينية خول من خلالها المرء المتجنس أن يدفن في المقابر بشرط ألا يتخلّى عن عقيدته، وهذا ما جعل تونس تواجه أزمة وجود بالنسبة لشعبها المسلم

٣- عودة بعض الطلبة من فرنسا إلى تونس وهم يحملون أفكاراً جديدة ويبدو هذا هو العامل المهم في إيجاد الحزب الدستوري التونسي الجديد. ^(٢)

كان الحزب الدستوري القديم حتى ١٩٢٩ يعتمد على العرائض و تقديم الاحتجاجات، مما لم يعد يتناسب هذا الأسلوب مع المرحلة الحالية وبخاصة بعد عودة الطلاب من أوروبا يحملون أفكاراً جديدة. الأمر الذي أدى إلى بروز التناقضات و الخلاف حول أسلوب العمل بين أنصار الثعالب أصحاب التفكير التقليدي و جماعة التجديد بقيادة الحبيب بورقيبة ^(٣) أصحاب التفكير العصري. كان الحزب الجديد ينتقي

(١) ظهرت الأزمة في أمريكا ثم انتقلت إلى أوروبا التي صدرتها إلى مستعمراتها. فانهارت أسعار المنتجات الزراعية في تونس وأصبح الصانع عاجزين عن منافسة البضائع الأجنبية (الفرنسية) وانتشرت البطالة ونزح السكان من الأرياف إلى المدن وأصبح شبح المجاعة يخيم على البلاد التونسية. انظر الساحلي: مرجع سابق، ص ١٣٣.

(٢) الشريف: مرجع سابق، ص ١١٩.

(٣)- الحبيب بورقيبة: ١٩٠٣-٢٠٠٠ ولد في المنستير بتونس درس القانون والعلوم، رئيس تونس بين عامي ١٩٥٧-١٩٨٧ قاد النضال ضد الفرنسيين تعرض للسجن مدة عشرة سنوات، طور بورقيبة نظام القضاء، وأعطى

عناصره من بين المثقفين المتوسطي الحال والبعيد عن الارستقراطية والبرجوازية، و الكثيرون من أعضائه كانوا قد ناضلوا في فرنسا داخل الأحزاب اليسارية.

ومعظمهم كان يؤمن بمبادئ الحرية والقومية التي تلقوها كون هذه الحرية هي أساس العظمة الفرنسية، ويؤكدون السيادة التونسية في المظهر الشرعي للأمة التونسية حسب القانون العام الدولي، وبالتالي فإن الشعب التونسي هو الذي يجب أن يقرر السيادة عن طريق الانتخابات، ويجب فصل السلطة الإدارية عن القضاء كما أن ضمان الحرية الشخصية سواء الخاصة بالمواطنين أو الخاصة بالمقيمين الأجانب لا يمكن أن تكون إلا من مسؤولية السلطة العدلية. لم يتأثر البرنامج الدستوري بالأنظمة العربية الشرقية المستمدة من الشريعة الإسلامية، بل مستوحاة من القانون العام الغربي الذي تلقاه المحامون على مقاعد وكلليات فرنسا، ومن دستور ١٨٦١ كونه صدر بضغط أوربي (١)

بدأت التناقضات منذ ١٩٣١ عندما قام مجموعة من الشباب التونسي بزعامة بورقيبة بتحويل جريدة الصوت التونسي من أسبوعية إلى يومية للتعبير عن آرائهم في إبراز مفهوم الأمة التونسية بدلا من الأساليب القديمة المنادية بالإصلاح وإشراك التونسي في إدارة البلاد، عاشت الحركة الوطنية مرحلة حرجة من تاريخها، وأصبح الانقسام أمر لا مفر منه، لذلك دعت اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري إلى عقد مؤتمر وطني عام، وانهقد المؤتمر في نهج الجبل ٢ آذار ١٩٣٤ وقد دعا بورقيبة إلى قيام جبهة واحدة تضم كل القوى الوطنية التونسية، وعقد معاهدة صداقة و تعاون مع فرنسا، والعمل على تحرير الشعب التونسي و تركيز النظام الأساسي في البلاد على

المرأة حق التصويت كان له نشاط سياسي و فكري بارز ، ويعد من ابرز رجال الحركة الوطنية التونسية في الفترة

المعاصرة . انظر الشريف : مرجع سابق ، ص ١٢٢

(١) شارل اندريه، جوليان : إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس

١٩٧٦، ص ١٠١-١٠٢

شكل دستور يضمن السيادة التونسية، كما دعا أنصار الحزب الدستوري القديم إلى ترك برنامجهم القديم؛ لأنه كما قال: ^(١) « لم يعد يستجيب للإرادة العميقة للشعب »

بدأ الخلاف والانشقاق بين هؤلاء والحزب الدستوري القديم. حيث أسفر الانشقاق عن ظهور حزبين الحزب الدستوري القديم وهيئته الإدارية اللجنة التنفيذية، والحزب الدستوري الجديد وهيئته الإدارية الديوان السياسي وانتخب الدكتور محمود الماطري ^(٢) رئيساً له والأستاذ المحامي الحبيب بورقيبة أميناً عام. لم يكن الحزب الجديد مختلفاً في مبادئه في الدفاع عن القضايا التي تبناها أنصار الحزب القديم، ولكنه انتقد انتقاداً مريراً ما يسميه البرودة وقلة الحركة، وأخذ ينشر الدعوة لتكوين هياج شعبي للضغط على الإدارة وإرغامها على الاعتراف بالحقوق وتأكيد سيادة الشعب ^(٣) عن طريق مايلي:

- برلمان تونسي منتخب حسب الاقتراع العام.
- الفصل بين السلطات الثلاثة.
- توسيع الدولة التونسية لتشمل كل الموجودين فوق التراب التونسي.
- الاعتراف بالحريات العامة.
- التعليم الإجباري للجميع
- المحافظة على الحياة الاقتصادية للبلاد.

(١) الشريف: مرجع سابق، ص ١٢١،

٢- ولد محمود الماطري عام ١٨٩٨ في تونس نال شهادة الثانوية من المعهد الصادقي ١٩١٨، ثم حصل على الأجازة في العلوم من فرنسا ١٩٢٢، كما نال شهادة الدكتوراه ١٩٢٦، ثم انتخب رئيساً للحزب الدستوري الجديد في مؤتمر نهج الجبل. ساهم في تحرير جريدة صوت التونسي، نفي إلى الجنوب ١٩٣٤ وأفرج عنه ١٩٣٦، ترك رئاسة الحزب ١٩٣٨، وتولى عدة مناصب وزارية توفي ١٩٧٠. انظر بوزنية: مرجع سابق: ٣١٢.

٣- الفاسي: مرجع سابق، ص ١٦٤.

فالحزب لم يطرح هدف الاستقلال التام والنهائي عن فرنسا ولكنه طالب بتحقيق أهداف تجعل كل التونسيين أسياد وتقرر مصير البلاد وقد عبر الحبيب بورقيبة عن وجهة نظره بقوله ^(١):

«حل أزمة المجتمع التونسي يتمثل في استقلال البلاد من ناحية وإيجاد معاهدة صداقة ومودة مع الجمهورية الفرنسية لضمان مصالح فرنسا العليا في تونس من ناحية أخرى».

لقد استطاع زعماء حزب الدستوري الجديد انتزاع الزعامة السياسية من أيدي ممثلي الأسر الحضرية والكبرى وأفسح المجال أمام هذه النخب الصغيرة والشديدة الانسجام والمنحدرة من الأصول البرجوازية الصغيرة لكي تستوعب الجماهير وتوجه حركتها مما أفسح المجال لظهور حزب يحتكر العمل السياسي.

لقد كانت أسس هذا البناء هما العقلنة و العلمانية، وهذا موجود منذ عصر ما قبل الحماية لكن هذا المشروع اصطدم بعقلية المحافظين. وهذا ما ذكره أحد رواد الحزب الدستوري الجديد ذلك بقوله: ^(٢).

«في تونس قسمنا سياستنا إلى مرحلتين، فالمرحلة الأولى ركزنا على المركزية فجلبنا السلطة والنفوذ إلى العاصمة أي الحكومة المركزية لسبب واحد فالشعب التونسي كان شعباً مشتتاً، لا جغرافياً واقتصادياً فقط، وإنما ثقافياً. نجد البدو والعرب الرجل والحضر، وبين هذه الفئات تختلف النفسيات والعقليات. لم يكن هناك قاسم مشترك عدا انتمائهم إلى الحضارة العربية الإسلامية وإلى جانب هذا التفتت، هناك تفتت غذاه الاستعمار مستغلاً هياكل عتيقة. فالتركيز الإداري كان مبنياً على العروش. ومنذ الثلاثينيات كان أول تجمع مركز للشعب التونسي حول الحركة الوطنية التي اتخذت القومية التونسية التي صارت قاسماً مشتركاً. لقد كان هدفنا توحيد التونسيين

(١) الذوايدي، زهير: تحولات العمل الوطني التونسي ١٩٢٩ - ١٩٣٩، ط ١، الأطلسية للنشر، تونس ٢٠٠٣، ص

(٢) المهر ماسي، محمد عبد الباقي: المجتمع والدولة في المغرب العربي، ط ١، مركز دراسات الوحدة بيروت ١٩٨٧،

وإيقاف تيار الفرقة حذفنا القيادات ووضعنا الولايات. . . . وقد أثارت هذه العملية الجريئة حساسية كل الذين اعتادوا على نظام القيادات والعروش وكان بين المحتجين حتى بعض المقاومين والمناضلين. . . »

بعد أن وطد الحزب الدستوري الجديد أقدامه في الشارع التونسي و استطاع أن يكسب اكبر قدر من المؤيدين. بدأ بإكمال ما بدأه الحزب القديم، وهو المطالبة بتحقيق الدستور و إلغاء معاهدة الحماية. هذا اقلق سلطات الحماية، و شعرت أنها أمام حزب صعب المنال، وتعبئة الجماهير بهذه الطريقة سوف يعيق سياسة فرنسا. أصدرت الحكومة الفرنسية في ١٥ نيسان ١٩٣٤ قراراً بإعطاء المقيم العام Beyrouton بيروطن صلاحية إبعاد كل تونسي يقوم بأعمال عدائية ضد سلطات الحماية و الباي أو أسرته، فقام المقيم بإلقاء القبض على مجموعة من الوطنيين وفي المقدمة الحبيب بو رقية، و بعض الشيوعيين و أبعدتهم إلى الجنوب التونسي لعله يحقق الفائدة في ذلك. عمت المظاهرات و الاحتجاجات ضد هذا الأجراء راح ضحيتها عدد من القتلى وعشرات الجرحى، فهدد المقيم العام بنفي أعضاء الحزب إلى جزيرة مدغشقر بعد أن جمعهم في برج البوف على الحدود التونسية - الطرابلسية. لكن هذا الأجراء لم يزد الأعضاء الا تصميم على متابعة الكفاح و تشكل الديوان السياسي الثاني بقيادة الطاهر صفر الذي قدم احتجاج إلى المقيم العام، فأشترط الإعفاء عن الزعماء مقابل عودة الهدوء. فقام الطاهر مع زملائه بتهدة الغاضبين في الشوارع، لكن المقيم تذرع بان الفوضى مازالت موجودة، و استمر في قمعه و استبداده ضد المتظاهرين، وبقيت الأمور في تدهور بسبب إصرار المقيم العام على سياسته و الزعماء التونسيين على مواقفهم حتى ١٩٣٦ حيث تم نقل بيروطن إلى المغرب.^(١)

استلم المقيم العام أرمان قيون زمام الأمور. كان ليبرالياً متفهماً لا يلجأ إلى القوة حتى استنفاد اخر حلوله الدبلوماسية، وقد قام بعد أسبوع من تعيينه باتخاذ إجراءات لتهدة الوضع المشتعل في تونس، مثل العفو عن الطلبة الزيتونيين المحكومين، وسمح للجرائد التابعة لليسار الفرنسي بالدخول إلى تونس بعد ان كانت ممنوعة في الفترة

١- الشاطر: مرجع سابق، ص ١٠٥.

الماضية. كما قام بزيارة إلى الجنوب و الوسط والتقى مع الزعماء المعتقلين، وعندما علم بنوايا الزعماء وانهم لا يضمرون العداء لفرنسا، وكل مطالبهم هي المساواة و العدالة و إقامة العلاقات الودية مع فرنسا والالتزام التام بالاتفاقيات المعقودة سابقاً. أطلق سراح المعتقلين الذين بلغ عددهم ٥٢ معتقلاً، فوضع حداً لمشكلة ظلت قائمة فترة ٢١ شهراً، فعمت المظاهرات مختلف البلاد احتفالاً بعودة المعتقلين، واستأنف الحزب الجديد نشاطه من خلال العمل الصحفي وتأسيس الشعب الحزبية حتى بلغت ما بين ٦٥ - ٧٠ شعبة في مختلف أنحاء البلاد.^(١)

شكل وصول الجبهة الشعبية إلى الحكم في فرنسا ١٩٣٦ نقطة تحول في مسيرة الحزب، إذ عينت الجبهة (B irre vienot) بيار فيانو^(٢)، فأخذ الحزب ينظم صفوفه من جديد و يؤسس الكتل الشعبية حتى بلغ في شهر شباط ١٩٣٧ عدد المشتركين في هذا الحزب حوالي ٧٠ - ٨٠ ألف مشترك، وعدد الشعب الحزبية ٣٥٠ - ٤٥٠ شعبة، بالإضافة إلى المنظمات التابعة لها والتي اتخذت أسماء مختلفة (الشبيبة الحزبية - الكشافة - التجمعات النقابية) ومع ذلك لم يطالب الحزب إلا بمطالب معتدلة مثل تمثيل التونسيين في مجلس منتخب وحكومة مسؤولة و النظر في القضاء و الإدارة لفائدة الأهالي. أما الاستقلال فكان مؤجلاً إلى فترة لاحقة، لكن الجبهة الشعبية لاقت صعوبات كثيرة. أهمها معارضة المستوطنين الذين يحبطون أي مشروع لصالح الوطنين، إضافة إلى الوضع المالي الذي كانت تعيشه فرنسا وغلاء المعيشة، وعودة الشيخ الثعالبي الزعيم الوطني في هذه الفترة. كل ذلك أدى إلى المزيد من التوتر و الغليان، فكانت حوادث ١٩٣٨ الدامية.^(٣)

١- اندري جوليان : مرجع سابق ، ص ٩٧ .

٢- بيار فيانو: دبلوماسي فرنسي كان مكلفاً بشؤون الشرق العربي و كان على علاقة قوية مع رجال السياسة في سوريا و لبنان أمثال جميل مردم بك و رياض الصلح و له دور كبير في توقيع معاهدة ١٩٣٦ . انظر خالد : مرجع

سابق ، ص ١٢

٣- الشريف : مرجع سابق ، ص ١٢٤ .

عودة الثعالبى و محاولة توحيد الحزبين.

عاد الثعالبى إلى تونس في العام ١٩٣٧ بعد فترة دامت ١٤ عاماً قضاها متنقلاً بين عدة بلدان عربية و إسلامية، ويبدو ان سلطات الحماية قد رحبت بهذه الزيارة لعلها تحاول بعث الحزب القديم في خطة تهدف إلى ضرب الحركة الوطنية. لقي الثعالبى ترحيباً من الأهالي ومن أنصار الحزب الدستوري الجديد، ونظم الديوان السياسي حفلاً لاستقبال الثعالبى؛ لعله يستطيع كسبه إلى صفوف الحزب الجديد. لكن خطة بورقيبة فشلت بسبب البعد الكبير في تفكير الاثنين، إذ رأى الثعالبى ضرورة توحيد الصف العربى وتوجيه نحو تحقيق وحدة عربية و كان بورقيبة تفكيره غريباً. خطب الثعالبى امام الجماهير التي استقبلته: ^(١) «لقد جئكم بسلام شعوب المشرق العربى الذين يساندون حركتكم، وان الشعوب العربية لايمكنها ان تعيش بعيدة عن بعضها البعض، لابد من الوحدة، وان شعوب المشرق تتابع الحركة التونسية خطوة خطوة وان بلادنا تونس لابد عليها ان تكون مركزاً للوحدة العربية».

اما بورقيبة فقد عبر عن وجهة نظره: ^(٢)

« ان الاستقلال لن يتحقق الا بثلاث طرق. تتمثل الأولى بثورة شعبية عنيفة تقضي على الحماية، والثانية في هزيمة فرنسا في حربها ضد دولة أخرى، اما الثالثة فتتطوي على حل سلمي يتم على مراحل بمساعدة فرنسا نفسها وتحت إشرافها، وان اختلال توازن القوى بين الشعب التونسى و فرنسا يلغى أي حظ في انتصار شعبي، كما ان هزيمة عسكرية فرنسية على يد دولة اخرى لن تساعد عملية الاستقلال بل تسقطنا بين مخالب استعمار جديد، فلا مجال إذاً للخلاص إلا بالطرق السلمية، وتحت رعاية فرنسا. . . »

حاول الثعالبى توحيد الحزبين تحت قياديه؛ لكنه فشل بسبب معارضة الحزب الدستوري الجديد وبما ان الثعالبى كان يمتلك شعبية واسعة منذ العشرينيات فقد قام بجولات للاتصال مع الجماهير، وعقد عدة اجتماعات في العاصمة والقى خطاباً أكد

١- مناصريه ، يوسف : الصراع الادبولوجي في الحركة الوطنية التونسية ، دار المعارف للنشر ١٩٩٠ ، ص ٦٠

٢- بلخوجة ، الطاهر : الحبيب بورقيبة سيرة زعيم ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٤

فيه ضرورة استقلال الشمال الإفريقي ووحدة المغرب العربي كخطوة أولية لتوحيد الأمة العربية، وبدأ الاتصال مع زعماء الحركات الوطنية المغربية مما دفع بزعماء الحزب الجديد إلى شن حملات تشويه للثعالبي واتهمته بالخيانة على صفحات الجرائد، وكان أول اجتماع عقده الثعالبي خارج العاصمة في مدينة ماطر، أرسل الديوان السياسي مجموعة من الأعضاء برئاسة الهادي نويرة للتشويش على الاجتماع و إفساده ووقع إطلاق نار ذهب ضحيته مقتل شخصين وجرح العشرات، ولما شعرت فرنسا بانبعاث الحركة من جديد وعلى يد الثعالبي غيرت سياستها وأصدرت قانون بحل جميع الأحزاب ورفع الاجتماعات ومصادرة الحريات.^(١)

في أوائل عام ١٩٣٨ على اثر الإضرابات و الاحتجاجات التي حصلت في مراكش و الجزائر وانتهت بتونس رافقتها أعمال عنف و اضطهاد من قبل سلطات الحماية، إذ وقع صدام بين الشعب التونسي و الجيش الفرنسي في مدينة بنزرت راح ضحيتها العشرات، قام الحزب باتخاذ قرار يدعو إلى عدم الرضوخ للقرارات الاستعمارية و المشاركة في المظاهرات و الإضرابات في كل المدن التونسية. فما كان من السلطات الفرنسية إلا ان قمعت المظاهرات التي خرجت وكان عددها بالآلاف، واعتقلت المئات منهم وفي المقدمة زعماء الحزب الجديد أمثال الحبيب بورقيبة وعلي البلهوان و الهادي نويرة وأرسلتهم إلى سجن سان نيكولا في مرسيليا.^(٢)

بعد ان تم وضع الزعماء في السجن قاد الحزب الجديد الباهي الأدغم^(٣) المعروف بالصدق و الاستقامة،

١- عبد الله ، الطاهر : مرجع سابق ، ص ٦٤ .

٢- البلهوان : مرجع سابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

٣- الباهي الأدغم : ولد في تونس عام ١٩١٤ ، درس بالصادقية ، شارك بالمظاهرات التي خرجت ضد سلطات الحماية للتنديد بالمؤتمر الأفخارستي عام ١٩٣٠ ، فطرد من المدرسة ، انضم إلى الحزب الدستوري الجديد وقاد المظاهرات بسبب اعتقال زعماء الحزب ١٩٣٦ ، اعتقل الباهي ١٩٣٨ ثم أفرج عنه ليقود العمل السياسي لكن مصيره كان الاعتقال ١٩٤٠ وحكم عليه بالسجن مدة ١٥ سنة قضى منها ٥ سنوات ثم أفرج عنه ، عين رئيساً

فعمل على تنظيم الخلايا الحزبية الثورية التي كانت مهمتها تدمير الجسور و اغتيال المستوطنين و قطع أسلاك الهاتف، لكنه تعرض إلى السجن و تم ترحيله إلى صحراء الجزائر. عاد الحبيب ثامر^(١) إلى تونس بعد إطلاق سراحه من فرنسا ليقود الحزب الدستوري الجديد، فنظم الحزب و أسس جريدة تونس الفتاة، لكنه اعتقل من قبل السلطات. استلم الحكم في هذه الفترة الباي محمد المنصف المعروف بولائه وحبه للوطنيين فقد كان من الداعمين للثعالي و حركته. حاول الباي ان يوحد الحزبين عن طريق تشكيل وزارة تضم وزراء من الجانبين و بجهوده اطلق سراح المعتقلين من السجون الفرنسية في العام ١٩٤٣. توجه المعتقلون إلى إيطاليا فاستقبلتهم بالحفاوة و التكریم؛ فأطماع إيطاليا مازالت مستمرة منذ مرحلة ما قبل الحماية. ان قيام الحرب العالمية الثانية وانتصار دول المحور (ألمانيا - إيطاليا - اليابان . .) في بداية الحرب أدى إلى انقسام داخل الحركة الوطنية بين الوقوف مع دول المحور المنتصرة في هذه الفترة أو الوقوف ضدها خشية الوقوع تحت استعمار جديد، ولأن الشعب التونسي عانى الكثير من الحماية فمن الطبيعي ان يقف مع أي جهة تخلصه من الحماية الفرنسية، إضافة إلى أن الدولة الألمانية كانت قد لعبت دوراً في الدعاية ضمن الوسط العربي و الإسلامي من خلال التذكير بوقوفها إلى جانب الدولة العثمانية في الحرب الأولى ووقوفها ضد الصهيونية من جهة، واستقبالها لرجال السياسة العرب أمثال مفتي القدس الحاج أمين الحسيني^(٢)، رغم الضغوط التي مارسها كل من

للوزراء ١٩٥٦ ثم عين كاتب دولة للرئاسة ١٩٦٩ ، كان له دور في وقف النزاع بين الفلسطينيين و الأردن

١٩٧٠ ، توفي ١٩٩٨ . انظر . خالد : مرجع سابق ، ص ٤٢

١- الحبيب ثامر : ولد بتونس في ٤ نيسان ١٩٠٩ درس بالصادقية ثم توجه إلى فرنسا لدراسة الطب بتولوز حيث نشط بالحزب الدستوري الجديد وجمعية طلبة شمال أفريقيا التي تولى رئاستها ١٩٣٥ ، وبعد القاء القبض على زعماء الحركة الوطنية ١٩٣٨ تولى رئيس الديوان السياسي . زار ألمانيا ومصر وكان من كمؤسسي مكتب المغرب العربي بالقاهرة ١٩٤٧ . أرسل إلى باكستان لحضور مؤتمر الاقتصاد الإسلامي المنعقد في كراتشي أواخر ١٩٤٩ . توفي في حادث طائرة بـلاهور . نقلت رفاته إلى تونس ١٩٦٨ ودفن في مقبرة الزلاج . انظر ثامر : مرجع سابق ، ص ٦-٧

(٢) أمين الحسيني : ولد في القدس ١٨٩٥ لأسرة ميسورة الحال فكان عدد أولاد تلك الأسرة ١٣ شخصاً.

المحور و الحلفاء على الحركة الوطنية فقد أصر كل من المنصف محمد باي و الثعالبي و الحبيب بو رقيبة على الالتزام التام بالحياد، ومع ذلك أُجبرت البلاد على الدخول في الصراع و تعرضت تونس إلى القصف الجوي و انتشرت المجاعة و تشرد السكان^(١)

ان انتهاء الحرب العالمية الثانية و خروج فرنسا شبه مهزومة و وفاة الشيخ عبد العزيز الثعالبي أدى إلى تغير جذري في سياسة الحزب بعد عام ١٩٤٥. لقد كان الاختلاف واضحاً بين أنصار الحزب الدستوري القديم وأنصار الحزب الجديد.

حيث إن أعضاء الحزب القديم كان لهم مبدأ واحد يقوم على كراهية الغرب وعدم الثقة به والتطلع إلى الاندماج في امبراطورية إسلامية، وكان أكثر أعضاؤه ينحدرون من الأسر التي عملت في ظل الحكم التركي إضافة إلى تشددهم بالمحافظة على الدين ورفض فصله عن الدولة فاعتبره المعارضين أشبه بطريقة صوفية.

أما أعضاء الحزب الدستوري الجديد فكانوا يؤمنون بمبدأين غربي ديمقراطي أمام الغربيين وإسلامي كاره للأجانب عندما يتوجه إلى أنصاره، وكان معظم أنصاره من الطبقة الوسطى وغربية الثقافة علمانية المنهج، وأرادوا تطبيق طرق المقاومة الأوربية التي تعلموها في كليات فرنسا إضافة إلى وضع نظام اقتصادي وسياسي واجتماعي أساسه العدل والمساواة يزيد فرنسا قوة وحضوراً، ويكون الشعب التونسي قوياً مرتبطاً

تلقى علوم القرآن الكريم و اللغة العربية، ثم ادخله والده لتعلم اللغة الفرنسية ، وبعد فترة توجه إلى جامع الأزهر بمصر، وبعد ان انهي دراسته التحق بكلية الآداب في الجامعة المصرية . أثناء اندلاع الحرب العالمية الأولى توجه إلى اسطنبول لدراسة العلوم العسكرية ، وتخرج برتبة ضابط . ادلى فريضة الحج ١٩١٨ ومنذ ذلك التاريخ يعرف باسم الحاج أمين ، عين ١٩٢١ مفتياً للقدس خلفاً لشقيقه كامل ، ترأس المؤتمر العام للقدس ١٩٣١ . شارك بالأعمال العسكرية ضد الكيان الصهيوني ١٩٤٨ . توفي في لبنان ١٩٧٤ . انظر الثعالبي : خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٨ ، ص ٩ - ١٠

١ - الساحلي : مرجع سابق ، ص ١٧١ .

بالأمة الفرنسية لما بينه وبينها من تضامن لا ينكره أحد وقول بورقيبة يؤكد ذلك، وبالطبع يقف على رأس هذا الحزب،

إن الاختلاف لم يكن في المبادئ والطرق الواجب اتباعها بقدر ما كان الاختلاف سببه التربية الاجتماعية أولاً ثم المصالح والأطماع الشخصية ثانياً حيث ظهرت إلى السطح عندما عاد الثعالبي إلى تونس عام ١٩٣٧ فتوجه اهتمام الحزب الجديد إلى التشكيك بوطنية الثعالبي ودفاعه عن تونس واتهامه بالتآمر على مصلحة البلاد.

فنسي هؤلاء الذين نهلوا من المدنية و الحضارة الفرنسية غربة الرجل قسراً عن عائلته ووطنه مدة ١٤ عاماً؟ ونسوا مواقفه في مؤتمر الصلح و جهوده في الدفاع عن القضية الفلسطينية وكل القضايا الإسلامية أولاً ثم العربية.

لقد حلت القيادة المتعلمة في المدارس العصرية والمنفتحة على مكونات الثقافة الغربية مكان النخبة المتخرجة من جامع الزيتونة والمرتبطة بالتراث العربي - الإسلامي والتيار القومي بالمشرق العربي. لتأخذ دورها على الساحة التونسية وتقوم ببناء تونس الحديثة العصرية المتأثرة بالغرب الأوربي.

٣- العمل النقابي وظهور الحركة العمالية التونسية:

عاشت تونس في ظل الحماية الفرنسية ظروفاً اقتصادية صعبة جداً، إذ سيطر المستوطنون على الأراضي الزراعية الخصبة والبور والأوقاف وكل قطعة أرض لا يثب صاحبها سنداً في ملكيتها. ولم تكتفِ باغتصاب الثروة الزراعية، قامت واستولت على الثروات المعدنية ومنحتها لشركات فرنسية؛ لتستولي على خامات البلاد وتكون في نفس الوقت سوقاً لبضائعها ومنتجاتها الصناعية، كما شجعت على الهجرة إلى تونس وتقديم كل السبل المناسبة للاستيطان من مساعدات مادية ومعنوية. لم يكن أمام الشعب التونسي وخاصة العمال والفلاحين سوى حلين إما ترك البلاد والبحث عن مكان آخر وهذا غير ممكن بسبب سوء الوضع المادي لهم، أو العمل تحت رحمة المستوطنين القادمين من فرنسا وإيطاليا ومالطة.^(١)

لم يقف الأمر عند هذا الحد. فقد عانى معظم الشعب التونسي الفقر والحرمان والجوع في ظل إدارة الحماية وهو ابن البلد، والأمر الأخطر من ذلك أن الآلات الصناعية الكبرى التي أصبحت تستخدم في المعامل الحديثة. والديناميت المستخدم في التفجير للبحث عن الثروات في المناجم، ومقاطع الحجارة الكبيرة التي تستخدم في الجبال العالية. كان يشكل خطراً على حياة الإنسان وسلامته، ثم عائلته من بعده. فالكثير من هذه الآلات أفقدت العشرات من الضحايا الأبرياء، وكم من جبل وحجر كبير نزل فوق العمال! وكم من عائلة فقدت معيها فأصبحت بلا عائل تعيش على التسول والتشرد في الشوارع.^(٢)

لم يكن العمال والفلاحون الذين يعملون أكثر من عشر ساعات في النهار ينتمون إلى أي تنظيم نقابي.

فالمعروف أن هؤلاء ينتمون إلى أماكن مختلفة وتفكير مختلف، لذلك كان الشخص يعمل يوماً ويستريح عشرة أيام.

^(١) جوهري، حسن: الاستعمار الفرنسي، دار المعارف، مصر ١٩٦١، ص ٥٣.

^(٢) الحداد، الطاهر: العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية، الدار التونسية للنشر، تونس، ص ٥٦.

ظهرت الحركة العمّالية التونسية بتأثير الجاليات الأوروبية فرنسية كانت أم إيطالية "جاء هؤلاء إلى تونس كانوا متأثرين بأوساطهم الأوروبية، فأنشأوا بعد مدة اتحاداً نقابياً يربطهم بجامعة العمال في باريس عام ١٩١٩، ولم يجدوا في ذلك معارضة من السلطة، وصاروا يباشرون اعتصامات منظمة في المعامل، وشركات سكك الحديد، وينالون من ذلك ربحاً، ولم يقتصر العمال التونسيون على مشاهدة ذلك فقط، بل اشتركوا معهم في الاعتصام، وانتظموا في سلك نقاباتهم، وحضروا اجتماعاتهم وسمعوا خطب الزعماء منهم أمثال دوريل وماليغان الذين كانوا ينادون بحرية الإنسان، والمساواة بين أفرادهم، وأن دين العمال هو العمل، وعدد هذا الدين هو رأس المال، فليس لهم بعد ذلك أن يتميزوا بأجناسهم وأديانهم فينقضوا حبل اتحادهم بأيديهم، ويجعلوا من ذلك منفذاً لرأس المال لتشتيتهم وإخفاق مسعاهم. . .".^(١)

كانت النقابات الفرنسية المدرسة الأولى للعمال التونسيين، وظهرت الأفكار الجديدة الداعية إلى تنظيم العمال في نقابات للدفاع عن مصالحهم وإعطائهم مزايا الاتحاد بين العمال مهما كانت ديانتهم وأجناسهم وشارك العمال التونسيون في المظاهرات والاحتجاجات التي قامت بها نقابة العمال الفرنسيين عام ١٩٠٤ ودام الاحتجاج والاضطراب حوالي اسبوعين. لكن هذه التشريعات لم تطبق على المستعمرات، فلم يكن العمل محدداً في اليوم والأجور بسيطة انطلاقاً من تمتع الأوروبي بامتيازات فكرية وتخصصية لم يملكها التونسي.^(٢)

نشطت الحركة العمّالية بعد الحرب بصفة منظمة في نقابات، ولكن غير معترف بها على الرغم من أن نشاطها مسموح، وتعددت الاضطرابات بمشاركة التونسيين. لكن الوحدة النقابية تصدعت في فرنسا إثر مؤتمر في تور ١٩٢٠ الذي انقسمت فيه الحركة العمّالية الفرنسية إلى قسمين بين مؤيد الثورة الشيوعية ومحايدين لها، فأدى ذلك إلى انقسام في الحركة العمّالية ونشوء الحزب الشيوعي الفرنسي. قسم يرى أنّ الدور

^(١) الحداد، مرجع سابق، ص ٥٧.

^(٢) الأرقش، عبد الحميد: الحركة العمالية التونسية، مركز الاتحاد العام للشغل، دمشق ١٩٨٨، ص ١٨.

النقابي ينحصر في النضال الاقتصادي لتحسين وضع العمال الاجتماعي، والقسم الآخر يرى أنّ النقابة أداة التغير الثوري.

إن الانقسام في صفوف الحركة العمالية انعكس على السلطة التونسية، فظهرت منظمتان عماليتان على غرار ما حدث في فرنسا:

- الاتحاد الإقليمي الخاضع لتأثير الاشتراكية.

- المنظمة الكونفدرالية ^(١) العامة للعمال الموحدة الخاضعة لتأثير الشيوعية. ^(٢)

ظهر الحزب الحر الدستوري الذي يتزعمه الثعالبي في هذه الفترة ليعبر عن الشعور القومي والطموحات القومية للشعب التونسي، غير أنّ نشاط هذا الحزب وبرنامجهم ثم المطالب التي قدما كانت يغلب عليها الطابع القومي والرغبة في إجراء إصلاحات دون أن يحظى الجانب الاجتماعي عموماً والعمال خصوصاً بأي اهتمام من قيادة الحزب، ربما كان سبب ذلك تركيبة الزعماء الفاعلين في الحزب، فأغلبهم ينتمي إلى البرجوازية، فاكتفى زعماء هذا الحزب برفع مطالب وطنية إلى الباي لعله يقبل بها.

اكتسب العمال التونسيون الكثير من الخبرة النقابية والسياسية والقانونية والدعاية والمبادئ الإنسانية التي يركز عليها النضال الاجتماعي، غير أنهم أدركوا من خلال الممارسة أن سياسة جامعة العمال الفرنسيين تقوم على وجهين مختلفين في الفعل والقول، فالكثير من الشعارات التي ترفع مثل العدالة والمساواة والحرية لا تطبق على أرض الواقع، فالقادة النقابيون لا يهتمون أبداً بمطالب العمال التونسيين، على عكس مطالب العمال الأوروبيين، وإذا ما طالبوا بالأجر تتصحبهم النقابة بالتجنيس.

^(١) الكونفدرالية: نظام سياسي بمقتضاه تدخل دولتان أو أكثر في اتحاد لفرض تحقيق مصالح مشتركة بينهما، على أنّ

هذا الاتحاد التعاهدي لا يخلق دولة جديدة يعترف لها بالشخصية الدولية، وتتمتع بحق التمثيل السياسي. انظر

عطية: مرجع سابق، ص ١٠١٩.

^(٢) الأرقش: مرجع سابق، ص ١٩.

أما المؤسسات التي لا وجود للعنصر الأجنبي كقطاع الحمل في الموانئ بقيّ التونسيون مهمشين ويعملون دون تحديد ساعات العمل والأجور حسب رب العمل كون هذه الأعمال تخضع للعرف وليس للقوانين.^(١)

"إنّ الشعب التونسي بدأ يشعر أنّ الحركة السياسية وحدها لا تكفي لإفهام الحكومة الفرنسية ما يطلبه الشعب. . . بل يلزم أن يضاف إليها نهضة العلم والاقتصاد وبعث المؤسسات لذلك أخذ هذا الاستعداد ينمو تدريجياً وبشكل يومي في البلاد، وصار حديثاً منتشراً بين الجماعات حتى ١٩٢٤".^(٢)

كتب جول بول فينيدوري مسؤول الحزب الشيوعي في تونس:^(٣)
"إنني لا أبالغ إن أمدت أن النقابات الإصلاحية بعد الحرب كانت تضم العمال التونسيين في بعض القطاعات مثل الترام والبريد والسكك الحديدية، وكان العمال التونسيون دوماً في الصف الأمامي للدفاع عن المطالب، وللضغط على السلطة من أجل أخذ المنح التي عادة ما تعود للعمال الفرنسيين بزيادات هامة في حين لا يحصلون لأنفسهم إلا على زيادة بسيطة. "

نتيجة لهذا الوضع السيء الذي عاشته الطبقة العمالية والفلاحية الفقيرة المشردة المحرومة من أي سند قانوني يدافع عن قضاياها. كان لابد من ظهور مؤسسات أو أشخاص تدافع عن هذه الطبقة الكادحة والتي تعتبر سنداً وقوة مهمة في تاريخ الحركة الوطنية إذا ما استثمرت ووجهت بالشكل الصحيح.

استمر الوضع حتى آذار ١٩٢٤ عندما ظهر إلى الوجود شاب تونسي اسمه محمد علي الحامي.^(٤)

^(١) الحداد، سائر: الحركة النقابية في تونس، دار علامات للنشر، تونس، (د.ت)، ص ٤٣.

^(٢) الحداد: مرجع سابق، ص ٣٢.

^(٣) الحداد: مرجع سابق، ص ٢٢.

^(٤) محمد علي الحامي: ١٨٩٤-١٩٢٨: الزعيم النقابي الوطني الشهير ولد بالحامة ونشأ بها، ثم نرح إلى العاصمة تونس، واشتغل بسوقها وتمكن من حفظ الكثير من اللغة الفرنسية، شاءت الأقدار في عام ١٩١١ أن يكون سائق الضابط التركي أنور باشا فتمكن من التعرف على زعماء المسلمين، أخذه أنور باشا إلى برلين وتمكن في سنوات

تجول محمد علي الحامي مع رفيقه الطاهر حداد ^(١) في الأرياف والجنوب والأحياء الفقيرة في المدن، وكثيراً ما كان يتجول أيام الشتاء تحت البرد القارس، فيرى الأطفال النائمين تحت الجدران وحافلات الطريق، فكان يقف أمام هؤلاء وهو يقول ^(٢):
"إنّ كبراءنا الذين هم قادة الشعب وأهل الرأي فيها لا أدري إذا كانوا يشاهدون هذه المآسي الموجهة أو أنهم الآن في فراشهم الوثيرة مع زوجاتهم وأبنائهم غارقين في الأحلام وتاركين هؤلاء لحكمة الأقدار التي تقضي وحدها في هذا الأمر. . . ."
أدرك محمد علي الحامي أنّ الحياة السياسية في تونس لن تتغير، دون تغير البنية الاقتصادية والاجتماعية ^(٣):

"إنّ التظاهر بالأفكار القومية أمام الفرنسيين نكسبهم ضدنا أحقاداً نامية لا نقدر على رد مفعولها، ولو أننا نندفع في تحضير الأعمال الاجتماعية لأمتنا، واستئصال الألم الذاتي فينا والذي ورثناه عن الأجداد لكننا أقنعنا الكثير من الفرنسيين والأوروبيين بأننا نستحق أن نلقى الحياة الحرة مثلهم. . . ."

دراسة الاقتصاد. في عام ١٩٠٤ حصل على الشهادة العليا من مدرسة العلوم والاقتصاد السياسي ببرلين، ثم عاد إلى تونس وعمره ٣٠ عاماً. خاض معركة العمال التونسيين وأسس النقابات، ١٩٢٥ تم إيقافه عن كل نشاط بتهمة التآمر على أمن الدولة فقصت المحكمة بإبعاده عشر سنوات. انتقل إلى مصر ثم جدة وفي ٧ أيار توفي إثر حادث أليم بسيارة على الطريق الواقع بين مكة وجدة. انظر: بوديبة: مرجع سابق، ص ٣٤٣.

^(١) الطاهر الحداد: ولد بتونس العاصمة عام ١٨٩٩، بعد أن نزح والده عن حامية قابس. نشأ في وسط معيشي صعب. تلقى تعليمه في الكتاتيب، واصل تعليمه بالخلدونية وجامع الزيتونة الذي دخله إثر معركة الزلاّج ١٩١١، صدم بموت والده عام ١٩١٩، غادر الزيتونة ١٩٢٠، التحق بمدرسة الحقوق التونسية عام ١٩٢٠-١٩٢١. غير أنه انقطع عن متابعة دروسه بعد اجتيازه امتحان السنة الأولى، فتوجهت همته نحو النشاط النقابي العمالي مع صديقه وبان بلده محمد علي الحامي، كان من أعضاء الحزب الدستوري القديم لكنه انسحب بسبب موقف الحزب من حركة محمد علي الحامي - ألف عام ١٩٢٧ كتاب العمال التونسيون والحركة النقابية وفي عام ١٩٣٠ ألف كتاب أمراًتنا في الشريعة الإسلامية، فأثارت كتاباته ضجة كبرى داخل الحياة التونسية، قضى آخر أيامه في شبه انعزال عن كل المحيط باستثناء أصدقائه. توفي عام ١٩٣٥. انظر الحداد: مرجع سابق، ص ٩-١٠.

^(٢) عبد الله: الحركة الوطنية التونسية، مرجع سابق، ص ١٨٧،

^(٣) عبد الله: مرجع سابق: ص ١٨٨.

قام الحامي مع نخبة من الشباب بتأسيس شركات تعاونية وزراعية وصناعية وتجارية دعائية في أهم مراكز البلد، يكون على رأسها الشباب الوطنيين الذين يمتلكون روح العمل والإخلاص، ثم تقوم هذه الجمعيات المستقلة في المراكز البعيدة بالانضمام إلى بعضها البعض وتشكل في النهاية إدارة عامة.

نتج عن الجهود التي قام بها الحامي تشكيل جمعية التعاون الاقتصادي التي تهدف إلى تحسين وضع الطبقة الضعيفة الذين يعانون من غلاء المعيشة. أصرت الجمعية على البدء بالعمل في مجال التجارة، ولاسيما تجارة المواد المعيشية وحاجات المنازل؛ لأن الصناعة والزراعة بحاجة إلى أموال كثيرة وهذا غير متوفر في أيدي العمال.^(١)

عملت الجمعية التعاونية الاقتصادية على تحقيق غايتها في الوصول إلى أمرين هامين. مكاسب مادية: للتخفيف من قسوة المعيشة وكسر لاحتكار الأجنبي بتوفير المواد الأولية مع ربح بسيط، ومع الأيام يستطيع الشخص أن يؤسس شركة صغيرة عن طريق توفير بعض الأموال وعن طريق التحول من شراء مادة جاهزة إلى إنتاجها بنفسه وبهذا يكون قد تم إنقاذ العاطلين عن العمل.

أما المكاسب المعنوية، فهو الهدف الأسمى لتربية الروح الاقتصادية والتعاونية بين أفراد الشعب، وإفهام الناس طرق التعاملات العصرية في مجال الاقتصاد. وهذا يكون عن طريق إلقاء المحاضرات وإصدار النشرات والجرائد ليكون الناس على درجة كبيرة من المعرفة بالشؤون الاقتصادية.^(٢)

حصل أول إضراب في آب ١٩٢٤ قام عمال الرصيف احتجاجاً على وضعهم، إذ يعمل هؤلاء في عمليات التنزيل والتحميل وغالباً ما تكون هذه المواد ثقيلة جداً، مما يؤدي إلى إصابات في صفوف العمال دون الحصول على تأمين صحي أو معيشي، وإذا استطاع الحصول على شيء فيكون المبلغ زهيداً جداً. لذلك انتظم عمال الرصيف في إضراب واحتجاج دام خمسة أيام، وانضم إليهم الكثير من المثقفين التونسيين وفي

^(١) الحداد، الطاهر: مرجع سابق، ص ٤٢.

^(٢) المؤدب، محمد علي: كفاح الاتحاد العام التونسي للشغل، مكتب الاتحاد العمالي للنشر، تونس ١٩٩٦، ص ٢٣.

المقدمة محمد علي الحامي الذي دافع عن العمال ودخل في نقاش واسع مع م. دوريل كاتب اتحاد النقابات الفرنسية، ثم حصل إضراب آخر بعد إضراب الرصيف قام به مجموعة من العمال في بنزرت وجبل خروبه.

هذه الاضطرابات المتوالية التي قام بها العمال أدت إلى توقف عمل محمد علي الحامي ورفاقه في جمعية التعاون الاقتصادي، لينتقل إلى عمل أكبر من ذلك فكان تأسيس النقابات العمالية التونسية.^(١)

كانت نقابة العمال الرصيف في تونس العاصمة أول نقابة تونسية، ثم نقابة عمال الرصيف في بنزرت، ونقابة عمال شركة السكك الحديدية. . . وكان الهدف من هذه النقابات التخفيف من قبضة رأسمال المال الأجنبي على البلاد، وتحسين الوضع المادي والمعنوي لهؤلاء العمال. قام محمد علي الحامي بزيارة إلى صفاقس والمتلوي وأجرى اتصالاته مع العمال في سبيل توحيد النقابات البعيدة عن بعضها والمنتشرة في عدة أماكن في نقابة واحدة، وأثمرت جهوده بعقد اجتماع حضره نواب عن النقابات بتونس وصفاقس وقفصة وسوسة وبنزرت والمتلوي، وتمت المصادقة على إنشاء جامعة عموم العملة التونسية.^(٢)

أعلن رسمياً في ١٩٢٥ تأسيس جامعة عموم العملة التونسية، حيث استخدم النقابيون التونسيون قوانين جامعتهم وطرق تنظيمها من الكونفدرالية العامة للشغل (C. G. T). وأعلنوا أن المنظمة النقابية مفتوحة لكل العمال دون تمييز في الجنس أو الدين من أجل الدفاع عن حقوقهم المادية والمعنوية. كان المنسبون لهذه الجامعة أغلبهم يعمل في المراكز الصناعية في تونس مثل تونس وبنزرت وصفاقس وسوسة. بينما لم تشارك العملة في المناجم بقفصة؛ بسبب عدم نجاح محمد علي الحامي بإقناعهم على الرغم من زيارته لهم أكثر من مرة بحكم تركيبتهم الاجتماعية فأغلبهم من المزارعين.

نجحت فكرة تأسيس جامعة للعملة التونسية بسبب:

^(١) الشاطر: مرجع سابق، ص ١٢٨.

^(٢) الحداد، الطاهر: مرجع سابق، ص ٤٣.

(١) دعم عمال الرصيف الذين كانوا يبحثون عن دعم وطني يقف وراء قضيتهم.

(٢) استجابة الطبقة المثقفة التي لها نفس الانتماء الاجتماعي الذي ينتمي إليه العمال التونسيين.

(٣) وقوف شباب الحزب الدستوري القديم الذي أدرك افتقار الحزب إلى ذراع العمال لدعم كفاحه السياسي.^(١)

مبادئ جامعة عموم العملة التونسية:

(١) التضامن الاجتماعي:

فالعامل النقابي يوحد الشتات الذي تعيشه الطبقة الكادحة والفلاحون والفقراء. تلك الطبقة التي انتزع منها أرضها وأغلقت مصانعها وسُدت أبواب الرزق. فيجب توحيد الطبقات العاملة في المجتمع ليصبح مجتمعاً متماسكاً تسود فيه روح التعاون. بدلاً من التفرقة والنزعة الفردية التي استطاع الاستعمار أن يخترق هذا الجسم المريض المفكك المتصف بالفردية.

(٢) الإصلاح:

يجب أن تكون الغاية من هذه الجامعة الإصلاح الاجتماعي الذي سيغير واقع البلاد. فهي تحتاج إلى إصلاح يشمل كل طبقات هذا المجتمع، على الرغم من وجود تفاوت بين طبقاته.

(٣) المطالبة النقابية:

فالنقابة هي مؤسسة نضالية اجتماعية يعرف من خلالها العامل في المؤسسات والمصانع والفلاح في أرضه والعامل في منجمه حقوقه المادية والمعنوية.^(٢)

موقف سلطات الحماية من جامعة عموم الشغيلة التونسية:

لم تقف سلطات الحماية في البداية من جامعة الشغيلة التونسية موقف عدائي. كون أن هذه الجامعة تعمل في إطار الحركة العمالية الفرنسية حتى عام ١٩٢٩ حصل

^(١) بن حميدة، عبد السلام: الحركة الوطنية للشغيلة بتونس، دار محمد علي الحامي، صفاقس ١٩٨٤، ص ٦٠.

^(٢) الحداد، سالم: مرجع سابق، ص ٦٣.

إضراب قام به الفلاحون في برج السدرية، وتطورت الأحداث في هذه المنطقة ليصبح مقلقاً للمستوطنين الفرنسيين بتأثير العقلية الجديدة والأفكار الأوروبية التي نشرها محمد علي منذ مجيئه إلى تونس رفض الفلاحون العمل معلنين أن الأرض تونسية فهي لهم. وهم أحرار في العمل متى يشاءون. هذا الوضع أخرج المستوطنين والملاكين الأجانب، لكن سرعان ما قامت سلطات الحماية بإعلان ضرورة مقاومة الذين دفعوا الأهالي في بعض المناطق كبرج السدرية لارتكاب أعمال مخيفة تتمثل بالإضرابات والاحتجاجات وتعطيل الأعمال وإلحاق الضرر بالمستوطنين.

صرح رئيس الحكومة الفرنسية^(١) "إن فرنسا بقدر ما تكون ذات سياسة حرة نحو من أراد فهم توسعة الحريات الخاصة والعامة في دائرة الحماية بقدر ما تأبى أن تكون ألعبوبة لبعض الحركات ولبعض الأشخاص الذين يقومون بأعمال تحت عنوان الإصلاح، بينما هم في الواقع أعوان لحركات سياسية حيناً ولبعض الدول الأجنبية حيناً آخر".

لم يقف الأمر عند ذلك بل توجهت الصحف الفرنسية وفي مقدمتها جريدة "تونس الاشتراكية" إلى نشر التهم على صفحاتها والتشهير بمشروع النقابات العمالية التونسية^(٢) "إن مشروع النقابات التونسية مشروعاً مليئاً إسلامياً سيقضي به على وحدة العملة، والقائمون به يريدون أن يلعبوا دوراً سياسياً تحت اسم العملة والنقابات. . .". أدركت سلطات الحماية أن وراء هذه الأعمال التي قد تهدد أمن فرنسا محمد علي الحامي فقامت بإلقاء القبض عليه وتحويله إلى المحاكمة بعد أن أبعدت كل المقربين منه في محاولة لإضعاف حركته، فأبعدت بعض زعماء الحزب الدستوري القديم بالترغيب والترهيب، أما الحزب الشيوعي والذي كان مقرباً من محمد علي فقد استطاعت سلطات الحماية من تخريب العلاقة بينهم حتى أنها ألقت القبض على بعض زعمائه ووضعهم في السجن.

^(١) بلحوجة، محمد علي: محمد علي الحامي وحوادث الأيام، تونس (د.ت)، ص ١٤٣.

^(٢) الحداد، الطاهر: مرجع سابق، ص ١٢٩.

تم توجيه عدة تهم إلى محمد علي الحامي منها: ترويج أفكار أجنبية من اسطانبول وألمانيا داخل البلاد التونسية وتحريض العمال ضد فرنسا. وأخيراً حكمت عليه المحكمة بنفيه مدة عشر سنوات خارج البلاد، فغادر تونس إلى إيطاليا ثم مصر وانتقل فيما بعد إلى جدة ليلقى حتفه إثر حادث سيارة عام ١٩٢٨.^(١)

معوقات نجاح مشروع محمد علي الحامي النقابي:

- (١) معارضة الكونفدرالية العامة للشغل الفرنسية بقيادة (جوهو Jouhau) الذي أصر على بقاء الشغيلة التونسيين تحت لواء اتحاد العملة الفرنسيين.
- (٢) عدم وجود الداعم السياسي لحركة العمال التونسيين. فالتيار الإصلاحى بزعامه حسن قلاتي ساعد السلطات من خلال إقناع أتباع محمد علي بالانفصال عنه.
- (٣) عدم تبني الحزب الدستوري القديم لأفكار محمد علي الحامي. بينما وقف معه فئة من الشبان المتعلمين من الحزب الدستوري ودعموا أفكاره، ربما كان ذلك بسبب التركيبة الاجتماعية لكامل أعضاء الحزب، كما أن مطالب هذا الحزب كانت بالدرجة الأولى سياسية إصلاحية.^(٢)

بعد صدور قرار النفي على محمد علي الحامي ووفاته عام ١٩٢٨ في جدة، أصيبت الحركة العمالية التونسية بجمود في هذه المرحلة، إذ تولى قيادتها بلقاسم القناوي المطوي^(٣) الذي اقتصر عمله النقابي على الاهتمام بالشؤون النقابية فقط. كان يميل بطبيعته إلى فصل العمل النقابي عن العمل السياسي كون الأحزاب السياسية في

^(١) الحداد، سالم: مرجع سابق، ص ١٢٢.

^(٢) خالد، أحمد: الدستور الجديد والنقابات والأحزاب، تونس ١٩٦٨، ص ٥.

^(٣) بلقاسم المطوي: ولد بلقاسم المطوي في عام ١٩٠٧، درس في الكتاب بقرية المطوية، دخل إلى الحزب الحر الدستوري القديم ١٩٢٤ وكان عمره سبع عشرة سنة، دخل إلى الحركة النقابية العمالية التونسية عام ١٩٢٥، وتسلم رئاستها بعد نفي زعيمها محمد علي الحامي، في بداية الثلاثينات انضم إلى الحزب الدستوري الجديد يتمتع بنشاط ومقدرة على الخطابة وبسبب مواقفه ألقت سلطات الحماية القبض عليه ١٩٣٥ وتم نفيه إلى الجنوب التونسي، دخل في خلاف مع الحزب الجديد بسبب عدم مشاركته في التظاهرات التي حصلت ١٩٣٨، ثم أصبح بعد ذلك من أهم مؤسسين الاتحاد العام العمالي التونسي، توفي ١٩٨٧ في تونس. انظر: خالد: مرجع سابق، ص ٤٢.

توقف وخاصة الحزب الدستوري القديم لم تول القضية العمالية ولا حتى الاجتماعية الأخرى أي أهمية، وبالتالي ابتعدت هذه الأحزاب عن محمد علي الحامي، وعلى الرغم من فشل حركته في بداية العشرينات إلا أن فكرته لم تمت بين صفوف الشعب التونسي، إذ تجددت مرة ثانية بعد عشر سنوات من نفي الحامي خارج البلاد. أدت مجموعة من المتغيرات المحلية والدولية إلى بعث الحركة النقابية مرة ثانية ومنها: صدر مرسوم من الباي ١٩٣٢ يضمن حرية العمل النقابي في تونس، وارتقاء الجبهة الشعبية إلى الحكم في فرنسا إثر انتخابات ١٩٣٦، وتطورت القوانين الاجتماعية، وظهور فرع النقابة الفرنسية للعملة المسيحيين في تونس ١٩٣٦، إضافة إلى ظهور حزب جديد في تونس هو الحزب الحر الدستوري الجديد بزعامة بورقيبة. أدرك بورقيبة بعد خروجه من السجن أهمية دور العمال في تحقيق أهداف حزبه، فعمل على إحياء جامعة عموم العملة التونسية بعد نفي زعيمها الحامي، لذلك بعث رسالة إلى الهادي نويرة^(١) يخبره برغبة عدد من أعضاء الحزب الدستوري الجديد ببعث وإرساء قواعد جامعة عموم العملة التونسية من جديد، ومقاطعة لاتحاد الشغيلة الفرنسية^(٢)، وقد اختار الحزب الهادي نويرة أميناً عاماً للنقابة بدلاً من بلقاسم المطوي. عقد المؤتمر التأسيسي لجامعة عموم الشغيلة التونسية في ١٩٣٧ وقد ضمت الجامعة عمالاً من المناجم وآخرين من قطاع الفلاحة وتجار متجولين وباعة من

^(١) الهادي نويرة: ولد في المنستير ٦ نيسان ١٩١١، تعلم الابتدائية والثانوية في تونس، ثم أكمل دراسته للحقوق في باريس حيث مثل الحزب الدستوري القديم هناك، دخل إلى سلك المحاماة ١٩٣٧، وعين في نفس السنة أميناً عاماً للجامعة العامة للعملة التونسية، تولى عدة مناصب مهمة في تونس منها رئاسة الوزارة التونسية، انظر خالد: مرجع سابق، ص ٣٤.

- البعض يرى إحياء فكرة بعث الجامعة إلى أحد أنصار الحامي ألا وهو علي القروي عندما كان في اجتماع للأحزاب السياسية بمناسبة وصول الجبهة الشعبية للحكم في فرنسا، فأعلن عن رغبته ببعث وإحياء فكرة الحامي. انظر الشاطر: مرجع سابق، ص ١٣٠.

^(٢) انعكس وصول الجبهة الشعبية للحكم إلى الوضع النقابي للعمال فتوحدت منظمة الكونفدرالية العامة للشغل مع منظمة الكونفدرالية العامة للشغل الموحدة في مؤتمر تولوز ١٩٣٦ باسم اتحاد الشغيلة الفرنسية. انظر: الشاطر: مرجع سابق، ص ١٣٠.

الأسواق وعمال من الرصيف. وشملت معظم مناطق تونس وبنزرت والجنوب ودخل عمال المناجم في قفصة التنظيم بعد أن عارضوه في المرة الماضية.

لعبت الحركة العمالية التونسية دوراً في مساندة الحزب الدستوري الجديد أثناء تصديه للحملة التي شنها المستوطنون الفرنسيون، الذين وقفوا ضد حكومة الجبهة الشعبية التي وصلت إلى الحكم. ثم عادت الحوادث والاضطرابات إلى الشارع التونسي فكانت البداية مع عمال المناجم الذين يعملون ١٢ ساعة في اليوم طالبوا بجعلها ٨ ساعات وهذا معترف عليه في كل القطاعات الاقتصادية وفي ١٢ آذار ١٩٣٧ توقفوا عن العمل، وقد أقلق سلطات الحماية من سيطرة المضربين على الأسلحة، وعندما أصر هؤلاء على الإضراب فتحت سلطات الحماية النار عليهم مما تسبب في مقتل ١٧ شخصاً وجرح العشرات.^(١)

استطاعت سلطات الحماية من قمع المتظاهرين والمضربين عن العمل بكل وحشية. وكما أصيبت التجربة العمالية الأولى بنكسة إثر نفي مؤسسها، أصيبت الحركة النقابية الثانية بالفشل وذلك إثر تخلي الحزب الدستوري الجديد عنها بعد مطالبته رئيسها بالمشاركة في الإضراب العام الذي دعا إليه الحزب احتجاجاً على قمع سلطات الحماية للشعب العربي في الجزائر والمغرب والأقصى عام ١٩٣٧.^(٢)

إنّ الخلاف بين الحزب الدستوري الجديد وزعماء النقابة العمالية من جهة، وقرب اندلاع الحرب العالمية الثانية من جهة أخرى أدى إلى تجميد نشاط الحركة العمالية في تونس حتى عام ١٩٤٤ لتشهد ميلاد الاتحاد العام التونسي للشغل على يد فرحات حشاد^(٣)، بعد أن أعلن عن توحيد كل المنظمات التونسية باسم واحد.

^(١) خالد: مرجع سابق، ص ٤٣.

^(٢) الشاطر: مرجع سابق، ص ١٣١.

^(٣) فرحات حشاد: ١٩١٤-١٩٥٢: ولد في جزيرة قرقة عام ١٩١٤، كان أبوه من صيادي الأسماك، تلقى تعليمه الابتدائي في مسقط رأسه بعد أن أظهر تفوقاً بدراسته. بمحل تجارة بصفاقس، ثم عمل بعد ذلك في شركة الحافلات التونسية للنقل في الساحل ثم محاسباً. دخل الكفاح النقابي عن طريق الجامعة العامة للعموم التونسية، انتخب سنة ١٩٣٦ كاتباً عاماً لنقل عمال شرة نقل سوسة - تونس. كون مع رفاقه ١٩٤٤ اتحاد النقابات المستقلة للجنوب، وفي

تُعد حركة محمد علي الحامي النقابية من أهم الحركات على الساحة العربية عامةً والتونسية خاصةً. كونها من أوائل الحركات التي تنبّهت إلى أهمية الطبقة العاملة الفقيرة في بناء المجتمع كما أنها نبّهت إلى ضرورة البدء بإصلاح اجتماعي ثم اقتصادي حتى يتم الإصلاح السياسي. فالحياة الاجتماعية جزء لا يتجزأ من الحياة السياسية، بل هي أساس النظام السياسي، هذه من الأمور التي أغفلتها الأحزاب السياسية في تونس (الحزب الدستوري القديم). إلا أن حركته لم تستطع أن تصل إلى النتائج المرجوة بسبب تعنت سلطات الحماية والخوف على المستوطنين القادمين من أوروبا. فقصت عليها في المهد كحركة وجود أما كواقع فقد بقيت في حياة الطبقة العاملة التي نهضت مرة ثانية وبعد عشر سنوات من نفي مؤسس الحركة النقابية. لكن أيضاً كان مصيرها الفشل بسبب غياب الداعم السياسي والظروف الدولية التي اجتاحت العالم في هذه الفترة.

لعبت حركة العمال دوراً في الحركة الوطنية التونسية من خلال المشاركة في الاحتجاجات والاضطرابات إلا أنه نستطيع أن نقول:

(١) اقتصر عدد المنتسبين إلى النقابة العمالية على مناطق قليلة، فلم تشمل كل المناطق التونسية، ولم تشمل كل الطبقات الاجتماعية. وهذا يعود بالطبع إلى سياسة الاحتلال في تونس التي لعبت دوراً في إبقاء الكثير من طبقات المجتمع في حالة من الفقر والجهل والتشرد. فكانت الآراء التي طرحها الحامي غريبة عن المجتمع التونسي وقسم منهم لم يتقبل هذه الأفكار.

(٢) استلام الزعماء لزام القيادة وهؤلاء كان معظمهم ينتمي إلى أصول اجتماعية برجوازية. وبالتالي لا يشبه وضعهم وضع العمال الفقراء مما أثر على مجرى الحياة السياسية. فبقيت الأمور الاجتماعية والاقتصادية من الأمور الثانوية بالنسبة

عام ١٩٤٥ كون اتحاد النقابات المستقلة للشمال، وفي عام ١٩٤٦ انعقد مؤتمر ضم نقابات الشمال والجنوب والجامعة العامة للموظفين باسم الاتحاد العام التونسي للشغل، اغتيل في ٥ تشرين الأول ١٩٥٢. انظر: المؤدب، مرجع سابق، ص ١٣.

لزعماء الحزب القديم. وبالتالي ابتعد قسم كبير من الشعب عن المشاركة بأي نشاط سياسي.

(٣) عندما بدأت النهضة العمالية الثانية في الثلاثينات أيضاً عانت من إبعاد الطبقة المثقفة عن صفوفها فاكتفت بمشاركة العمال والفلاحين والتجار.

(٤) إن النهضة الحقيقية تبدأ بنهضة اجتماعية واقتصادية وثقافية وصولاً إلى النهضة السياسية التي تمكن البلد من الخروج من تحت نير سلطات الحماية.

(٥) إن الأفكار التي طرحها محمد علي الحامي التي تنادي بالإصلاح الاقتصادي والاجتماعي هي أفكار ظهرت قبل وقوع تونس تحت الحماية الفرنسية وعلى يد الجنرال خير الدين التونسي.

(٦) إن الحركة النقابية للعموم التونسية حركة إصلاحية تجديدية وهي استمرار للحركات الإصلاحية السابقة.

لقد تطورت الحركة الوطنية التونسية شيئاً فشيئاً ولاسيما إثر انتصاب الحماية الفرنسية، فكانت هذه الحركة امتداد للحركة الإصلاحية التي بدأها الشيخ قبادو مروراً بخير الدين ثم البشير صفر و الثعالبي إلى الحبيب بو رقيبة. لقد تبنت الحركة التونسية الحداثة الذي يهدف إلى إرساء التنظيمات الدستورية القائمة على أساس المساواة للجميع أمام القانون و الحرية ونشر التعليم العصري لمواكبة التطور التقني الذي تعيشه أوربا، مع عدم التخلي عن الشريعة الإسلامية. أن هذه الحركة ناتجة عن الإرث الإصلاحي التونسي قبل الحماية، ووليدة التناقضات التي نتجت عن ممارسات حكومة الاحتلال التي لا تتناسب مع رغبات الشعب التونسي.

الفصل الرابع

الصحف السياسية في تونس

١- الصحف التونسية

٢- الصحف الفرنسية

٣- الصحف الإيطالية

٤- الصحف الشيوعية

٥- الصحف اليهودية

يقول تولستوي الفيلسوف الروسي:

« الجرائد نفير السلام وصوت الأمة وسيف
الحق القاطع ومجيرة المظلومين وشكيمة الظالم.
فهي تهز عروش القياصرة وتذك معالم الظالمين
«

يقول نابليون بونابرت:

« الصحافة ركن من أعظم الأركان التي
تشيد عليها دعائم الحضارة والعمران «

الصحافة في أي بلد في العالم يجب أن تكون قلب هذا البلد النابض والمنبر الحر الذي من خلاله يصل صوت كل إنسان على وجه هذه المعمورة، وعدا عن ذلك هي علامة من علامات الرقي والازدهار والتقدم التي تميز الشعوب. فنحن حتى في يومنا هذا نقرأ جرائد نرى أعدادها منتشرة من مشرق الأرض إلى مغربها وقرائها بالملايين.

الصحافة: هي عبارة عن وسيلة لنشر الأخبار والحوادث والمعلومات ونقلها بين الناس حتى يتم التعارف بين الخليقة. وفيها عبارة عن وسيلة لنشر الأخبار والمعلومات فهذا يقودنا إلى نتيجة واحدة هي أن العرب الأوائل عرف هذه الوسيلة وبالطبع لم تكن تسمى جريدة أو صحيفة بمعناها اليوم.

حيث إن العرب كانوا يرسلون الرسل والوفود من قبيلة إلى أخرى ثم ظهر الرواة والرحالة الذين يجوبون مشارق الأرض ومغاربها لتبادل الأخبار والآراء.

أليست رحلات ابن بطوطة^(١) وابن جبير^(٢) والمسعودي^(٣) وغيرهم كانت رحلات صحفية لنقل الأخبار؟

(١) ابن بطوطة: ولد سنة ٧٠٣ - ٧٧٩ هـ - ١٣٠٤ - ١٣٧٧ م، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطنجي رحالة، مؤرخ. ولد في طنجة بالمغرب، زار المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وبلاد الهند والصين. من أشهر الرحالة المسلمين. طاف بالبلدان الإسلامية والأجنبية، ليتقصى الحقائق والأخبار من خلال اتصاله بالأمرء ومن تبعهم. ترك مؤلف عظيم هو: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار). انظر: الكيالي: مرجع سابق، ص ١٨٧

(٢) ابن جبير: ٥٣٩ - ٦١٤ هـ - ١١٤٤ - ١٢١٧ م وهو بن أحمد بن جبير الكنايني البلسني من أعلام الرحالة الأندلسيين واشتهر باسم ابن جبير. بدأ رحلته سنة ٥٧٨ هـ قاصداً الحج، فركب البحر من غرناطة ونزل الإسكندرية ثم قصد الحج وزار المدينة المنورة.

تبقى رحلاته من أهم الوثائق التاريخية حيث كشفت عن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في صقلية، ومن أهم رحلاته: (تذكرة بالإخبار عن اتفاقيات الإسفار) و(وجد الجوانح من تأيين القرين الصالح).

(٣) المسعودي: هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ينتهي نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود، ولد ببغداد في القرن الرابع الهجري وتوفي بالفسطاط في مصر، قام برحلات عديدة إلى بلاد فارس والهند والجزيرة العربية وتركها. له مؤلفات كثيرة منها مروج الذهب، أخبار الأمم من العرب والعجم، التنبيه والإشراف. انظر. الكيالي مرجع سابق، ص ٣٤٦

ألم تكن أسواق عكاظ^(١) ودومة الجندل^(٢) وهجر^(٣) وعدن^(٤) وذبي المجاز^(٥) وغيرها من أسواق العرب أشبه بالمؤتمر الصحفي الذي يجتمع فيه كل أحرار العالم لتبادل الآراء والمعلومات والحوادث الموجودة في بلدانهم؟.

أما بالنسبة إلى ظهور الصحافة بمعناها الحقيقي فكان مولدها مع قدوم حملة نابليون بونابرت^(٦) إلى مصر التي لم تستمر سوى ثلاث سنوات، ولكنها كانت كفيلة

(١) سوق عكاظ: أعظم أسواق العرب على الإطلاق في الجاهلية وفي صدر الإسلام، تضاعف شأن هذا السوق بعد ظهور حركة الخوارج في العهد الأموي عندما قاموا بنهب السوق، فخاف الناس على أنفسهم.

(٢) دومة الجندل: كان الناس ينزلون في أول يوم من شهر ربيع الأول. ويشرف على هذا السوق. أكيدر صاحب دومة الجندل الذي يرعى الناس ويؤمن لهم ما يحتاجونه يدوم السوق نصف الشهر ليتأتي بنو كلب ويشرفون الناس في النصف الآخر من الشهر كانت تقصده قبائل العرب من الشام والجزيرة العربية وبلاد فارس.

(٣) سوق هجر: يعقد هذا السوق في شهر ربيع الآخر وكان الذي يتولى الإشراف على هذا السوق المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم وهو ملك البحرين. هجر هو اسم لجمع أرض البحرين، وقد عرفت بكثرة تمرها.

(٤) سوق عدن: تقوم أول يوم من شهر رمضان إلى عشر من رمضان، ويشرف على هذا السوق الأبناء ويقصد بها أبناء الفرس الذي حكموا اليمن فترة، ثم أبناء ملوك حمير ثم من ملك اليمن بعد ذلك.

(٥) سوق ذي المجاز: هذا السوق قريب جداً من عكاظ ويبدأ من أول يوم في ذي الحجة إلى يوم التروية ثم يذهبون إلى منى. وأغلب التجار الموجودين من تجار قريش. هذه الأسواق لم تكن فقط لغاية التجارة. بل كانت عبارة عن مؤتمر يجمع فيه الأدباء والشعراء ويتنافسون فيما بينهم وينقلون الأخبار كون الحاضرين ينتمون إلى سكان الجزيرة والشام والمغرب وبلاد فارس.....

انظر علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب، ج ٤، ص ١٠٠.

(٦) نابليون الأول: ١٧٦٩ - ١٨٢١ قائد عسكري فرنسي ويعرف بنابليون بونابرت ولد في جزيرة كورسيكا بالبحر المتوسط، والده ينحدر من عائلة إيطالية نبيلة دخل نابليون وهو ابن التاسعة من عمره بمدرسة فرنسية عسكرية فكان مستواه متوسطاً في المواد إلا أنه كان متفوقاً بالرياضيات. انضم إلى جماعة اليعاقة المتطرفة الذين طالبوا كثيراً منهم بجعل فرنسا جمهورية ديمقراطية. تزوج عام ١٧٩٦ من جوزفين دو بوراني وكانت تكبره بست سنوات، خاض حروباً ضد أوروبا وقاد حملة إلى مصر. ولم يكن عسكرياً بارعاً بل كان إدارياً ناجحاً حيث وضع قانون نابليون أو القانون المدني توفي في ١٥ أيار ١٨٢١ نتيجة أصابته بمرض السرطان في المنفى في جزيرة سانت

بإيقاظ الشعوب العربية من تخلفها. حيث سار محمد علي باشا^(١) والي مصر على طريقة الأوربيين في التحديث فكانت جريدة الوقائع، ثم بدأت الجرائد تنتشر في مصر وبلاد الشام وبأعداد كبيرة. ولكن هل كانت تونس بعيدة عن هذا التحديث؟

بالطبع لا. فقد كانت تونس قد بدأت نهضة سايرت نهضة محمد علي باشا وبالتحديد على يد المشير أحمد باي الذي حاول النهوض ببلادهم مقتدياً بنابليون أولاً ثم محمد علي باشا ثانياً. لذلك قام بزيارة إلى فرنسا أكثر من مرة. فكان من نتائج زيارته ولادة الأقلام الحرة في تونس.

لقد أدت الصحافة دوراً هاماً في تاريخ الشعوب من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية كونها من أهم الأسلحة الحديثة في حياة أي شعب فهي النافذة التي يستطيع كل مواطن أن يعبر من خلالها عن رأيه، ويشارك في الحياة السياسية والاقتصادية لبلده.

وتونس من هذه الدول التي أعارت انتباها لمفعول هذا السلاح الفتاك الذي لا يقل قوة عن قوة الرصاص والدبابات. وربما يكون أفضل، لأنه يصل بسرعة فائقة إلى كل أنحاء المعمورة. فكانت أقلام الوطنيين التونسيين سيوفاً على رقبة المستعمر الفرنسي، ففضحوا سياسته الاستعمارية التي تقوم على سلب الشعب التونسي كل حقوقه، ولم يقتصر جهد الشباب التونسي على قضيتهم. بل دافعوا عن كل البلدان الإسلامية

هيلانة ودفن فيها ثم نقل جثمانه إلى باريس ودفن في كنيسة القبة. انظر نوار، عبد العزيز : التاريخ الأوربي الحديث ، دار الفكر مصر ١٩٩٩ ، ص ٢٩٧ .

(١) محمد علي باشا : (١١٨٢ - ١٢٦٥ هـ - ١٧٦٩ - ١٨٤٩ م) جندي الباني من بلدة قولة باليونان جاء إلى مصر ضمن الفرقة الألبانية لتقاتل قوات نابليون، عين والياً على مصر عام ١٨٠٥ بعد أن تخلص من زعماء الشعب المصري وجنوده الألبان وقضى على المماليك بمذبحة القلعة.

كانت فترة حكمه فترة نهضة حضارية وعسكرية حيث أهتم بالجيش والأسطول وأسس المدارس بمختلف مراحله، لكن تدخل الدول الأوربية أدت إلى إسقاط مشروعه النهضوي، توفي بالإسكندرية في الثاني من آب ١٨٤٩ ودفن في مسجد في قلعة الجبل. انظر .ياغي : مرجع سابق ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩

ووصل الأمر بهم إلى كتابة مقالاتهم باللغة الفرنسية لمقاومة هذا المستعمر بالسلاح ذاته.

ولكن قبل الحديث عن الصحافة وتطورها في تونس خلال هذه الفترة التي تطرق لها البحث لا بد من إلقاء نظرة سريعة على تاريخ الطباعة التي كانت الصحافة من أهم ثمارها.

لقد كانت الطباعة في تونس فردية وحجرية؛ أي أن الطباعة بدأت بالمطبعة الحجرية وكانت البداية بمجهود فردي خاص هو مجهود الراهب بور جاد^(١). فقد كان لهذا الراهب مطبعة ذات حروف عربية (أخرج فيها ترجمة عربية لكتاب اسمه مسامرة قرطاً جنة يقع هذه الكتاب في جزأين. وهو عبارة عن مناظرة بين القرآن والإنجيل بين قاضي وراهب وقام بإهداء الكتاب إلى وزير الخارجية آنذاك مصطفى خزندار، ولا شك أن معرفة هذا الرجل بوزير الخارجية سهل له الكثير من مهمته لنشر هذا الكتاب).

ولكن فيما بعد وبضغط من بعض الرجال تنبعت الدولة إلى خطورة هذا الكتاب وأبعاده فقامت بإغلاق هذه المطبعة، وبقي الأمر كذلك حتى قدوم المشير محمد باي الذي قرر أن يشتري مطبعة حجرية من باريس. لا شك أن زيارة المشير محمد باي إلى فرنسا وإطلاعه على التقدم وأساليب الحضارة الأوروبية قد أثرت في نفسه فأدرك مدى الفارق بين المشرق والغرب، فما إن عاد إلى بلده حتى بدأ العمل على النهوض بالإيالة التونسية، فتم افتتاح هذه المطبعة عام ١٨٥٧ فكان أول ما طبع بها وثيقة عهد الأمان وأول ما صدر عنها من الصحف جريدة الرائد التونسي. ولكن التطور الذي طرأ على هذه المطبعة في عهد الصادق محمد باي الذي أسس المطبعة الرسمية التونسية

(١) الراهب بور جاد: (١٨٠٦ - ١٨٦٦) هو فرنسوا بور جاد وصل إلى تونس عام ١٨٤١، وتولى الإشراف على كنيسة قرطاً جنة وأسس في نفس العام مدرسة سيدي المرجاني ثم قام بنشاط كبير تجاوز الميدان الثقافي والاجتماعي من إنشاء المدارس ومستشفى للأوربيين، ألف كتاباً عن الإسلام وتونس، طبع بالفرنسية والعربية وإنشاء فيما بعد في باريس صحيفتين بالعربية مستعيناً بالصحافي التونسي سليمان الجزائري. انظر الصولي: مرجع سابق، ص ٢٩٣.

فقد كانت مؤسسة منظمة بكل معنى الكلمة حيث لها إدارتها وميزانيتها، وقد أختار الباي لإدارتها شخصاً بارزاً من أبناء مدرسة بارود الحربية خير الدين التونسي.^(١) لكن هذا التنظيم على ما يبدو تأثر تأثيراً كبيراً بالصراع السياسي الحاصل في تونس في هذه الفترة بين الدول الكبرى (فرنسا - إيطاليا - بريطانيا) فلم يقتصر الصراع على الأمور السياسية بل وصل إلى الثقافية فكانت المطبعة من الأمور التي دار حولها الصراع بين هذه الدول ولا سيما بريطانيا وفرنسا. فبعد أن أعطي الامتياز إلى الفرنسي (Far Bryon) فار برون نتيجة نفوذ قنصل بلاده (Lion Rosh) ليون روش وصداقته مع الباي.

تراجعت الدولة في عهد الصادق محمد باي ومنحت الامتياز إلى الانكليزي (HOLT) هولت الذي تم توقيع الاتفاقية بينه وبين الحكومة التونسية عام ١٨٦٠ على إدارة المطبعة وعلى إصدار جريدة ناطقة بالعربية وأخرى ناطقة بالاطالية؛ لأنها لغة الجالية الأجنبية الأكثر عدداً في تونس. إن قيام بريطانيا بإصدار جريدة ناطقة بالإيطالية ربما كانت لسبب مقصود هو عدم الدخول في صراع مباشر مع فرنسا على الأقل في هذه الفترة أو لضمان تأييد الجالية الايطالية ومن ورائهم حكومة بلادهم لكسبها ضد فرنسا.^(٢)

ثم واجهت الصحافة التونسية بعد ذلك مشكلات منها:

الاحتلال الفرنسي ١٨٨١ حيث لاقت الصحافة مقاومة عنيفة من المستعمر، لذلك من الطبيعي أن تكون الصحف والمجلات الوطنية قليلة، وإن وجدت فيكون عمرها شهراً أو بعض شهور. وأحياناً يلجأ بعض الوطنيين إلى تجديد صحفهم عبر الكتابة بلغة فرنسية لكنها كانت تلقى نفس المصير. لذلك حرصت هذه الصحف على أن تتناول الأمور في حكمة ورفق. ولم تكن تستطيع أن تهاجم الاستعمار بل أحياناً تسايره. وإذا مرت على ذكر كلمة استعمار استبدلتها بكلمة أقوياء أو أمراء.

(١) بن شريفة، محمد: تاريخ الطباعة حتى انتهاء القرن التاسع عشر، ط ١، منشورات المجمع الثقافي أبو ظبي،

الإمارات، ١٩٩٦، ص ٢١٨.

(٢) عمائرية، حفناوي: الصحافة وتجديد الثقافة، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٩٤، ص ٢١٣.

وقد واجهت تونس ثمان سنوات كاملة لا تصدر بها صحف وطنية (١٩١٢-١٩٢٠).

تقول مجلة الفجر في شهر أّب ١٩٢٠:

« مكثنا نحو ثماني سنوات لا نذكرها اليوم إلا بالسوء واللعة، بالعالم نيف وأربعون ألف صحيفة، لنا منها واحدة، ولما تحصلنا على حق ظهور صحافتنا على مسرح الوجود رأينا أننا تحصلنا على شيء عظيم طالما تألمنا لفراقه، وتطلعنا لإشراقه، يجب علينا أن نخدمه بإقبالنا وأموالنا، لأن الصحف أفضل الوسائل المساعدة على حفظ اللغة ونشرها، وخير ذريعة لتوثيق عرى الألفة بين الناطقين بالضاد، والمترجم الصادق عن إحساس الأمة ورغائبها، ولا نعد أنفسنا استملكتنا تلك الوسيلة العظيمة حتى نستوفي لها هذين الشرطين:

(١) حريتها أمام الإرادة العامة إلا فيما يؤاخذها عليه قانونها العادل

(٢) وجود عدد منها بقدر حاجة البلاد يصدر يومياً على نمط الأهرام ووادي النيل والأخبار بمصر». ^(١)

إذاً: كانت أول مشكلة واجهت الصحف الوطنية التونسية المقاومة العنيفة من قبل المستعمر الفرنسي خوفاً من فضح ممارسته وسياسته الاستعمارية القائمة على سلب الشعب التونسي كل مقوماته الحضارية، وجعل العقل العربي متخلفاً عن اللحاق بركب الأمم المتقدمة.

أما المشكلة الثانية: فكانت الضمان المالي هذا إن سمحت بوجود صحف وطنية. هذا الضمان كان يفرض على الشخص الذي يريد إنشاء صحيفة وبالطبع كان مبلغاً مالياً ضخماً بالنسبة إلى الطبقة المثقفة التونسية مقارنةً بأحوالهم الاجتماعية، ولقد بلغ هذا المال مقدار عشرة آلاف ريال أو ستة آلاف فرنك على كل جريدة سياسية وخمسة آلاف ريال أو ثلاثة آلاف فرنك على كل جريدة غير سياسية.

(١) الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية للنشر، مصر ١٩٩٥ ص ١٩٦.

هذا الوضع بالطبع جعل احتكار قطاع الصحافة من قبل أصحاب الأموال من الفرنسيين والايطاليين، وبعد ذلك اختفت الصحف الإيطالية من تونس باستثناء جريدة لونوني وتعني الوحدة التي بقيت للدفاع عن مصالح الايطاليين الموجودين في تونس. وأخيراً وعندما تأكد للفرنسيين أنه لا وجود لأي دولة مطامع استعمارية ألغت الضمان المالي وذلك عام ١٩٠٤.^(١)

ربما ألغت فرنسا ذلك الضمان لفتح المجال أمام التونسيين لإبداء آرائهم لعلها بهذه الخطوة تستطيع أن توقف المد الثوري التونسي.

أما أبرز الصحف التونسية السياسية التي صدرت في هذه الفترة.

١ - الصحف التونسية:

١ - الرائد التونسي (١٨٦٠):

تعد جريدة الرائد التونسي من أهم وأقدم الصحف العربية حيث صدر العدد الأول يوم الأحد ٤ محرم ١٢٧٧هـ الموافق ١٨٦٠ وفي أعلى الصفحة إلى اليمين إرشادات تخص صدور الجريدة والاشتراكات عن ستة أشهر وثمان الصحيفة ومقداره ريال واحد، وفي الوسط عنوان الجريدة بحروف كبيرة يحيط بها شعار الدولة التونسية، وفوقه هلال ونجمة، وإلى اليسار مكان بيعها في المملكة وهي تباع في الحاضرة، القيروان، وصفاقس، وسوسة، وبنزرت.

أما خارج المملكة كانت تباع في الجزائر وطرابلس والإسكندرية وبيروت، وفي أوروبا تباع في مرسيليا ومالطة وباريس.^(٢)

هذه الجريدة تصدر أسبوعياً كل يوم أربعاء في أربع صفحات غير مستقرة أحياناً مجزأة إلى قسمين:

الأول (قسم رسمي):

(١) حمدان، محمد وآخرون: الموسوعة الصحفية العربية، ط ١، المنظمة العربية للتربية والثقافة، تونس ١٩٩٥،

وهو قسم خاص بنشر أوامر وقرارات الحكومة وكل شيء تريد الحكومة إبلاغه إلى رعاياها سواء من أسعار الخضراوات وبقول وحتى تصل إلى مراسيم الباي.

الثاني (قسم غير رسمي):

وهو قسم خاص بنشر الأخبار والإحداث الخارجية خصوصاً المتعلقة بالدولة العثمانية. إضافة إلى نشر مواد أدبية وقصائد شعرية وكانت الجريدة تأخذ الأخبار والوقائع من الوزارة الكبرى الموجودة في العاصمة اسطنبول. بعد أن تعد هذه التقارير لجنة مشكلة من مجموعة من الموظفين الذين كانوا يتكلمون بعضهم اللغة التركية والبعض الآخر يتكلم الفرنسية والايطالية.

كما كانت تقوم بنقل أخبار من جرائد عربية اشتركت بها الحكومة التونسية، وقد أدى البريد دوراً في ذلك حيث يصل مرة كل أسبوع إلى الولاية التونسية.

وعندما خضعت تونس للاحتلال الفرنسي غيرت هذه الصحيفة النهج الذي سارت عليه منذ ١٨٦٠. فاقترنت على نشر أوامر المستعمرين الفرنسيين وقراراتهم وبلاغاتهم. أما القسم الغير رسمي فقد تضمن الإعلانات الشرعية وكل ما يشابه حسب النظم الجديدة التي فرضت على الشعب التونسي. وبقيت هذه الجريدة مستمرة بالصدور حتى وقتنا الحاضر باسم الرائد الرسمية وهي خاصة بنشر قوانين وقرارات تصدرها الدولة.^(١)

لقد كانت جريدة الرائد ثمرة من ثمرات اتصال تونس بالغرب الأوربي ونتيجة من نتائج سياسة التحديث التي اتبعتها المشير أحمد باشا بعد إنشاء مدرسة بارود العسكرية.

أما فيما يخص مسايرة هذه الجريدة للاستعمار الفرنسي فمن الطبيعي أن تكون تحت تصرف السلطات الاستعمارية كون هذه الجريدة تتبع للحكومة التونسية وبالأساس الحكومة التونسية وضعتها إدارة الحماية. فكانت القرارات التي أصدرتها هذه الجريدة تصب في مصلحة هذه الإدارة وموقعه باسم الباي.

(١) الصويغي، عبد العزيز: بدايات الصحافة الليبية، ط ١، الدار الجماهير للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا (١٨٦٦ -

لقد كانت جريدة الرائد هي الجريدة الرسمية والوحيدة في البلاد التونسية، ووقعت تحت سيطرة إدارة الحماية. ولكن هل استمرت بالصدور منفردة على الساحة التونسية؟ ترافق دخول فرنسا إلى البلاد التونسية بعودة الطبقة المثقفة من الخارج، ولا سيما من فرنسا واطلاعهم على مبادئ الحرية والمساواة والعدالة. عادوا وهم يحملون أفكاراً أوربية فطرحوا مبادئ الأمة والديمقراطية والسيادة. حينئذ أدرك هؤلاء أن هذه الجريدة لا تلبي طموحهم وأنهم أمام واقع يهدف إلى مقومات الشخصية التونسية. هذا الواقع فرضه استعمار متسلح بأقوى أنواع الأسلحة.

فأدرك المثقفون ضرورة تعلم اللغة كي يغلّبوا عدوهم، ويأخذوا أسلحته ويواجهوه بمنطقة الخاص بل ذهب بعضهم وشارك في المؤتمرات والندوات التي نظمها الفرنسيون كما فعل التونسيون في مؤتمر مرسيليا ١٩٠٦.

أضف إلى ذلك كانت لجميع الجاليات الأجنبية من انكليزية وإيطالية ومالطية لهم صحفهم الخاصة بهم تدافع عنهم إلا التونسيين. لذلك أحس التونسيون بالفرق الشاسع بين مجتمعهم وباقي المجتمعات المحيطة بهم، فكان لا بد من السعي لإنشاء الصحف الوطنية على أيدي الطلاب العائدين من الخارج والذين أطلعوا على الإحداث الدولية في أوروبا وأحوال البلاد العربية الواقعة تحت السيطرة العثمانية.

٢- جريدة الحاضرة ١٨٨٨: (١)

وهي من نتاج الطلاب العائدين من الخارج فقاموا بتأسيس جريدة الحاضرة ١٨٨٨ بتوجيه الطلبة المثقفين، وقد تم إسناد رئاسة تحريرها إلى المناضل علي بوشوشة.

أما أهم الأمور التي طرحتها الجريدة فكانت:

- مسائل تتعلق بالشؤون الخارجية
- الاستعمار الزراعي
- التعليم وإصلاحه
- إعادة تنظيم وتوزيع الضرائب والإصلاح العدلي والإداري.
- الأوقاف وأملاك الدولة والصناعات التقليدية والمنافسة الأجنبية وتحسين وضع الفلاحين.

- إغاثة الطبقات المحرومة والعمران البشري والصحة العامة. (٢)

لقد حاول نظام الحماية تقريب الشباب المتعلم والمثقف بثقافته إيماناً منه أن هذه الطبقة ستقف إلى جانبه وتكون صلة الوصل بين الإدارة والشعب التونسي كونها

(١) كانت جريدة الحاضرة أول جريدة استمرت من ١٨٨٨ حتى عام ١٩١٠ وهي أول جريدة استمرت بهذه المدة لأنه غالباً ما تتعرض الجرائد إلى الإغلاق بين فترة من إنشائها وكانت نقطة اختلاف حول موقف الجريدة. فمنهم من اعتبرها جريدة وطنية ناطقة باسم التونسيين انظر العربي، مرجع سابق، ص ٥٨

ومنهم من اعتبرها مسيطرة لإدارة الحماية حيث كتب الكاتب العام بوزارة الخارجية برناد روا في ١١ تشرين الأول ١٨٨٧ «تتلقى الحاضرة مساعدة بأمر من الإقامة العامة وهي تطبع في مطبعتنا الرسمية، ونستخدمها لتحضير الرأي العام لقبول إصلاحنا ولها تأثير على جمهور السكان الأصليين. وإن محرريها مسلمون مخلصون وهم في نفس الوقت يؤيدون المؤسسات الراهنة» انظر ارنولد فرين، مرجع سابق، ص ٢٢٣

ولكن حسب المسائل التي طرحتها نرى أنها لم تتعرض لإنهاء نظام الحماية أو مقاومته بل كانت مسائل إصلاحية وبالتالي اعتقد أنها جريدة معتدلة بدليل أنها استمرت بالصدور حتى عام ١٩١٠. أما سبب إتباعها خط معتدل هي بسبب عدم الرغبة في عداة الاستعمار من البداية خوفاً من إغلاقها فاعتمدت هذا الخط حتى الوصول إلى إجراء إصلاحات للوصول بتونس إلى مرحلة من القوة تستطيع أن تطالب بالاستقلال.

(٢) الزميلي: مرجع سابق، ص ١٣٥.

متشعبة بالآراء العصرية، ومن جهة ثانية إبعاد وصرف ميول هذه الطبقة عن فكرة الجامعة الإسلامية والتقرب من تركيا. لكن التونسيين أدركوا هذه السياسة، لذلك عملوا على توخي الحذر تجاه الحماية واتبعوا الخط الإصلاحي حيث لا تسمح لهم ظروفهم في هذه الفترة بمعارضة سلطات الحماية.

٣- سبيل الرشاد ١٨٩٥:

أصدرها الشيخ عبد العزيز الثعالبي وهي جريدة علمية أدبية، سياسية، تاريخية صدر العدد الأول منها في ٢٩ جمادى الثانية ١٣١٣ هـ الموافق ١٦ تشرين الأول ١٨٩٥ م وتم تعطيلها ٢٦ جمادى الأولى ١٣١٤ هـ الموافق شباط ١٨٩٦ م. الهدف منها: النهوض بهمّ العلماء وتحميلهم ما يلم بالإسلام والمسلمين من أسباب التقهقر والتدني والدفاع عن التونسيين ضد ظلم الفرنسيين لكن تم تعطيلها بعد عام من صدورها. ^(١)

لقد أغلقت هذه الصحيفة بضغط من المسيو روا الكاتب العام حيث وجه شيخ الإسلام أحمد بن الخوجة رسالة إلى الكاتب العام جاء فيها: «الهمام العالم، الحازم الكاتب العام مسيو روا أما بعد الدعاء لكم بالسعادة الأبدية، فنتهي إلى جنابكم إن هناك إنسان يقال له عبد العزيز الثعالبي أحدث جرنًا لا سماه سبيل الرشاد تجرأ فيه على مقام المشيخة الإسلامية بجهله المظلم، وخطابه الفاحش، وتنزيل كلام العلماء في غير محله. . . فنرغب منكم أيها الصديق الحازم المبادرة لتعطيل هانهِ الجريدة، والانتصاف من صاحبها، لينزجر هو وأمثاله عن أمثال هذه التصورات الصادرة عن غير إدراك». ^(٢)

طالبت السلطات الفرنسية الثعالبي بضمان مالي وقدره (٨٠٠٠) فرنك فرنسي، وبسبب سوء الوضع المادي لهذا الشيخ قرر إغلاق الجريدة.

(١) بن ميلاد، وادريسي مسعود: مرجع سابق، ص ١٩.

(٢) الحرفي، صالح: عبد العزيز الثعالبي. من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، ط ١، دار الغرب الإسلامي،

بيروت ١٩٩٥، ص ٥٧.

ولكن هل المقيم العام حريص على تطبيق والحفاظ على الشريعة ليستجيب لدعوة شيخ الإسلام.

لا شك من خلال الرسالة التي أرسلها يتبين لنا.

- مسايرة رجال الدين لسلطات الحماية بشكل كامل وعدم انتقاد سياستها الاستعمارية القائمة على سلب مقومات الشعب التونسي، بل ذهب إلى تبجيل الكاتب العام وكأنه المسؤول عن تطبيق الشريعة الإسلامية.

- مدى التخلف وعدم قبول أفكار المصلحين والتسليم بكثير من المسائل التي طرحها العلماء دون نقاش وكأنها كلام منزل وهذا ما حصل مع الشيخ الثعالبي عندما انتقد بعض المسائل التي كانت محور خلاف أيام الصحابة والأولياء فاتهمه رجال الدين بالكفر والزندقة.

لقد قام الكاتب العام بإغلاق الجريدة والوقوف إلى جانب شيخ الإسلام ليس لصالح المسلمين أو محبته بهم، بل لصالح الفرنسيين بسبب مواقف الثعالبي الداعية إلى مقاومة الاستعمار الفرنسي. فوجود أشخاصاً أمثال الثعالبي يشكل خطراً على السياسة الفرنسية.

٤ - جريدة التونسي (Le tunisien) ١٩٠٧ : (١)

تميزت سنوات ١٩٠٠ - ١٩١٢ في تونس بتصاعد الوعي الوطني وانتعاش حركة الفلاحين وبروز الحركة العمالية. هذه الأحداث تراكمت مع أحداث دولية مهمة منها الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ - ١٩٠٥) وثورة تركيا الفتاة. كانت نتيجة هذه التطورات ظهور مرحلة سياسية مختلفة عن قبل عام ١٩٠٠ حيث لم تقتصر مطالب التونسيين على إجراء إصلاحات اجتماعية وثقافية بل طالبوا بإجراء إصلاحات سياسية مما أدى إلى بروز أحزاب سياسية وظهرت فئة من الشباب المتتورين الذي تبناوا العمل

(١) كان قانون الصحف لا يرخص لتونسي في إصدار صحيفة فرنسية اللسان إلا إذا كانت امتيازها لفرنسي لكي لا

يتمتع التونسي بالحرية الصحفية المعطاة للصحف الفرنسية، فاستمر العمل بهذا القانون حتى عام ١٩٣٧ على عهد

المقيم أرمان فيون الذي أصدر قانون يعطي التونسي الحق في إصدار صحيفة باللغة الفرنسية. انظر. بن قفصية

مرجع سابق، ص ٩

السياسي فأطلق عليهم حركة الشباب التونسي. الذين اجتمعوا حول مركز واحد هو جريدة التونسي، وأصروا على إصدارها باللغة الفرنسية (وهو نوع من التحدي للاستعمار ليثبتوا لإدارة الحماية على أنهم على قدر واسع لحمل المسؤولية والدفاع عن بلادهم) وعين علي باش حمبة مشرفاً سياسياً عليها وعبد الجليل الزواش مدير تحريرها.

لقد كتب علي باش حمبة في العدد الأول:

إن الجيل الجديد الذي تربي على اللغة الفرنسية، وتشرب الأفكار السمحة التي تحملها هذه اللغة قادر اليوم على تبوء مكانته في التجديد الجاري. . إن غياب الدستور والتنظيمات السياسية حرمت حتى الآن التونسيين من أي تمثيل في وجه السلطة العمومية. . . إن جريدة التونسي ستكون لسان حالهم. . .)

وقد نشر العدد الأول من التونسي الصادر في ٧ شباط عام ١٩٠٧ هدف الجريدة الذي يمثل برنامج عمل لحركة الشباب التونسي وتضمن البرنامج مايلي:

- مشاركة التونسيين بشكل أوسع في تسيير أمور البلاد
- التقريب بين العنصرين الفرنسي والتونسي بواسطة اشتراك التونسيين في مجالات الحياة المختلفة.
- إدخال التعليم الابتدائي الإجباري المجاني العام باللغتين العربية والفرنسية.
- إصلاح القضاء.
- مساعدة الدولة للمنتجين الزراعيين وتخفيف عبء الضرائب على المزارعين التونسيين.

- احترام الأوقاف وأموالها.
- تنظيم المساعدة الاجتماعية في المناطق الريفية.
- إنشاء مرافقة طبية^(١)

(١) ماكسيمكو، فلاديمير: الانتليجانسيا المغاربية، ترجمة عبد العزيز بوباكير، ط ١، دار النهضة الجزائر، ١٩٨٤،

على الرغم من تصاعد في لهجة الطبقة السياسية في تونس وتغير الأحداث إلا أن مطالب الشباب التونسي لم تطلب إنهاء الاحتلال الفرنسي للبلاد وإنما أصرّت على المشاركة بين العنصرين الفرنسي والتونسي فربما كان السبب هو تغير الأحداث في تركيا بسبب صعود حزب تركيا الفتاة وتهديده لعرش السلطنة والمعروف أن علي باش حمبة تربطه علاقات قوية مع السلطات العثمانية.

ومع ذلك استمرت الجريدة بالصدور حتى عام ١٩١١ حيث تم إغلاق هذه الجريدة إثر نفي قائدها علي باش حمبة، ورغم قصر مدة استمرار هذه الجريدة إلا أنها أثارت غضب الاستعمار الذي شن حملة عنيفة ضد التونسيين فرأى بعض المسؤولين الفرنسيين بباريس تنظيم مؤتمر عام لتمكين التونسيين من عقد مؤتمر في باريس للاطلاع على رغباتهم أمام الرأي العام الفرنسي.^(١)

وفي عام ١٩٠٩ انعقد أول اجتماع تونسي عمومي بالعاصمة للاجتماع على محاولة فصل اليهود التونسيين عن العدلية التونسية، فانتظمت المظاهرات وشارك فيها أكثر من ١٠٠٠٠ مواطن تونسي.

كانت المظاهرات نقطة تحول في حياة علي باش حمبة الذي أقنعت بضرورة ربط حركة الشباب التونسي بالحراك الشعبي فقرر إصدار نشرة عربية لجريدة التونسي الفرنسية وكلف برئاسة تحريرها إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي زعيم الحركة الوطنية والمعروف بعدائه للاستعمار فشن حملات عنيفة ضد إدارة الحماية على صفحات هذه الجريدة وكما كانت مصير النسخة الفرنسية الإغلاق كان مصير النسخة العربية الإغلاق أيضاً.^(٢)

بعد عام ١٩١٢ وإثر حوادث الزلازل والتراموي تم التكتيل برجال الحركة الوطنية ومصادرة أملاكهم ونفيهم إلى خارج البلاد فبقيت حركة الصحافة في حالة جمود ولم

(١) انعقد المؤتمر بين ٦-٨ تشرين الأول ١٩٠٨م بمشاركة نخبة من التونسيين وفي مقدمتهم البشير صفر وعبد

الجليل الزواش ومحمد الأصرم والقوا كلمات في ميادين مختلفة أجبرت الفرنسيين على تغير سياستهم تجاه التونسيين

. انظر ابن الحاج عثمان مرجع سابق، ص ٩١

(٢) الساحلي: مرجع سابق، ص ٩٦.

تظهر جرائد وصحف حتى عام ١٩٢٠ حيث انتهت الحرب العالمية الأولى، وتغيرت موازين القوى وظهرت تطورت أدت إلى منعطف في تاريخ الحركة الوطنية فكانت الأحزاب السياسية وبالتالي من الطبيعي أن تظهر الجرائد الناطقة باسم الأحزاب، فكلما تحدثنا في الفصل الثاني عن الأحزاب والنوادي السياسية كانت الصحف المعبرة عن آراء وبرنامج الحزب.

ظهرت جريدة الصواب والفجر الناطقة باسم الحزب الدستوري الذي أنشأه الشيخ عبد العزيز الثعالبي فكان هدف هاتين الجريدتين النهوض بالأمة الإسلامية ومحاربة البدع والخرافات وتوحيد كلمة المسلمين للوقوف ضد سلطات الحماية، ثم ظهر الحزب الدستوري الجديد بقيادة الحبيب بورقيبة^(١) في بداية الثلاثينات الذي جاء بأفكار متأثرة بشكل كبير بالآراء الأوروبية عامة والفرنسية خاصة فمن الطبيعي أن تكون الجرائد التي ظهرت في هذه الفترة معبرة عن توجهات الحزب الجديد. فكانت جريدة صوت التونسي والعمل التونسي التي دعت إلى التعاون مع سلطات الحماية.

نشر الشاذلي خير الله ١٩٣٢ في صحيفة العمل التونسي مقالاً:

« إذ ننظر دون حقد ودون تحزب إلى نظام الحماية كما حددته المعاهدات، سوف ندعو الحاكمية لاحترام روحه وحرفه، مساعدين إياها باقتراحاتنا على أن تتخبط بحزم في طريق الإصلاحات الليبرالية. . . »^(٢)

بالنسبة إلى الصحف الناطقة باسم الحزب الدستوري الجديد سوف يظهر دورها بشكل كبير على الساحة التونسية بعد الحرب العالمية الثانية لأنها بقيت في صراع سياسي مع الحزب الدستوري حتى عام ١٩٤٤ وفاة الشيخ عبد العزيز الثعالبي.

٥- جريدة البصيرة ١٨٩٢ - ١٨٩٧: كان رئيس تحريرها ومديرها نجيب ملحمة تدعو هذه الجريدة إلى تمجيد السلطان عبد الحميد وتثمن انجازاته وتدعو لسياسة الجامعة الإسلامية صدر منها ٨٤ عدد.

(١) الجابري، محمد عابد وآخرون: الالتلجانسيا في المغرب العربي، إشراف عبد القادر جغلول، ط ١، دار الحداثة

بيروت، ١٩٨٤، ص ١٩٥.

فقد جاء على لسان أحد القائمين عليها:
« إنها عثمانية القلب - تونسية الحجم - غرضها المصلحة العامة وشأنها الصدق
في التضحية والانتصار للحقيقة ولو كان به فناؤها ».

٦- جريدة الاتحاد الإسلامي:

أنشأها علي باش حمبة عام ١٩١١ نصرة للجامعة الإسلامية أثر هجوم الطليان
على طرابلس. صدر العدد الأول منها ١٩-١٠-١٩١١ ثم ما لبثت أن توقفت إثر
حوادث الزلازل. صدر منها ست أعداد فقط تدعو الجريدة إلى الالتفاف حول الدولة
العثمانية. لقيت رواجاً في الداخل واسطنبول والجزائر والإسكندرية فكانت هذه الجريدة
من الأسباب التي أدت إلى نفى باش حمبة خارج تونس.^(١)

هذه أهم الجرائد التي كانت موجودة على الساحة التونسية بسبب الأسماء التي كان
مشرفة عليها ولها دور في تاريخ الحركة الوطنية.

وبقي أن نشير إلى وجود جرائد كثيرة في تونس وهذه أحد ميزات الكفاح السلمي
في تونس ولكنها تعرضت للتعطيل بسرعة.

فمثلاً: أصدر محمد الصادق الرزقي جريدة إفريقية عام ١٩٢٣ واستمرت حتى
١٩٢٥ حيث تعطلت.

أصدر أحمد الجزيري جريدة المبشر عام ١٩٢٢ تعطلت بعد سنتين من صدورها.

أصدر سلومة عبد الرزاق جريدة الممثل ١٩٢٢ تعطلت عام ١٩٢٤.

أصدر الشاذلي بن الخطاب جريدة الاتحاد عام ١٩٢٣ وتعطلت ١٩٢٤.

هذه الجرائد بعض من الجرائد الكثيرة التي كانت تصدر في البلاد التونسية ولكن
لم يقتصر مسرح الساحة على الصحف التونسية بل كانت هناك صحف كثيرة تعبر
عن مصالح كل الطوائف الموجودة في تونس.^(٢)

(١) العجيلي، التليلي: صدئ الجامعة الإسلامية في المغرب العربي، مرجع سابق، ص ١٢١ وص ١٤٧.

(٢) حمدان: مرجع سابق، ص ٢٠.

٧- مجلة المغرب: La Reve du Maghreb

لم يقتصر نشاط المثقفين داخل تونس، بل تابع هؤلاء النشاط والكفاح السياسي ضد سلطات الاحتلال بعد خروجهم من تونس. وفي مقدمتهم محمد باش حمبة الذي استقر المقام به في سويسرا، فأصدر جريدة المغرب الناطقة بالفرنسية في شهر أيار عام ١٩١٦ واستمرت حتى عام ١٩١٨، فتوقفت عن الصدور؛ بسبب عدم وصول المساعدات من الدولة العثمانية وألمانية. لقد كتب باش حمبة:

« من الضروري لأولئك المتطلعين نحو عهد الحرية والعدالة، أن يحالوا تبليغ اصواتهم، ولهذا رأينا من المفيد تأسيس هذا الجزء من المجلة التي ستكون اللسان المعبر عن مطالب أهل المغرب، هذا الجزء من إفريقيا الشمالية الشامل لمراكش والجزائر وتونس وطرابلس. . . إن خمسة وعشرين مليوناً من المسلمين يؤلفون وحدة متناسقة لحمتها الدين، واللغة والتقاليد، يعيشون تحت حكم أجنبي ومحرومين من جميع الحريات^(١). »

كان باش حمبة يتكلم باسم الشعب المغربي كله، ومطلبه كتونسي مطلب المغاربة. أما أهم المطالب التي نادى بها: - ضمان الحقوق والحريات الفردية.

- الفصل المطلق بين السلطات.
- المساواة للجميع أمام قانون واحد.
- إحداث مجلس تشريعي ومالي منتخب.
- تنظيم البلديات وإحداث مجالس بلدية

منتخبة.

- إحداث مجالس إقليمية منتخبة.^(٢)

(١) باش حمبة، محمد: الشعب الجزائري - التونسي وفرنسا، ترجمة محمود عبد المولى، بيت الحكمة، قرطاج ١٩٩٠، ص ٢٠.

(٢) باش حمبة . محمد : مجلة المغرب، مطالب الشعب التونسي والجزائري، العددان ١١ - ١٢، جنيف ١٩١٧، ص ٢٩.

٢ - الصحف الفرنسية:

١ - صحيفة (لادبيش):

جريدة يومية إخبارية صدر العدد الأول منها ١٩٨٩ فصرح أحد الصحفيين
القدماء (مسيكو):

« ابعثوا للوجود جريدة لايقشعر من قراءتها لا الفرنسيون ولا الأجانب، لا العرب
ولا اليهود، ولا الماسونيون ولا الكاثوليك، لتكن جريدة لا تصدم معتقدات أي كان. إن
في ذلك ضماناً لمطالعة كل الناس. . ».

لقد كانت هذه الجريدة ناطقة باسم الحكومة الفرنسية ورجال الأعمال فهي المعبرة
عن مصالحهم لذلك لاقت رواجاً كبيراً بين قراء جميع الطوائف التي كانت تقطن البلاد
التونسية. ^(١)

ربما كان السبب هو عدم تعرضها للمعتقدات التونسية بل بخطابها تعتبر جميع
الناس رعايا لهم وعليهم واجبات.

٢ - صحيفة تونس الفرنسية:

أصدرها فكتور دوكرنيار ^(٢)

هذه الصحيفة كانت خاصة للتعبير عن الاستعمار الزراعي والدفاع عن مطالب
المعمرين الفرنسيين على حساب الأهالي.

فكان يقول « إذا اعترض سبيلك عربي وأفعى فاقتل العربي قبل الأفعى »
ولهذا الرجل نشاط صحفي بارز فأصدر صحيفة المعمر الفرنسي
(Lecolon Français) والإلحاق (Annexion). ^(٣)

(١) جوليان، شارل اندريه: المستوطنون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب البشير بن سلامة. محمد مزالي،
ط ٢، الشركة التونسية للتوزيع تونس ١٩٨٥، ص ٦٣.

(٢) فكتور دوكرنيار: ولد في موبوج شمال فرنسا عام ١٨٤٩ جاء إلى تونس عام ١٨٨٤ حصل على المحاماة لكنه لم
يشتغل بها. بل اشترى قطعة من الأرض بالوطن القبلي وأصبح فلاحاً كبيراً ثم انتخب رئيساً لاتحاد العمال

الفرنسيين ورئيساً للحجرة الفلاحية من عام ١٨٩٢ حتى ١٩١٧ عام وفاته. انظر العريبي: مرجع سابق، ص ٢٧

(٣) العريبي: مرجع سابق، ص ٥٦-٥٧.

من عناوين هاتين الجريدتين تبين لنا أن هذه الجرائد كانت خاصة للدفاع عن مصالح المعمرين مع التأكيد على أن تونس إحدى ولايات فرنسا.

٣ - القصبة:

أصدرها جاكينو دوازي باللغة الفرنسية ثم أراد أن ينشر نشرة موازية باللغة العربية وتمكن من إصدارها عام ١٨٨٨ مستعيناً ببعض المثقفين التونسيين أمثال محمد الشريف ثم حسين المقدم.

كانت تتميز بعدائها لليهود وبدعوتها للتحالف بين العرب والفرنسيين ضدهم فسعت إلى استعطاف الأهالي المسلمين ووضعهم تحت حماية الفرنسيين.

٤ - المبشر التونسي:

أصدرها أوغست براكس باللغة العربية في ثلاثة أعداد عام ١٨٩٢ ثم أغلقت تعتبر هذه الجريدة أن تونس للعرب وللفرنسيين ودعت إلى التلاحم بينهم ومع ذلك وجهت نقداً للاستعمار الفرنسي لذلك أغلقتها حيث أن إدارة الحماية لم تؤد الرسالة الحضارية في تونس وانتقدت بيع الأراضي للمعمرين فقامت سلطات الحماية بإغلاقها (١). ١٨٩٢.

٥ - البصير: جريدة أسبوعية حرة تشمل على وقائع الشرق والغرب أنشئت في عام ١٨٨١ لصاحبها خليل غانم وكانت مواضيعها تتناول شؤون السياسة والأدب والاقتصاد.

كان رئيس وزراء فرنسا (khambta) غمبتا أكبر مساعد ومعين لهذه الجريدة حيث خصص راتباً شهرياً وقدره ٢٠٠٠ فرنك من خزينته لهذه الجريدة. قصدت فرنسا من إنشاء هذه الجريدة كسب التأييد لنفوذها والدفاع عن مصالحها في الإمارة التونسية لكنها لم تدوم طويلاً حيث انتهت برحيل الوزير الفرنسي لأنها فقدت سند مالي وداعم كبير. (٢).

(١) حمدان: مرجع سابق، ص ١٦-١٧.

(٢) دي طرازي، فيليب: تاريخ الصحافة العربية، ج ١، المطبعة الأدبية بيروت ١٩١٣، ص ٢٥٩.

٣- الصحف الإيطالية:

١- تميزت الجرائد الإيطالية بقلتها لأسباب سياسية فقد ظهر في البداية جريدة اسمها **لونيوني (Lunione)** وتعني الوحدة فكانت معبرة عن حال القنصلية الإيطالية. صدرت عام ١٨٨٦ وبقيت طيلة عشر سنوات حيث ترى أن تونس من نصيب إيطاليا. إلا أنها عدلت لهجتها فيما بعد عندما وقعت فرنسا وإيطاليا معاهدة عام ١٨٩٦ وأصبح هدفها الدفاع عن مصالح الإيطاليين الموجودين في تونس^(١).

٢- المستقبل:

ظهرت مع بداية الإطماع الإيطالية في تونس. فعندما اصطدمت إيطاليا بأطماع فرنسا كان الصراع الصحف أيضاً على أشده كون الصحافة سلاحاً قوياً لرجال السياسة، فطلبت إيطاليا من قنصلها في بيروت أن يرسل لها صحفياً وكاتباً متمرساً قلبى القنصل (كسبار بستلوسا) طلب دولته واستدعى إليه اللبناني يوسف باخوس أستاذ الفلسفة والأدب العربية في مدرسة الحكمة المارونية الذي سافر إلى أوربا ومن هناك أتجه إلى جزيرة سردينيا بعد أن زودته السلطات الإيطالية بكيفية عمله وبعد أن مكث وقتاً توجه إلى تونس حيث بدء الكتابة في جريدة المستقبل وبالطبع مهمتها: الطعن بالحكومة الفرنسية وفضح أطماعها أمام الشعب التونسي والتغني بأمجاد العرب. لكن هذه الجريدة لم تعمر طويلاً حيث أغلقت ١٨٨١ بعد أن هجرها يوسف باخوس^(٢) إلى باريس بطلب من صاحب جريدة البصير خليل غانم.^(٣)

(١) العربي: مرجع سابق، ص ٥٨.

(٢) يوسف حبيب باخوس : ١٨٤٥ - ١٨٨٢، أديب من أهالي غزير بلبنان، عين مدرساً في مدرسة عينطورة، رحل إلى الأستانة ثم سافر إلى إيطاليا، تولى تحرير جريدة البصير بناء على طلب من السلطات الفرنسية، توفي في غزير، ومن أهم مؤلفاته (عشرون يوماً في روما). انظر: دي طرازي: مرجع سابق، ص ٢٤١

(٣) دي طرازي: مرجع سابق، ص ٢٦٥.

- خليل غانم : ١٨٤٦ - ١٩٠٣ هو خليل بن إبراهيم بن خليل غانم، باحث وصحفي، ولد في بيروت، سافر إلى دمشق، واتصل مع واليها أسعد باشا، أصبح صدر أعظم في الدولة العثمانية مدة قصيرة، ثم ذهب إلى باريس وأنشأ جريدة البصير، له مؤلفات منها : (الاقتصاد السياسي) و(حياة المسيح)، ثم نشر كتاب بالفرنسية بعنوان (تاريخ السلاطين العثمانيين)، توفي في فرنسا. انظر دي طرازي: مرجع سابق، ص ٢٤٨

٤ - الصحف الشيوعية:

في عام ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ قامت الثورة الشيوعية في روسيا واستولت على الحكم وقضت على العائلة القيصريّة عائلة رومانوف^(١) وانتشر المذهب الشيوعي. نتيجة وجود أجانب أوربيين ولاسيما من فرنسا وبلجيكا تم نقل مبادئ هذه الثورة إلى أوربا، وما أن حل عام ١٩٢٠ حتى كان لحزب الشيوعي نواب في البرلمان الفرنسي.

قام الضابط لووزن بتأسيس شعبة للحزب الشيوعي الفرنسي بتونس سماها الحزب الشيوعي التونسي الذي انضم إليه الكثير من الشباب بحكم مبادئه القائمة على العدل والمساواة.^(٢)

تبنت هذه الصحف كل مقالاتها للدفاع عن ضحايا الاستغلال الاستعماري، ولا تقتصر بالدفاع عن عمال تونس فقط، بل قامت بالدفاع عن حقوق الأجانب الذين يعانون من الاستغلال الرأسمالي، ووقعت إلى جانب المثقفين التونسيين فكانوا ينشرون المقالات على صفحات هذه الجرائد أمثال عبد الجليل الزواش وعلي باش حمبة. ومن أهم الجرائد:

- المستقبل الاجتماعي: وهي جريدة ناطقة بالفرنسية صدرت عام ١٩٢١

- حبيب الأمة والبصير ناطقة بالعربية صدرت عام ١٩٢١^(٣)

(١) روما نوف: اسم عائلة إمبراطورية حكمت روسيا من ١٦١٣ - ١٩١٧ قدموا من لتوانيا أو ألمانيا وأصبحوا ملاكاً للأراضي الروسية وحصلوا على مكانة رفيعة عندما تزوج القيصر إيفاف الرابع من انستاسيا روما نوف في ١٥٤٧. تولى في الحكم خمسة عشر حاكماً من عائلة روما نوف، وكان أشهرهم بطرس الكبير. وانقرضت العائلة الحاكمة عام ١٧٦٢ ولكن ظل الحكام يحتفظون باسم روما نوف حتى نقولا الثاني الذي عزل عام ١٩١٧ ويقال أن الثوار البلاشفة قد قتلوه وبعض أفراد أسرته عام ١٩١٨ وقد تمكن بعض أفراد الأسرة من الهرب من روسيا وعاشوا خارجها. أنظر عطية: مرجع سابق، ص ٥٥٩

(٢) بن قفصيه، مرجع سابق، ص ٢٢ - ٢٣.

(٣) المحجوبي، علي: تطور الحركة الشيوعية بتونس (١٩١٩ - ١٩٤٣) منشورات كلية الآداب منوبة، تونس

١٩٩٢، ص ٧٧.

وكما قامت فرنسا بعرقلة الصحف العربية قامت أيضاً بعرقلة نشاط الصحف ذات التوجه الشيوعي لأنها لا تريد اتصالاً بين رجال الحركة الوطنية ذوي الاتجاه الإسلامي والليبرالي والشخصيات ذوي التوجهات الشيوعية؛ لأن ذلك يعيق تنفيذ سياستها فتعرضت هذه الصحف للإغلاق بعد فترة من إنشائها.

٥ - الصحف اليهودية: ^(١)

لم يكن لدى اليهود في يومٍ من الأيام دولة تسمى الدولة اليهودية، وإنما عبر العصور كانوا عبارة عن شعب مثل باقي الشعوب الأخرى تعيش جيناً إلى جنب لهم عاداتهم وتقاليدهم وحرفهم؛ وبسبب عدم وجود دولة تجمعهم في كيان واحد انتشروا في كل أصقاع الأرض باحثين عن مصالحهم، فكان الشمال الإفريقي إحدى وجهات نظرهم مستغلين بعد هذه المنطقة، والتركيب السكانية.

وفعلاً نزلوا في مناطق ليبيا وتونس والمغرب العربي ومارسوا حرفتهم الرئيسية التي يشتهرون بها التجارة و الصناعة.

أما في العصر الحديث فلقد توافد اليهود على الشمال الإفريقي ومنه تونس أيام الدولة العثمانية التي استقطبت اليهود المطرودين من إسبانيا، ومما يدل على وجود اليهود في تونس تلك المقبرة التي تقع وسط تونس حيث بلغت مساحتها ٦٥ ألف كم^٢ ومقسمة إلى قسمين: قسم كبير مخصص للقبور والقسم الآخر صغير مخصص لدور العبادة وقاعات. . . وكانت زيارة هذه القبور تتم كل يوم اثنين وخميس، وفي عام ١٨٩٤ أصبحت هذه المقبرة صغيرة ولا تتسع للقبور حسب زعم زعماء اليهود، فقرروا استملاك أراضي جديدة عن طريق الاتحاد اليهودي. ^(٢)

من المستحيل أن يكون مساحة هذه المقبرة بهذا الحجم، حيث أن مساحة تونس بالكامل ١٦٤ ألف كم^٢. كما أن قصة عدم اتساع المقابر لعدد الموتى من

(١) لقد كتب عن تاريخ اليهود وانتشارهم وأعمالهم في البلاد العربية الكثير من المؤلفات إما في العصور الإسلامية راجع كتاب عبد الفتاح بشير (اليهود في المغرب العربي) وفي التاريخ الحديث أول من أشار إلى اليهود ودورهم في انهيار الإمبراطورية العثمانية والتدخل في الولايات العربية . د. محمد علي عامر (يهود الدونما).

(٢) Armand Marek, Abler: L'ancien cimetière Israélite de tunis, université' paris, ٢٠٠٨, p ٣٥.

اليهود أيضاً غير صحيح، فربما أراد اليهود استملاك أكبر مساحة من الأراضي بشرط عدم إغضاب السلطات التونسية والفرنسية.

عمل اليهود كما أسلفنا الذكر بالتجارة والصناعة، وكانوا على قسمين البعض تحالف مع العرب على أساس العيش على ارض واحدة، فأنشئوا رابطة يهودية مسلمة وأصدروا جريدة ناطقة باسمهم Tunisie Novella (تونس الجديدة). أما القسم الثاني فقد طالب بالاندماج مع الفرنسيين من مبدأ انهم مضطهدين اقتصادياً وكان يمثل هؤلاء كبار البرجوازية فظهرت صحف ناطقة باسمهم ومنها (La craveche) العدالة. بقي الأمر كذلك حتى انعقاد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بال بسويسرا ١٨٩٧ والدعوة لقيام وطن قومي يجمع يهود العالم في أرض واحدة، فبدأت حينها الجالية اليهودية بالعمل في سبيل دعم هذا الهدف، ولئن كان لليهود في تونس دور محدود في هذه القضية فقد كانت لهم صحف خاصة بهم تدافع عنهم وتعمل للدفاع عن الشعب اليهودي في الايالة وتشجيع الهجرة إلى فلسطين (الوطن القومي لليهود حسب زعمهم).

أما بالنسبة للصحف اليهودية (العبرية) في تونس بين عامي ١٨٨١ - ١٩٤٥^(١) فكانت على ثلاثة أنواع:

- ١- الصحف الناطقة بالعبرية - عربية
- ٢- الصحف الناطقة بالفرنسية
- ٣- الصحف الناطقة بالعبرية - عربية والفرنسية وتكون هذه الصحف صلة الوصل بين القراء.

أما ما هو دور هذه الصحف على الرغم من اختلاف اللغات؟
كما أسلفنا سابقاً في هذه الفترة كانت لها دور في تقوية الشعور اليهودي وقيام دولة يهودية في فلسطين فلقد جاء على لسان أحد الصهاينة في تونس:

(١) لقد كان هناك أكثر من ٥٠ جريدة في تونس ومن بين هذه الصحف ٣١ جريدة ذات انتماء صهيوني واضح وأغلبها ناطق بالفرنسية.

« لقد أعطت هذه الجرائد بعداً جداً للتطلعات الماشيكانية^(١) المبهمة لدى الجماهير ورسخت في أذهانها تعريفاً أكثر علمية وواقعية للقومية اليهودية التي تنتظر كلنا ساعة ترميمها، لقد مهدت لنا هذه الجرائد الطريق وجنبتنا مشقة الانطلاق من الصفر^(٢). »

ومن أهم الصحف اليهودية:

١- **البستان**: صدرت بانتظام كل يوم أربعاء حيث صدر العدد الأول منها في ٢٦ أيار ١٨٨٧ برئاسة مسعود معرك، فكانت ذات توجهات صهيونية. حيث أبرزت في أكثر من مقال مزايا الاستيطان اليهودي لفلسطين بفضل إعانات مونتيفوري، واعتبرت أن الهجرة إلى فلسطين هي الحل الوحيد للمشاكل اليهودية.^(٣)

٢- **الحلوز**: صدر العدد الأول في ١٥ شباط ١٩٣٣ وعن سبب ظهورها جاء في العدد الأول منها:

«إن بعث هذه الجريدة، قد أملاه ظهور تيار جديد^(٤) في الحركة اليهودية التونسية وتستجيب هذه الصحيفة لحاجات جديدة لا تستطيع تلبيتها أي من الصحف الموجودة وهي تنبع من التأليف بين القومية والاشتراكية. . . الجريدة لسان كل هؤلاء الذين يريدون أن يكونوا رجالاً يهوداً».

٣- **الفجر**: صدرت هذه الجريدة استجابة لرغبة يهود الأيالة في تونس البالغ عددهم ٧٥٠٠٠ نسمة، وهم ينتمون إلى كل الطبقات الاجتماعية، ويساهمون في

(٢) الماشيخ: نبي من نسل داود يعتقد اليهود أنه سيظهر يوماً ليجمع شتاتهم ويعود بهم إلى أورشليم ويبنى المعبد.

(٣) التيمومي، الهادي: النشاط الصهيوني بتونس ١٨٩٧-١٩٤٨، تقديم محمود درويش ط ١، التعاضدية العمالية للنشر، تونس ١٩٨٢، ص ٤٣.

(٢) العربي السنوسي، محمد: المجلة التاريخية المغاربية، العددان ٦٣-٦٤، تونس، ١٩٩١، ص ٣٤٠.

(٣) بلغ عدد التيارات الموجودة داخل الحركة اليهودية في تونس ستة تيارات: التيار التصحيحي - التيار المزراحي - التيار الاشتراكي الديمقراطي - التيار الصهيوني العام - التيار الحيري - تيار هاشوميرها تسعير. انظر التيمومي :

مرجع سابق، ص ٣٧

الحياة الاقتصادية وتريد حياة آمنة لليهود، والفجر ستكون هي ذلك النبراس والناطق باسم هذه الجالية.^(١)

٤ - الاتحاد:

جريدة علمية سياسية تظهر مرة في الأسبوع وذلك لفائدة مصالح يهود تونس والأريالة أدارها شيا لوم فلاح. ظهر العدد الأول منها يوم ١٧ تشرين الأول ١٨٩٣ وكان عدد الأعداد التي ظهرت ١٩ عدد ثم اختفت هذه الجريدة.

ومن الجرائد الأخرى:

- المحير - الحرية - التلغراف -
النجمة^(٢)

لقد كانت الصحافة التونسية في هذه الفترة تعبر عن صراع بين طرفين الشعب التونسي والاستعمار الفرنسي الذي امتاز بإتباع أساليب القهر الثقافي والتحدي الديني من أجل ضرب مقومات الشعب التونسي، فقامت بمنع صدور الصحف الوطنية وملاحقة القائمين عليها وطردهم خارج البلاد أمثال الشيخ الثعالبي وعلي باش حمبة ومع ذلك لا بد من ذكر بعض الأمور فيما يتعلق بالصحافة.

- ظهرت الصحافة في تونس لإبلاغ قرارات ومراسيم الباي إلى رعايا الدولة التونسية سواء كانوا تونسيين أم غير تونسيين بعد صدور قانون عهد الأمان ١٨٥٧ ودستور ١٨٦١.

- يعود وجود الصحافة في تونس إلى أوروبا. فالصحف التونسية أوربية المنشأ وهذه إحدى ثمرات الاتصال بالغرب منذ أيام المشير أحمد.

- ومثلما مرت الحياة السياسية بمراحل ستتحدث عنها لاحقاً (في الخاتمة) أيضاً كان للصحافة مراحل تراوحت بين الإهمال والجمود والتطور.

(١) السعفي، كلثوم: تطور الصحف الصهيونية التونسية للدولة اليهودية، ط ١، دار شرق برس قبرص ١٩٨٩، ص ١١-١٢.

(٢) العربي السنوسي: مرجع سابق، ص ٣٥٠.

فعند دخول الاستعمار الفرنسي لم يكن هناك سوء جريدة الرائد التي وقعت فيما بعد تحت تأثير المقيم العام الفرنسي ثم ظهرت الجرائد مع بدايات القرن العشرين وبعد نفي الزعماء الوطنيين إثر حوادث الزلاّج والتراموي لم تصدر أي جريدة حتى بدايات العشرينات، فأدى إلى ازدهار الصحف ازدهار ملموساً وذلك بسبب تغير الأحداث الدولية من جهة ومن جهة أخرى زيادة الوعي الثقافي والسياسي عند التونسيين.

- الصحافة التونسية كانت سبباً من أسباب نشوء الأحزاب السياسية في تونس فظهر حزب تونس الفتاة وجريدة التونسي ثم الحزب الدستوري وجريدة الصواب والحزب الدستوري الجديد وجريدتين العمل التونسي وصوت التونسي.

- كانت الصحف في تونس تعبيراً عن توجهات الطبقة المثقفة فنجد أن الصحف تنوعت بتنوع التوجهات السياسية فكانت هناك الصحف الإسلامية التي تدعو إلى جامعة الإسلامية والالتفاف حول المركز وبعض منها دعا إلى مقاومة الاستعمار كجريدة الصواب وبعضها دعا إلى التعاون مع الاستعمار للوصول إلى الهدف مثل العمل التونسي.

وأخيراً كانت الصحافة بالنسبة إلى الشعب التونسي منبراً للتعبير عن آرائه وأفكاره وهمومه التي يعانيتها نتيجة الوجود الفرنسي في بلاده.

الخاتمة:

لقد خضع الوطن العربي مع بدايات القرن السادس عشر للحكم العثماني. فكانت البداية مع العراق ١٥١٤، ثم الشام ١٥١٦، وتبعتها مصر وبلدان الشمال الإفريقي ومنذ ذلك التاريخ وحتى ظهور الاستعمار الأوربي اعتبرت هذه البلدان ولايات عثمانية تطبق عليها كل القوانين والأنظمة العثمانية مع اختلاف في كيفية هذا التطبيق (اعني مثلاً أن الشمال الإفريقي على الرغم من تبعيته للعثمانيين إلا أن في كثير من الأحيان كان حكامه أشبه بالمستقلين على خلاف ولاية الشام).

كانت الرابطة الإسلامية هي أقوى وأهم الروابط التي لا انفكاك منها جمعت العرب مع الترك. وسواء أكان حكم الأتراك ذو أثر إيجابي أم سلبي فقد استمر لفترات طويلة من الزمن.

أما أوربا: فقد كانت في هذه الفترة التي جاءت بعد سبات دام قرون من الزمن تستيقظ على ناقوس الخطر الذي يدق أبوابها (الدولة العثمانية) وبوقت قصير استطاعت أن تصمد أمام هذا الخطر. بل ذهبت إلى أبعد من ذلك حيث بدلت الأدوار لتصبح خطراً يهدد الدولة العثمانية ويقضي عليها أخيراً.

هذا الوقت القصير الذي تحدثت عنه كان على موعد مع الثورة الصناعية في أوربا والسباق إلى التسلح بين الدول الكبرى (بريطانيا- فرنسا- النمسا- إيطاليا وأخيراً ألمانيا التي ظهرت نوعاً ما متأخرة).

فازداد عدد المصانع وظهر الإنتاج بكميات كبيرة فضاقت الأسواق الأوربية بهذا الإنتاج وحصلت أزمة اقتصادية تمثلت بضيق السوق الاستهلاكية فبدأ البحث عن الأسواق التي تكون منتجة ومستهلكة معاً. فكانت هذه الأسواق الدولة العثمانية المريضة وبالطبع كان السبب هو الدولة العثمانية التي أهملت الاقتصاد والثقافة والعلم فاكتفت بالتعني أنها دولة عسكرية وجيشها الانكشاري الذي لا يقهر.

فسارعت الدول الأوربية لكسب الرضا والتقرب من العثمانيين على الرغم من ضعفهم فظهر نظام الامتيازات الأجنبية.

إن غنى الوطن العربي بثرواته الهائلة، وضعف حكامه من جهة، وقوة أوربا والصراع فيما بينها أدى إلى ظهور الاستعمار الطامع بأملاك الرجل المريض فكان

الصراع على أشده بين فرنسا وبريطانيا في البداية ثم ظهرت إيطاليا. ولأن أوربا رغبت في السيطرة على أملاك الدولة العثمانية البعيدة عن المركز كانت الجزائر أولاً ثم تونس والمغرب.

أما تونس فقد دخلتها القوات الفرنسية في ١٢ أيار ١٨٨١ متذرةً بقيام قبائل من بني خمير باجتياز الحدود إلى الجزائر وقتلها بعض الأشخاص وبالطبع هذا يهدد أمن فرنسا كون الجزائر ولاية فرنسية وبقيت في البلاد حتى عام ١٩٥٦.

فمن خلال هذه الدراسة للصراع على الولاية التونسية أولاً ثم الدخول إلى البلاد من قبل فرنسا ثانية، ودراسة الحياة السياسية في تونس نتوصل إلى النتائج الآتية:

١- إن الوضع الداخلي السيئ في تونس هو الذي هيأ الصراع حول هذه الولاية وبالتالي جلب الحماية الفرنسية على هذه البلاد.

فالباي هو رأس السلطة ولا يجوز لأحد أن يعترض على قراراته. وقيامه بفرض الضرائب وإهمال البلاد من الناحية الاقتصادية مع السرعة نحو بناء تونس الحديثة بإمكانات أكبر من إمكانياتها الحقيقية.

٢- إن الحماية الفرنسية ما هي إلا شكل من أشكال الاستعمار فرضته فرنسا لكي تتجنب مشاكل عانت منها في الجزائر حيث أن الحماية تحتفظ من الناحية الشكلية للبلد المحمي هيئته.

٣- إن السياسة الاستعمارية التي فرضها فرنسا على تونس تمثل شكلاً من أشكال الهيمنة والعبودية والاستغلال لكل خيرات البلاد.

كل ذلك جعل الشعب التونسي تحت رحمة الإنسان العصري المتمدن القادم من بلاد الديمقراطية والحرية والمساواة حسب ادعاءات الإدارة الاستعمارية، ولم تكف فرنسا بتحقيق السيطرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية فقط، بل صبت غضبها وجهودها لتغيير عقائد وقيم وعادات وتقاليد هذا الشعب من خلال زرع الاتجاه التغريبي في المجتمع التونسي وفي الحقيقة اعتقد أن الاستعمار خرج من أغلب البلاد العربية ولا أقصد التونسية فقط مانحاً الدول العربية استقلالها ولكن هذا الاستقلال كان وهمياً لأنه لم يخرج إلا وترك تلامذته الذين رباهم لتحمل المسؤولية. فترى هؤلاء بنظر شعوبهم هم أبطال الاستقلال والفخر والاعتزاز ومن ناحية أخرى كانوا ينفذون السياسة

الاستعمارية التي رسمها هذا الاستعمار بأسماء مختلفة المدنية والتحديث والتحضر فأنساق هؤلاء التلاميذ الذين أصبحوا رؤساء في أغلب بلدانهم مسرعين نحو هذه السياسية متخلين عن ماضيهم وحضارتهم التي هي برأيهم السر وراء تخلف الأمة العربية.

٤- قامت سلطات الحماية بتكريس شخصية الباي على كرسي العرش ومحاولة الدفاع عنه والمحافظة عليه وعلى أفراد أسرته وبالطبع هذه العملية تجعل الشعب التونسي يسمع لأي كلمة يقولها الباي وبالتالي لا تدخل في صراعات مع الشعب.

٥- لم تعرف تونس الحياة السياسية على الإطلاق بدءاً من ١٨٨١ حتى عام ١٩٢٠ لأن فرنسا سيطرت على كل المؤسسات السياسية وأبعدت كل الرموز الوطنية عن الساحة ولكن بعد عام ١٩٢٠ ونتيجة لتغير الأحداث الدولية وظهور مبادئ ويلسون نمت الوعي الوطني التحرري وأصبح الوطنيون يشاركون في الأحداث السياسية.

٦- إن سياسة التحديث التي بدأها المشير أحمد باشا وقيامه ببناء مدرسة باردو العسكرية ثم متابعة هذه السياسة من قبل خير الدين التونسي وبنائه للمدرسة الصادقية من جهة. وظهور الامتيازات الأجنبية في تونس من جهة أخرى. جعلت الشعب التونسي يحتك مع الغرب فأدى إلى ظهور طبقة لعبت دوراً في تاريخ تونس والمغرب هي طبقة المثقفين (الانتلجنسيا) الذين أدركوا مدى تخلف بلدانهم وتقدم أوربا. فقام هؤلاء بالتوفيق بين القيم الإسلامية والثقافة الأوروبية والآخذ من الاثنين وعدم رفض الواحد للآخر.

هذه الطبقة الواعية تسلحت بالعلم والمعرفة وحاربت فرنسا بنفس أسلحتها فأنشئت الأحزاب والجمعيات السياسية التي قادت البلاد إلى الاستقلال وهذه من الأمور التي سبقت تونس شقيقاتها من البلدان الأخرى حيث اتبعت الكفاح السياسي أكثر من الكفاح المسلح.

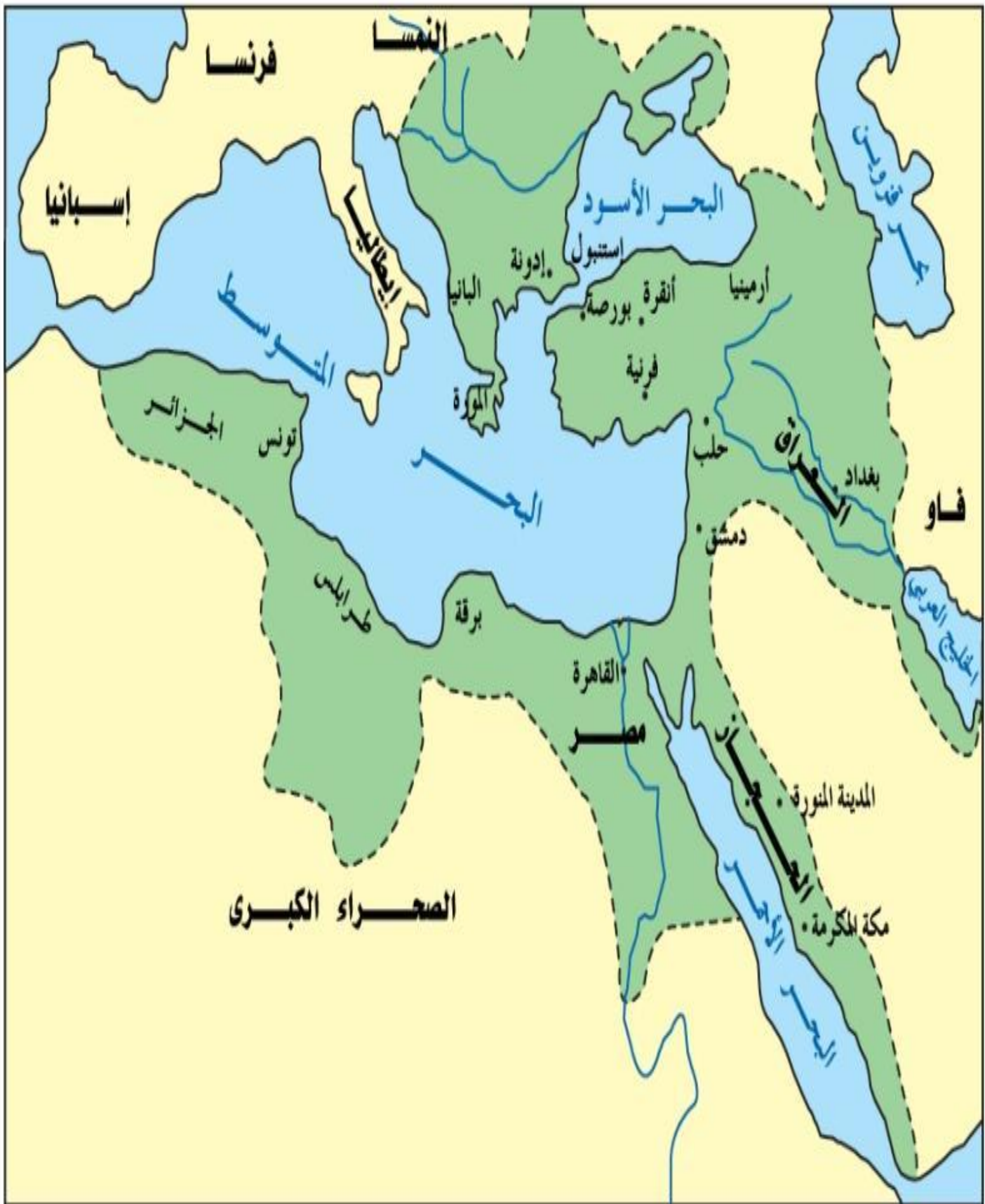
٧- آخر سلاح اتبعته الطبقة الواعية التونسية. هذه الطبقة التي أهم ما يميزها التفاوت الاجتماعي بين أبنائها فعلى طاولة الأحزاب والجمعيات ظهر العمال والفلاحون والمثقفون. . سلاح الصحافة فأدركت أهميته فأخذت الجرائد تنتشر بأعداد

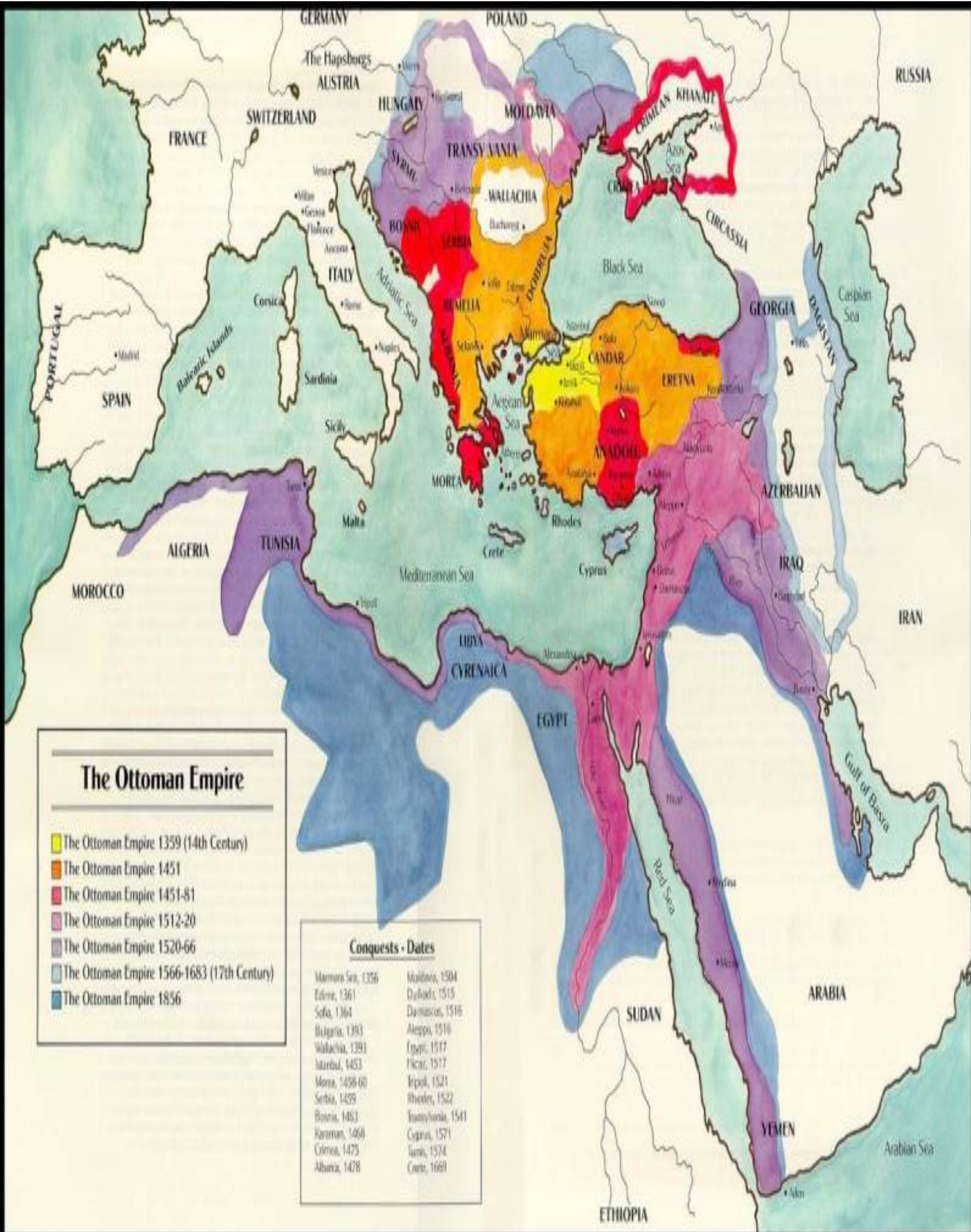
كبيرة لتعبر للرأي العام العالمي عن عدالة قضية بلادهم من خلال ازدواجية اللغة. فلم يكتب هؤلاء باللغة العربية فقط بل تعلموا اللغة الفرنسية لمقاومة المستعمر بالسلاح نفسه.

أخيراً:

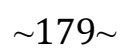
كانت تونس من البلدان العربية التي خضعت للمستعمر ولكنها عرفت بالمقابل كيف تواجه هذا المستعمر الذي أراد سلب الشعب التونسي كل شيء. فأجبرته على الاعتراف باستقلالها وسيادة أراضيها بفضل كفاح أبنائها وصمود مؤسساتها، ولاسيما الدينية (الزيتونة). فخضوع تونس للهيمنة الاستعمارية كان شأنها شأن بقية البلدان الأخرى فترة مرت وانقضت لتعود تونس بعد ذلك إلى حاضنة الأمة الإسلامية.

ملاحق البحث

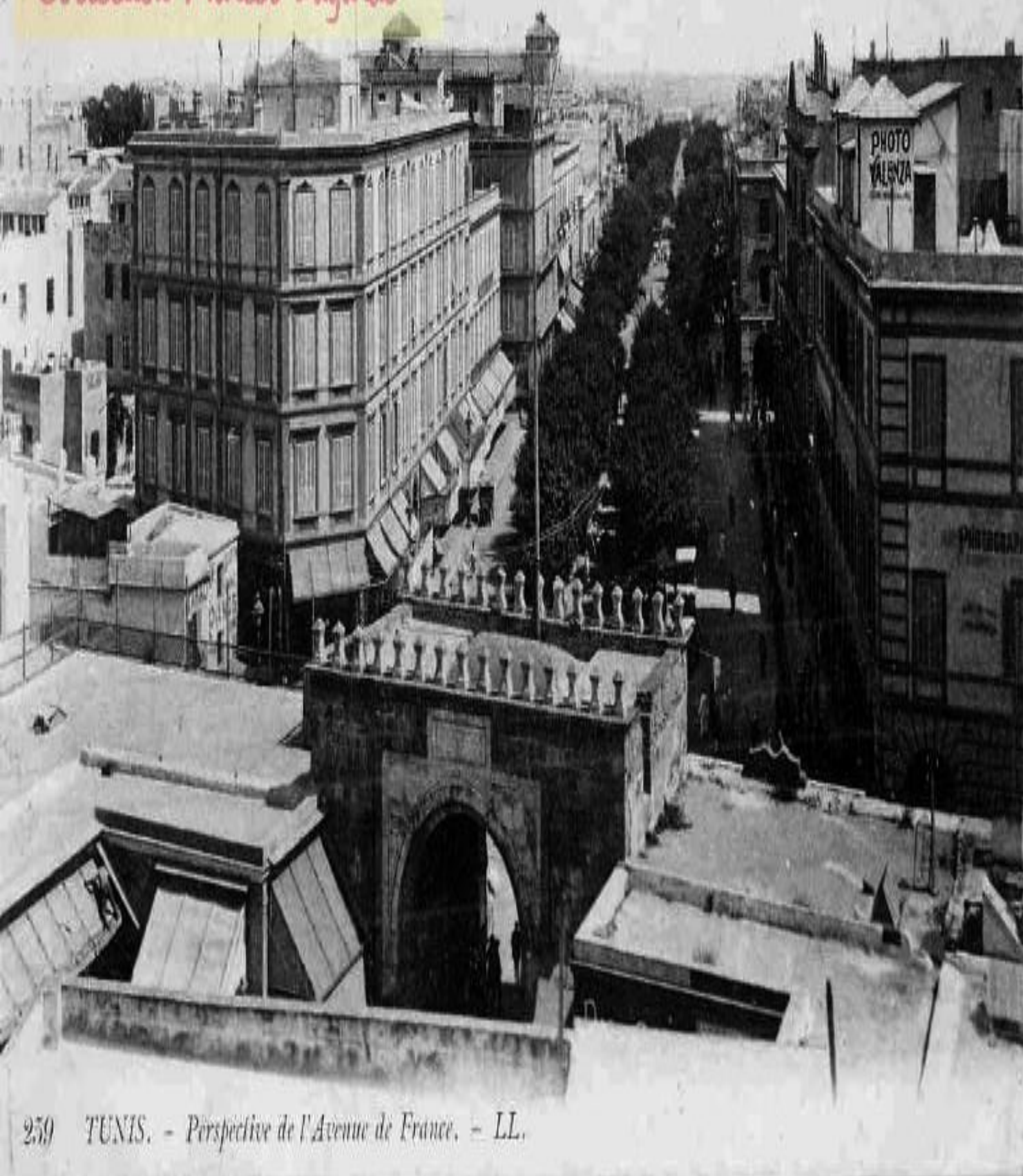




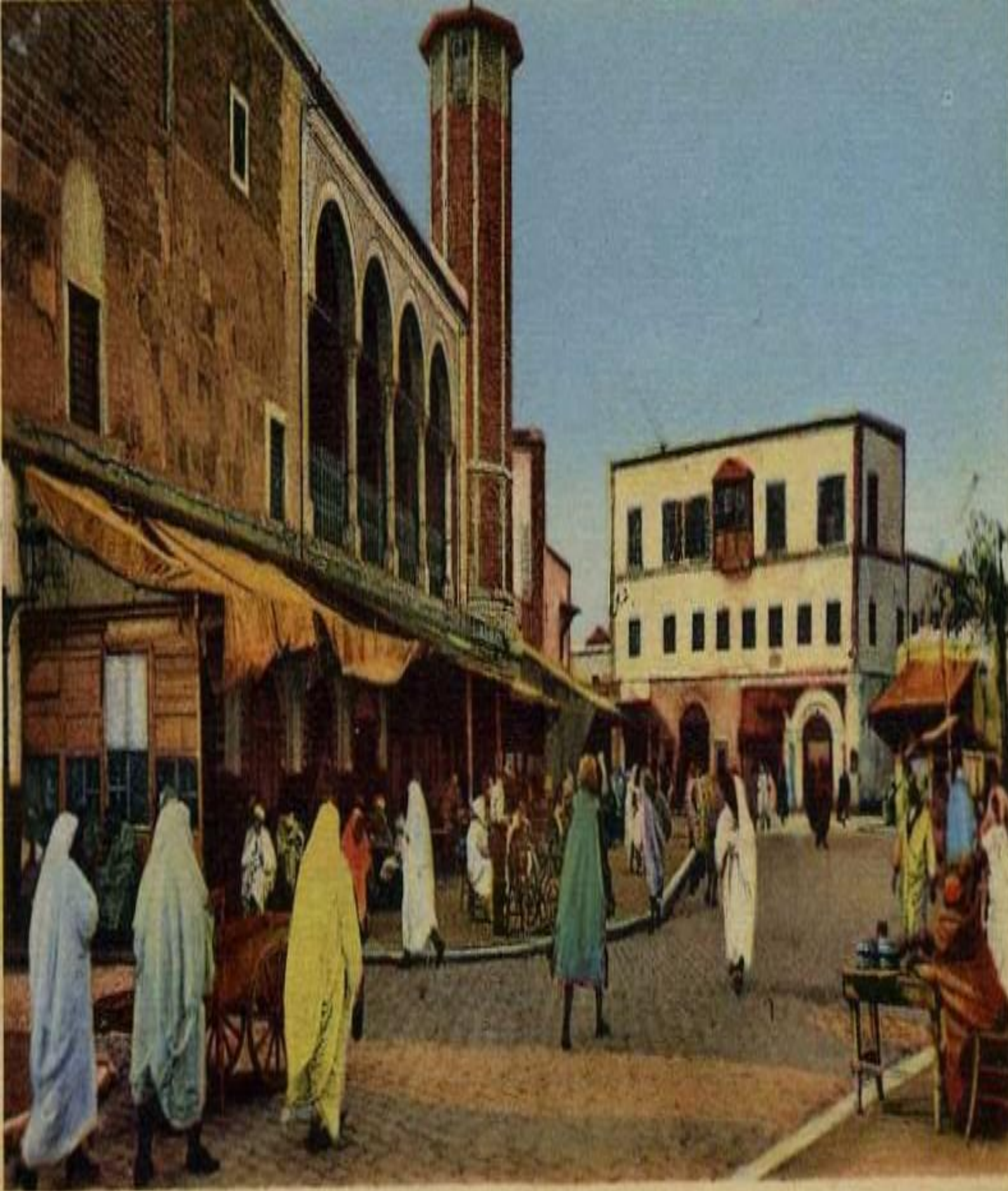
1505-1530 of 81







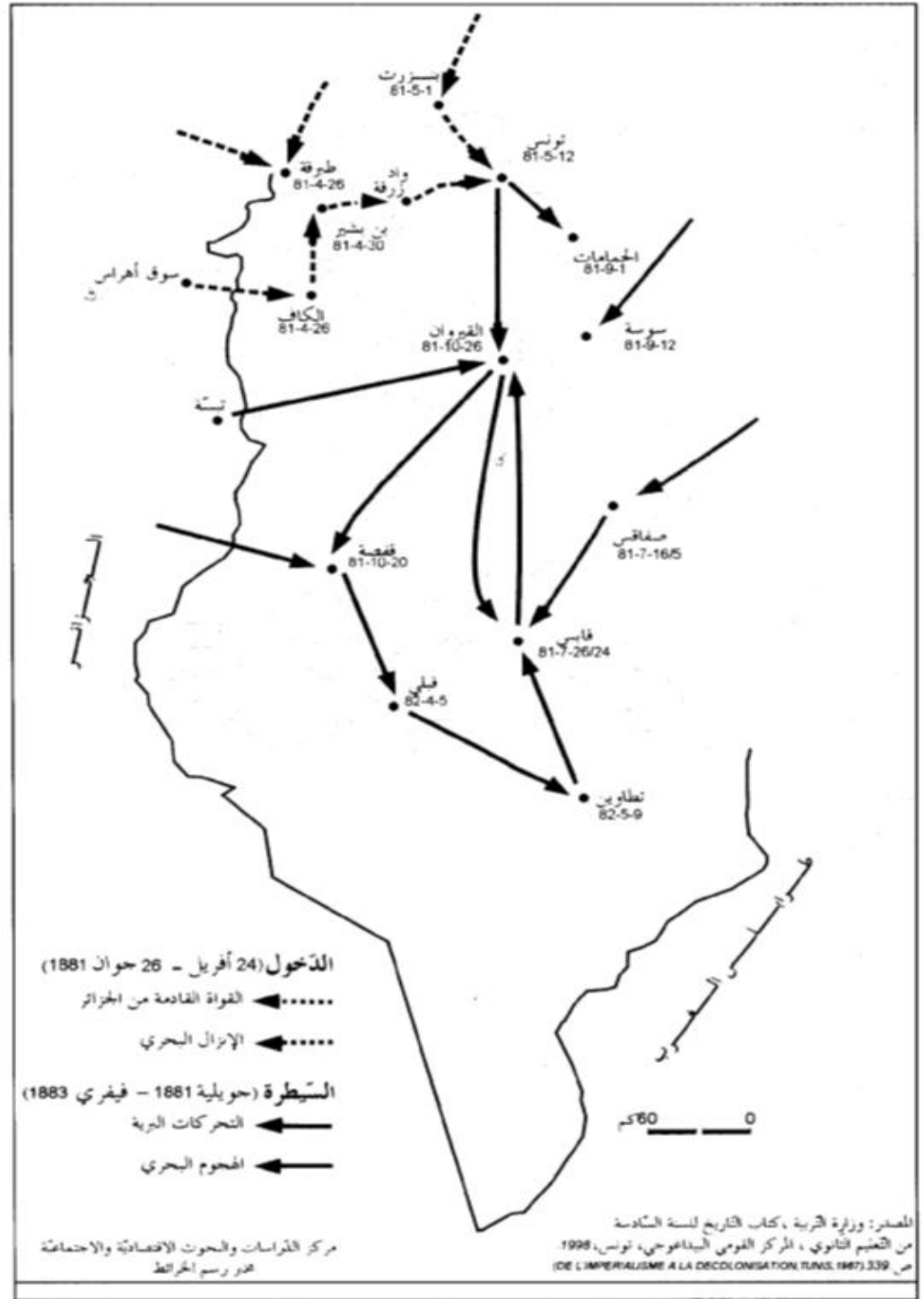
259 TUNIS. - Perspective de l'Avenue de France. - LL.



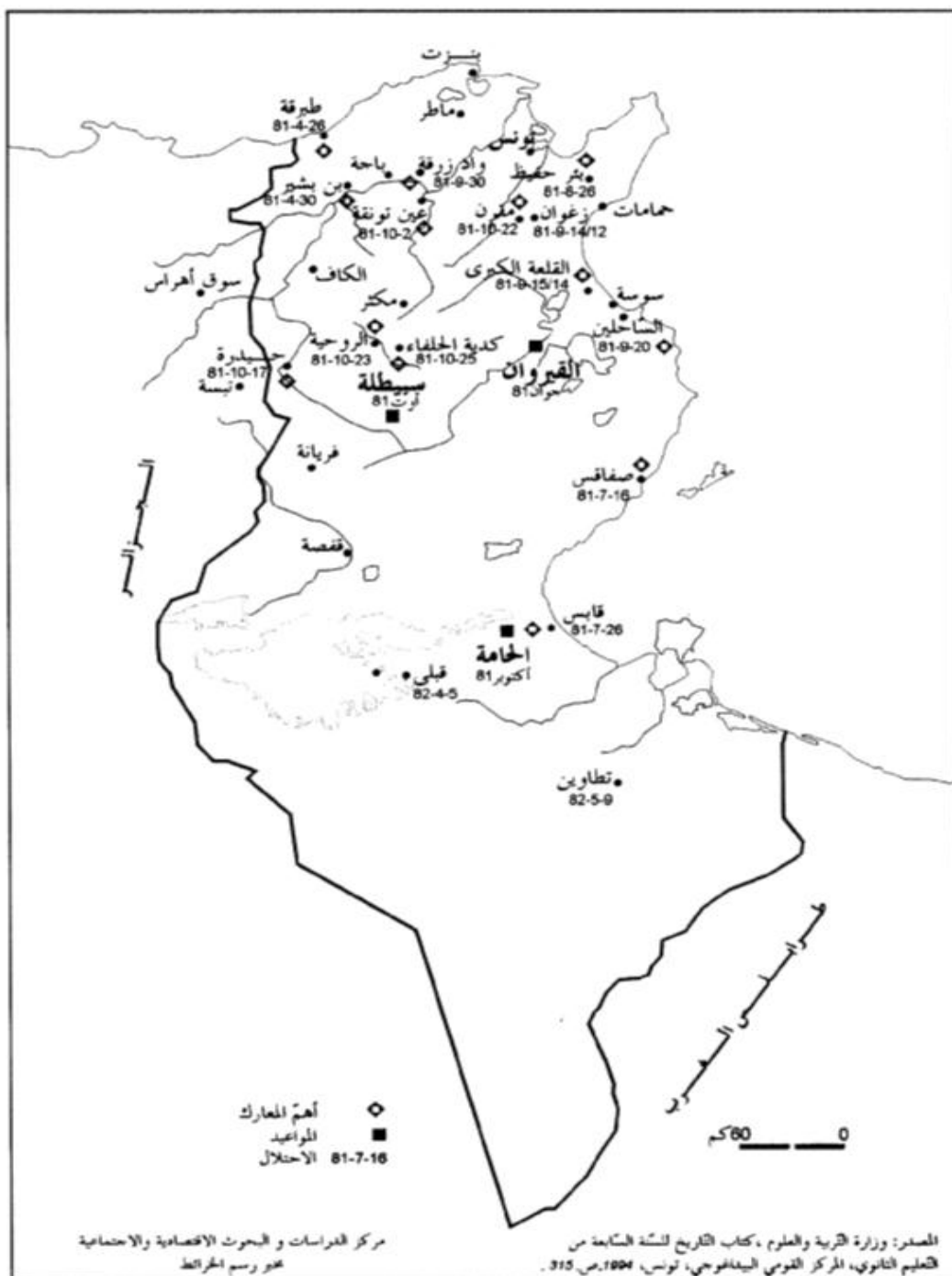
67 TUNIS

Place et Mosquée El Halfaouine

تحركات قوات الاحتلال (1881 - 1882)



أهم معارك المقاومة (1882-1881)



معاهدة باردو أو «قصر السعيد»

«إنّ دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو باي تونس - لما كان من غرضها أن يمنعا إلى الأبد حدوث قلاقل كالتي حصلت أخيرا على حدود الدولتين بسواحل المملكة التونسية وأن يحكما علاقات ودادهما القديم وروابط حسن الجوار - قد اتفقتا على عقد معاهدة من شأنها تحقيق مصالح كلا الجانبين الساميين المتعاقدين. وبناء على ذلك فإنّ فخامة رئيس الجمهورية الفرنسية قد عين العماد بريار نائبا مفوضا من طرفه فاتفق جنابه مع سموّ الباي المعظم على البنود الآتية :

البند الأول : إنّ معاهدة الصلح والمودة والتجارة وجميع المعاهدات الأخرى الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنسية وسمو باي تونس قد وقع تأكيدها وتجديدها.

البند الثاني : لأجل تسهيل القيام بالإجراءات التي يتحتّم على دولة الجمهورية الفرنسية اتّخاذها للوصول للغرض الذي يقصده الجانبان العاليان المتعاقدان فقد رضي سمو باي تونس بأن تحتلّ القوات الفرنسية العسكرية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل، ويزول هذا الاحتلال عندما تتفق السلطانان الحريّتان الفرنسية والتونسية -، وتقرّران معا بأن الإدارة المحليّة قد أصبحت قادرة على المحافظة على استتباب الأمن العام.

البند الثالث : تتعهد دولة الجمهورية الفرنسية ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كلّ خطر يمكن أن يهدّد ذاته أو عائلته أو يعبث بأمن مملكته.

البند الرابع : تضمن الدولة الفرنسية تنفيذ جميع المعاهدات المعقودة بين السلطات التونسية ومختلف الدول الأوروبية.

البند الخامس : يمثل الدولة الفرنسية لدى سمو الباي وزير مقيم عام تكون وظيفته السهر على تنفيذ هذه المعاهدة ويكون هو الواسطة بين الدولة الفرنسية وبين السلطات التونسية في جميع القضايا التي تهّم الجانبين.

البند السادس : يكلف الممثلون الدبلوماسيون والقنصليون لفرنسا في البلاد الأجنبية بحماية رعايا المملكة التونسية ومصالحها. وفي مقابل ذلك يلتزم سمو الباي بأن لا يعقد أي عقد ذي صبغة دوليّة من دون إعلام الدولة الفرنسية بذلك والحصول على موافقتها مقدّما.

البند السابع : تحتفظ دولة الجمهورية الفرنسية ودولة سمو الباي لنفسها بحقّ الاتفاق على وضع نظام مالي بالمملكة التونسية من شأنه الوفاء بواجبات الدين العام وضمان حقوق دائني المملكة.

البند الثامن : تفرض غرامة حربيّة على القبائل العاصية بالحدود والسواحل وتحدّد قيمة هذه الغرامة وطرق جبايتها باتفاق يعقد فيها بعد وتكون حكومة الباي هي المسؤولة على تنفيذ هذا الاتفاق.

البند التاسع : لأجل صيانة ممتلكات الجمهورية الفرنسية بالقطر الجزائري من تهريب الأسلحة والذخائر فإنّ دولة سمو الباي تتعهد بأن تمنع قطعاً إدخال السلاح والذخائر الحربيّة الأخرى بالمملكة التونسية.

البند العاشر : يقع عرض هذه المعاهدة على دولة الجمهورية الفرنسية للمصادقة عليها وتسلم وثيقة التصديق عليها بعد ذلك لسمو باي تونس في أقرب وقت ممكن.

وكتب بالقصر السعيد في 12 ماي 1881

الإمضاء : محمد الصادق باي - العماد «بريار»

«اتفاقية المرسى»

لما كانت عناية سمو الباي المعظم متّجهة إلى تحسين الأحوال الداخلية بالمملكة التونسية وفقاً لأحكام المعاهدة المبرمة في الثاني عشر من شهر ماي سنة 1881، وكانت حكومة الجمهورية الفرنسية راغبة تمام الرغبة في تحقيق أغراض سموه توثيقاً لعري المودة بين القطرين العامين، اتفق الطرفان على عقد اتفاق لتحقيق هذا الغرض، واعتمد رئيس الجمهورية في ذلك سمو بيار بول كامبون وزيره المقيم بتونس الذي قدم أوراق اعتماده لعقد الاتفاقية المحددة في البنود الآتية :

البند الأول : لما كان غرض سمو الباي المعظم أن يسهّل للحكومة الفرنسية إتمام حمايتها، تكفل بإدخال الإصلاحات الإدارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة المشار إليها فائدة في إدخالها.

البند الثاني : تضمن الحكومة الفرنسية قرضاً يعقده سمو الباي لتحويل أو لدفع الدين الموحد البالغ 125 مليون فرنك والدين السائر الذي لا يمكن أن يتجاوز 17.550.000 فرنك، ولكنها هي التي تختار الزمن والشروط الموافقة لذلك، وقد تعهد سمو الباي المعظم بأن لا يعقد قرضاً في المستقبل لحساب المملكة التونسية دون إذن سابق من الحكومة الفرنسية.

البند الثالث : يخصص لسمو الباي المعظم من مداخيل المملكة. أولاً: المبالغ اللازمة للقيام بواجبات القرض الذي ضمته فرنسا، ثانياً : مخصصات سمو الباي وقدرها مليونان من الريالات التونسية (أي 1.200.000 فرنك) وما فضل من ذلك يعين لمصاريف إدارة المملكة ودفع مصاريف الحماية.

البند الرابع : هذه الاتفاقية مؤكدة ومكملة للمعاهدة المعقودة في 12 ماي سنة 1881 فيما يحتاج منها إلى التأكيد والتكميل، ولا تتغير بها الأنظمة التي سبق وضعها فيما يتعلق بتقرير الغرامة الحربية.

البند الخامس : تعرض هذه الاتفاقية على الحكومة الفرنسية للمصادقة عليها وتسلم وثيقة التصديق إلى سمو الباي المعظم في أقرب وقت ممكن. إيداناً بصحة ما تقدّم حرّرت هذه الاتفاقية وختمها الموقعان بختميهما.

وكتب بالمرسى في 8 جوان 1883

الإمضاء : على باي / «بول كامبون»

المصادر والمراجع المستخدمة في البحث:

١ - المصادر:

- ابن أبي الضياف، أحمد: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مج ٢ ج ٤، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩٩.
- باش حمبة، محمد: الشعب الجزائري - التونسي وفرنسا، ترجمة محمود عبد المولى، بيت الحكمة قرطاج ١٩٩١. وهو كتاب باللغة العربية والفرنسية.
- البلهوان، علي: تونس الثائرة، لجنة تحرير المغرب العربي (د. ت).
- بن الخوجة، محمد: صفحات من تاريخ تونس، تقديم حمادي الساحلي، دار الغرب بيروت ١٩٨٦.
- بيرم، محمد: القطر التونسي صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والامصار، تحقيق علي الشنوفي وآخرون، بيت الحكمة تونس ١٩٩٩.
- التونسي، خير الدين: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة ١٢٨٥هـ.
- ثامر، الحبيب: هذه تونس، تحقيق حمادي الساحلي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨.
- الثعالبي، عبد العزيز: تونس الشهيدة، ترجمة حمادي الساحلي، ط ١، دار الغرب بيروت، ١٩٨٤.
- جوليان، شارل اندريه: المستوطنون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب البشير بن سلامة ومحمد مزالي، ط ٢، الشركة التونسية للتوزيع. تونس ١٩٨٥.
- جوليان، شارل اندريه: إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٦.
- الحداد، الطاهر: التعليم الإسلامي وروح الإصلاح، تقديم وتحقيق محمد أنور بوسني، الدار التونسية للنشر، تونس ١٤٠٤هـ - ١٩٨١.

- الحداد، الطاهر: العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية، الدار التونسية للنشر، تونس
- السنوسي، محمد بن عثمان: النازلة التونسية، ترجمة محمد الصادق بسيس، تونس ١٩٧٦.
- ٢- المراجع:
- ١- إحسان اوغلي، أكمل الدين: الدولة العثمانية، نقله إلى العربية صالح سعداوي، مج ٢، مركز الأبحاث، اسطنبول ١٩٩٩.
- ٢- الأرقش، عبد الحميد: الحركة العمالية التونسية، مركز الاتحاد العام الشغل، دمشق، ١٩٨٨
- ٣- ابن عاشور، محمد الفاضل: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، النشرة الثالثة الدار التونسية للنشر.
- ٤- أحمد ياغي، إسماعيل: تاريخ العالم العربي المعاصر، ط١، مكتبة العبيكان للنشر السعودية ٢٠٠٠م.
- ٦- ادوارد جولد سميث، آرثر: الحزب الوطني المصري، ترجمة فؤاد دواره، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٣.
- ٧- ارنولد، فرين: العلماء التونسيون ١٨٧٣-١٩١٥، ترجمة خضاوي عمايرية وأسماء معلى، المجمع التونسي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ٨- أحمد، مالكي: الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب، ط١، مركز دراسات الوحدة بيروت ١٩٩٤.
- ٩- أمين، أحمد: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ط١، المكتبة العصرية، صيدا ٢٠٠٧م.
- ١٠- أومليل، علي: الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، ط١، دار التنوير للطباعة بيروت ١٩٨٥.
- ١١- بلخوجة، الطاهر: الحبيب بورقيبة سيرة زعيم، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ١٩٩٠.

- ١٢- بلحوجة، محمد علي: محمد علي الحامي و حوادث الأيام، تونس، (د. ت)
- ١٣- بن الحاج عثمان، البشير، أضواء على تاريخ تونس، ط١، دار سلامة للطباعة تونس (د. ت).
- ١٤- بن بلغيث، الشيباني، الجيش التونسي في عهد محمد الصادق باي، زغوان صفاقس ١٩٩٥.
- ١٥- بن حميدة، عبد السلام: الحركة الوطنية للشغيلة بتونس، دار محمد علي الحامي، صفاقس ١٩٨٤.
- ١٦- بن شريفة، محمد: تاريخ الطباعة حتى انتهاء القرن التاسع عشر، ط١، منشورات المجمع الثقافي أبو ظبي ١٩٩٦.
- ١٧- بن قفصية، عمر: أضواء على تاريخ الصحافة التونسية ١٨٦٠ - ١٩٧٠، دار بو سلامة للنشر، تونس (د. ت).
- ١٨- بن ميلاد. أحمد ومسعود ادريس. محمد: الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية، ج١، بيت الحكمة ١٩٩١.
- ١٩- بن ميلاد، أحمد: الشيخ عبد العزيز الثعالبي والحركة الوطنية ١٨٩٢ - ١٩٤٠، ط١، بيت الحكمة تونس (د. ت)
- ٢٠- بن يوسف، عادل: النخبة العصرية التونسية، سوسة ٢٠٠٦.
- ٢١- بوذيبه، محمد: مشاهير التونسيين، تونس ١٩٨٨.
- ٢٢- تشابجي، عبد الرحمن: المسألة التونسية والسياسة العثمانية، ترجمة عبد الجليل التميمي دار الكتب الشرقية تونس ١٩٧٣.
- ٢٣- التميمي، عبد المالك: الأستيطان الأجنبي في الوطن العربي، سلسلة عام المعرفة، الكويت ١٩٨٣.
- ٢٤- توبي، جاك: الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية. (١٨٤٠ - ١٩١٤)، ترجمة فارس غصوب، ط١، مكتبة الفارابي بيروت (د. ت).
- ٢٥- التيمومي، الهادي: النشاط الصهيوني بتونس ١٨٩٧ - ١٩٤٨، ط١، التعاضدية العمالية للنشر تونس ١٩٨٢.

- ٢٦- التيمومي، الهادي: تاريخ تونس الاجتماعي ١٨٨١-١٩٥٦، ط١، دار محمد علي الحامي للنشر صفاقس ١٩٩٧.
- ٢٧- الجابري، محمد عابد وآخرون. الانتلجانشيا في المغرب العربي، إشراف عبد القادر جغلوط ١، دار الحداثة بيروت ١٩٨٤.
- ٢٨- الجابري، محمد صالح: التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، ط١، دار الغرب بيروت ١٩٩٠.
- ٢٩- الجابري، محمد صالح: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣.
- ٣٠- الجندي، أنور: عبد العزيز الثعالبي رائد الحركة والنهضة الإسلامية، ط١، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٤.
- ٣١- الجندي، أنور: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية للطباعة ١٩٦٥م.
- ٣٢- جوهر، حسن: الاستعمار الفرنسي، دار المعارف، مصر ١٩٦١.
- ٣٣- الحداد، سالم: الحركة النقابية في تونس، دار علامات للنشر، تونس
- ٣٤- الحسناوي، ضاهر: شكيب ارسلان ودوره السياسي الخفي، ط١، دار رياض الرئيس للنشر بغداد ٢٠٠٢.
- ٣٥- حسنين، محمد: الاستعمار الفرنسي من القرن السادس عشر حتى ديفول، ط٢، القاهرة ١٩٦٠
- ٣٦- الحشائشي، محمد بن عثمان: تاريخ جامع الزيتونة، تحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، ط٢، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله تونس (د. ت).
- ٣٧- حقي، إحسان: تونس العربية، دار الثقافة بيروت (د. ت)
- ٣٨- حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩٣٩)، دار النهار بيروت (د. ت)
- ٣٩- خالد، احمد: الدستور الجديد و النقابات و الأحزاب، تونس ١٩٦٨.

- ٤٠- الخرفي، صالح: عبد العزيز الثعالبي من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، ط١، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٥.
- ٤١- الخضر حسين، محمد: تونس وجامع الزيتونة، تحقيق علي الرضا التونسي، تونس ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- ٤٢- خير فارس، محمد: تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، المطبعة الجديدة دمشق ١٩٨١ - ١٩٨٢.
- ٤٣- دي طرازي، فيليب: تاريخ الصحافة العربية، ج١، المطبعة الأدبية بيروت ١٩١٣.
- ٤٤- الذوايدي، زهير: تحولات العمل الوطني التونسي ١٩٢٩ - ١٩٣٩، ط١، الأطلسية للنشر والتوزيع، تونس ٢٠٠٣.
- ٤٥- راشد، أحمد إسماعيل: تاريخ أقطار المغرب العربي الحديث والمعاصر، ط١، دار النهضة بيروت ٢٠٠٤.
- ٤٦- رافق، عبد الكريم: العرب و العثمانيون، ط٢، مطابع الف باء، دمشق ١٩٩١.
- ٤٧- رفعت، محمد: تاريخ البحر المتوسط وتياراته السياسية، دار المعارف، مصر (د. ت)
- ٤٨- الرعيني القيرواني، محمد بن أبي القاسم: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ط١، المطبعة الدولية التونسية، (د. ت).
- ٤٩- رمضان، عبد العزيز: الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة، دار المعارف ١٩٨٥.
- ٥٠- رياض، زاهر: الاستعمار الأوربي لإفريقيا في العصر الحديث، مكتبة الجامعات للنشر القاهرة (د. ت)
- ٥١- الزاوي، الطاهر احمد: جهاد الابطال في طرابلس الغرب، دار الفتح، بيروت ١٩٧٠.
- ٥٢- زيادة، نقولا: تونس في عهد الحماية ١٨٨١ - ١٩٣٤، معهد الدراسات العربية ١٩٣٦.

- ٥٣- زيادة، نقولا: قصة الاستعمار في العالم العربي، دار الكاتب العربي بيروت (د. ت)
- ٥٤- الساحلي، حمادي: فصول في التاريخ والحضارة، ط١، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٢.
- ٥٥- سالم، عبد العزيز: المغرب الكبير، ج٢، دار النهضة بيروت ١٩٨١.
- ٥٦- السعفي، كلثوم: تطور الصحف الصهيونية التونسية للدولة اليهودية، ط١، دار شرق برس قبرص ١٩٨٩.
- ٥٧- الزمرلي، الصادق: إعلام تونسيون، تقديم حمادي الساحلي، دار الغرب بيروت ١٩٨٦.
- ٥٨- الشاطر، خليفة وآخرون: تونس عبر التاريخ، ج٣، مركز الدراسات تونس ٢٠٠٥.
- ٥٩- الشريف، محمد الهادي: تاريخ تونس، ط١، دار سراس للنشر تونس ١٩٩٣.
- ٦٠- صادق سعد، أحمد وآخرون: الانتلجنسيا العربية، الدار العربية للكتاب، بيروت (د. ت).
- ٦١- صالح المراكشي، محمد: قراءات في الفكر العربي الحديث، الدار التونسية للنشر ١٩٩٢.
- ٦٢- الصالح مزالي، محمد: الوراثة على العرش الحسيني ومدى احترام نظامها، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٦٩.
- ٦٣- الصباغ، ليلي: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الكتاب دمشق ١٩٨٨.
- ٦٤- الصولي، علي: الدين والدولة في مواقف محمد بيرم، دار الطليعة، دمشق ٢٠٠٣.
- ٦٥- صولة، عبد الله والقاضي، محمد: الفكر الإصلاحي عند العرب في عصر النهضة دار الجنوب للنشر، تونس ١٩٩٢.
- ٦٦- الصويغي، عبد العزيز: بدايات الصحافة الليبية، ط١، الدار الجماهيرية للنشر، طرابلس ليبيا (د. ت).

- ٦٧- الطاهر، عبد الله: رؤية شعبية قومية ١٨٣٠ - ١٩٥٦، ط١، تونس ١٩٧٦.
- ٦٨- عابد الجابري، محمد: وحدة المغرب العربي، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٧٨.
- ٦٩- عبد السلام، أحمد: المدرسة الصادقية والصادقيون، بيت الحكمة قرطاج ١٩٩٤.
- ٧٠- عبد السلام، أحمد: مواقف اصلاحية قبل الحماية، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٦.
- ٧١- عبد الله، إبراهيم: شروق وغروب، ج١، مؤسسة سعيديان للطباعة والنشر سوسة تونس (د. ت).
- ٧٢- عبد الله، الطاهر: الحركة الوطنية التونسية، ط٢، دار المعارف للنشر تونس (د. ت).
- ٧٣- عبد المولى، محمود: مدرسة باردو الحربية، الدار العربية للكتاب تونس ١٩٧٧.
- ٧٤- العجيلي، التليلى: صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي، ط١، دار الجنوب للنشر تونس ٢٠٠٥.
- ٧٥- العجيلي، التليلى: الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بتونس، منشورات كلية الآداب، منوبه ١٩٩٢.
- ٧٦- العرفاوي، خميس: القضاء والسياسة في تونس زمن الاستعمار الفرنسي ١٨٨١ - ١٩٥٦ ط١، دار صامد للنشر، صفاقس ٢٠٠٥.
- ٧٧- العربي، علي: الحاضرة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس ١٩٩٥.
- ٧٨- عزيز، عبد الكريم: نضال شعب أبي، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠٠١.
- ٧٩- عطا الله الجمل، شوقي: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ط١، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٧.
- ٨٠- العقاد، صلاح: المغرب العربي دراسة في تاريخه الحديث والمعاصر، مكتبة الانجلو المصرية (د. ت).
- ٨١- علي عامر، محمود: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

- ٨٢- علي عامر، محمود: تاريخ المغرب العربي المعاصر، مطبعة قمحة اخوان، دمشق ٢٠٠١
- ٨٣- علي عامر، محمود: تاريخ المغرب (ليبيا)، مطبعة الأتحاد، دمشق ١٩٨٧.
- ٨٤- علي عامر، محمود: تاريخ المغرب الحديث (تونس - الجزائر)، ط٥، جامعة دمشق ٢٠٠٦
- ٨٥- علي عامر، محمود: تاريخ الدولة العثمانية، منشورات جامعة دمشق ٢٠٠٧.
- ٨٦- عمارة، محمد: الأمام محمد عبده، دار الوحدة بيروت ١٩٨٥.
- ٨٧- عمايرية، حفناوي: الصحافة وتجديد الثقافة، الدار التونسية للنشر ١٩٩٤.
- ٨٨- العياشي، مختار: البيئة الزيتونية ١٩١٠ - ١٩٤٥م، ترجمة حمادي الساحلي، دار التركي للنشر ١٩٩٠.
- ٨٩- عيد، عاطف: الحضارة العربية (تونس - الجزائر)، بيروت ١٩٩٩.
- ٩٠- الفاسي، علال: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية (تطوان) (د. ت)
- ٩١- قدورة، زاهية: تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٥.
- ٩٢- القصاب، أحمد: تاريخ تونس المعاصر ١٨٨١ - ١٩٥٦، الشركة التونسية للتوزيع تونس ١٩٨٦.
- ٩٣- المالك، عبد القادر: المخازن في تونس، تونس ١٩٩٣
- ٩٤- ماكسيمنكو، فلاديمير: الانتليجانسيا المغاربية، ترجمة عبد العزيز بوباكير، ط١، دار النهضة الجزائر ١٩٨٤.
- ٩٥- المحجوبي، علي: انتصاب الحماية الفرنسية في تونس، دار سراس للنشر، تونس ١٩٨٦.
- ٩٦- المحجوبي، علي: تطور الحركة الشيوعية بتونس ١٩١٩ - ١٩٤٣، منشورات كلية الآداب - منوبة ١٩٩٢.
- ٩٧- المحجوبي، علي: جذور الحركة الوطنية التونسية، ط١، بيت الحكمة قرطاج ١٩٩٣.

- ٩٨- المحجوبي، علي: النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر و دار سراس للنشر، تونس ١٩٩٩
- ٩٩- محفوظ، محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، ج٣، دار الغرب بيروت ١٩٨٤.
- ١٠٠- المرزوقي، محمد: صراع مع الحماية، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٧٣.
- ١٠١- مزالي، محمد: دراسات، الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨٤.
- ١٠٢- مسعود بو الخضرة، مسعودة: عبد العزيز الثعالبي ودوره في الإصلاح الإسلامي، إشراف هشام نشابة، المكتبة العصرية بيروت (د.ت).
- ١٠٣- مصطفى صفوت، محمد: مؤتمر برلين ١٨٧٨م وأثره في البلاد العربية، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٧.
- ١٠٤- مناصرية، يوسف: الحزب الدستوري الحر ١٩١٩ - ١٩٣٤، دار الغرب الإسلامي بيروت (د.ت).
- ١٠٥- مناصرية، يوسف: الصراع الايديولوجي في الحركة الوطنية التونسية، دار المعارف تونس ١٩٩١.
- ١٠٦- المنصر، عدنان: استراتيجية الهيمنة، تقديم محمد الهادي الشريف، ط٢، تونس ٢٠٠٥.
- ١٠٧- المؤدب، محمد علي: كفاح الاتحاد العام للشغل، مكتب الاتحاد للنشر، تونس ١٩٩٦.
- ١٠٨- الناضوري، رشيد وآخرون: تاريخ المغرب الكبير، دار القومية للنشر، مصر ٢٠٠٠.
- ١٠٩- النبيلي التونسي، عمر: هذه تونس المجاهدة، مكتبة المغرب العربي، تونس (د.ت)
- ١١٠- نعيصة، يوسف: محاضرات في التاريخ العربي المعاصر، مطبعة الداودي، دمشق ١٩٨٥.
- ١١١- نوار، عبد العزيز: التاريخ الأوربي الحديث ، دار الفكر مصر ١٩٩٩ .

١١٢- الهرماسي، محمد عبد الباقي: المجتمع والدولة في المغرب العربي، ط١، مركز دراسات الوحدة بيروت ١٩٧٨.

١١٣- يحيى، جلال: العالم العربي الحديث، دار المعارف مصر ١٩٩٦.

٣- المصادر باللغة الأجنبية:

،Ablert: L' ancien cimetiè're Israelite de tunis ،ArmandMarek

،universite paris - ٢٠٠٨.

١- ،AZOUZI ،Ammar: Le franÇais aumaghreb ،flsh de

،Kairouan

٢- ،Gerard: Les Europe'ens voyageurs ،Crespo

،Montpellier ٢٠٠٨

٣- ،Genevieve ،falges: un lien de rencontre orient -

،Toulouse ٢٠٠٨ ،occident

٤- ،Henrie Benjamain ،paul: La politique franÇaise ،en

،Tunisie ،paris

،Hibou ،Beatvice: Tunisie d' un reformisme a l' autre ،paris

،L. Couhe: pourquoi devenir proprietaire en tunisie ،paris

١٩٠٠.

،Mahmoud ،SEKhLani: La population de la tunisie ،tunise

١٩٧٤.

٤- المجلات والدوريات:

١- الحوليات التونسية العدد ٣ تونس ١٩٦٦.

الحوليات التونسية العدد ٦ تونس ١٩٧٤.

٢- المجلة التاريخية المغاربية ٦٣-٦٤ تونس ١٩٩١.

المجلة التاريخية المغاربية العددان ٦٥ - ٦٦ تونس ١٩٩٢.

- ٣- المجلة الزيتونية مج ٣- مج ٩، ج ٣ تونس ١٩٣٦.
- ٤- مجلة المستقبل العربي: العدد ٣٦، بيروت ١٩٨٢.
- ٥- مجلة دراسات تاريخية: العدد ١٩- ٢٠ دمشق ١٩٨٥.
- ٦- مجلة المغرب: العددان ١١-١٢ جنيف- سويسرا ١٩١٧
- ٥- الموسوعات:
- ١- حسين، أحمد: موسوعة تاريخ مصر، ج ٣، دار الشعب للنشر القاهرة (د. ت).
- ٢- حمدان، محمد وآخرون: الموسوعة الصحفية العربية، ط ١، المنظمة العربية للتربية والثقافة، تونس ١٩٩٥.
- ٣- الكيالي، عبد الوهاب: الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٩٠
- ٤- المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية، مج ٢، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٠.